الرُّوم

في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم وصلاتهم بالعرب

للدكتور أسد رستم

الجزء الثاني

دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت — لبنان ، ايار ١٩٥٦

الباب الثامن

الاسرة المقدونية والظفر والعظمة والمجد

(٨٦٧ - ١٠٥٧)

•

الفصل الثاني والعشرون

توطيد الملك : باسيليوس الاول ولاوون السادس

(٨٦٧ - ٩١٢)

أصل هذه الاسرة : وتختلف المراجع الاولية في أصل هذه الاسرة. فاليونانية منها تجعلها ارمنية او مقدونية . والارمنية تؤكد نسبها الارمني. والعربية تراها صقلبية . ومن هنا كان هـــذا الاختلاف في الرأي بين رجال الاختصاص . والذي لا خلاف فيه هو ان باسيليوس الاول ولد في خريوبوليس في مقدونية[١]، وان العنصر الصقلبي كان قد اصبح العنصر الرئيسي فيها كما سبق ان أشرنا . ولا يستبعد والحالة هذه ان يكون باسيليوس قد تحدر من اصل مختلط ارمني صقلبي مقدوني[٢] .

١ *Papadopoulos, A., Fontes Historiae Imperii Trapezuntini, 69.*

٢ *Adontz, N., Age et Origine de Basil I, Byzantion, 1934, 223-260.*

افذوكية = باسيليوس الاول = ماريا

خليلة ميخائيل الثالث + ٨٨٢ | ٨٦٧ – ٨٨٦ | طلقت ٨٦٥

اسطفانوس بطريرك القسطنطينية ٨٨٦ – ٨٩٣ | اسكندر ٩١٦-٩١٣ | زويه=لاوون السادس ٨٨٦ – ٩١٢ | قسطنطين الفسيلفس المعاون ٨٧٩-٨٧٠

قسطنطين السابع

٩١٢ – ٩٥٩

باسيليوس الاول : (٨٦٧ – ٨٨٦) وكان باسيليوس طويل القامة مفتول العضل جميل الطلعة جندياً شجاعاً وفارساً مغواراً . ومما يروى عنه انه كان اقدر اهل زمانه في ترويض الخيل وتذليلها ، وانه استرعى نظر ميخائيل الثالث حينما ذلل مهراً جامحاً له بسهولة فائقة . وكان قد سبق له ان قهر جباراً بلغارياً فرماه عن ظهر جواده الى الارض في حفلة اقامها ابن برداس خال ميخائيل الثالث[١]. فاحبه الفسيلفس وجعله امير اخوره Protostrator . وكان ذكياً نشيطاً قديراً ولكنه كان طموحاً . فما ان أصبح عالماً باحوال البلاط وبالنزاع بين ثيودورة وابنها ميخائيل الثالث واخيها برداس حتى بدأ يترقب الفرص لينتفع منها . فأيد برداس ضد اخته ثيودورة ليذكي النفور في البلاط ويجرد القيصر من ذويه . وأيد ارتقاء فوطيوس العرش البطريركي ليؤجج الغيظ ضد البلاط في صدور اعوان اغناطيوس وليبعد عن الفسيلفس كاتم اسرارٍ اشتهر بعقله وفضله وحسن ادارته . ثم بعد ارتقاء فوطيوس

١ *Bréhier, L., Byzance, Vie et Mort, 121.*

أخذ يحرك حزب اغناطيوس ليزيد النفور والغيظ . وبعد ان أصبح رئيس القصر في السنة ٨٦٥ وسوس لسيمباتيوس صهر برداس لابنته ان الفسيلفس عزم على ان يرقيه الى رتبة معاون له وان برداس منعه . فغضب سيمباتيوس من حميه ، وبالاتفاق مع باسيليوس وشى للفسيلفس ان برداس عازم على قتله . فأمر ميخائيل الفسيلفس برداس ان يجمع جيشاً ليتوجه به الى اقريطش لمحاربة العرب . وفي صباح الثاني والعشرين من نيسان سنة ٨٦٦ جاءَ برداس الى خيمة الفسيلفس لابساً حلته الرسمية ليستأذنه باخراج الجيش الى الجزيرة . فلاقاه ستة اشخاص من الذين تعلموا في مدرسته ، وفي مقدمتهم صهره سيمباسيوس وباسيليوس المقدوني . فرسم صهره الصليب اشارة للهجوم عليه . وللحال طعنه باسيليوس بضربة قاتلة سقط على اثرها مضرجاً بدمائه . ثم انكب الباقون عليه وأكملوا ذبحه امام الفسيلفس . ورجع الفسيلفس ميخائيل الثالث الى العاصمة وتبنى باسيليوس وجعله ولي عهده ، واقامه فسيلفساً معاوناً ، وتوّجه في يوم العنصرة في السابع والعشرين من ايار بيد البطريرك فوطيوس . وكان ميخائيل لا يزال طائشاً وكان باسيليوس ادرى الناس به لقربه منه ، ولكونه قد تزوج من خليلته افذوكية انغرينة ، فأدرك ان عطف الفسيلفس قد بدأ يتحول عنه ، فهجم عليه وقتله في قصره في الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ . ثم طلب الى البطريرك ان يمسحه فسيلفساً ، ففعل لرضاه الشعب عنه[1].

وعلى الرغم من هذا كله فان جمهرة من المؤرخين يرون في باسيليوس، على ضوء ما تمّ على يده بعد ان انفرد بالحكم ، رجلاً ادارياً قادراً ، وسياسياً داهيةً ، مفطوراً على السلطة والحكم ، راغباً في اعادة النظام ،

١ جراسيموس متروبوليت بيروت، الانشقاق، ج ١ ، ص ٣٩٧ و٤٠٨ و٣٧٢ – ٤٧٣ .
Theophanes Continuatus, Hist., 208-209, 250-251 .

طامحاً الى اعلاء شأن الامبراطورية واعادة مجدها[1].

باسيليوس والعرب والارمن : وكانت الدولة لا تزال في سلم مع البلغار . وكانت علاقاتها ودية مع البندقية ومع خليفة كارلوس الكبير في ايطالية . وكانت الدولة العباسية قد دخلت في طور ضعف وانحلال اشتد فيـه نفوذ الاتراك ، وعلت اصوات الجواري امهات الامراء ، وثار العلويون مطـالبين بالعرش ، ونفر العرب من بني العبـاس . فتصرف طاهر ابن الحسين وخلفاؤه في النفوس لمصلحتهم في خراسان . واستقل حسن ابن زيد الديلم في طبرستان وجرجـان . ثم تغلب الصفّارية في سجستان وغيرها وارادوا مهاجمة بغداد (٨٧٤) . واستطـاع أفّاق ان يصبح سيد البصرة وان يمد سلطانه الى ابواب بغداد . وسلخ احمد ابن طولون التركي مصر والشام واخذ يجمع الضرائب لحساب نفسه (٨٧٧) . واكتفت بغـداد بتحريض بعض امراء الشام عليه . ثم اعترفت دمشق بسلطة خماروبه ابن احمد ابن طولون فقضى على الاحزاب المعادية في الشام (٨٨٩) واتخذ دمشق قاعدة لملكه .

وأراد باسيليوس الاول ان يستغل هذا الظرف لصالحه وصالح شعبه ، فقام يحارب على طول الجبهة الاسلامية من شاطىء قيليقية حتى ارمينية وطرابزون . ونجح في دفع المسلمين الى الوراء في حروب متتالية بين السنة ٨٧١ والسنة ٨٨٢ . فاحتل الممرات الرئيسة عبر طوروس ، وقاتل البولسيين بين سبسطية على الهاليس وملاطية على الفرات ، ودخل عاصمتهم تفريقية عنوة في السنة ٨٧٢ فدمرها تدميراً وذبح خريسوخيروس صاحبها وعرض رأسه في موكب النصر في القسطنطينية . وفي السنة ٨٧٣ احتل زبطرة وسميساط .

[1] *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 438; Exhortationes ad Filium, Patrologia Graeca, vol. 156, ch. 9.*

ومع انه لم يستولِ على ملاطية فانه قطعها عن دولة العباسيين باحتلاله ما حواليها . وعند السنة ٨٧٧ كان قد احتل لؤلؤة وجميع ما وقع بين قيصرية ومرعش وأصبح سيد جبال طوروس بسلسلتيها وبمرانها[١].

وسرّه ان الخليفة المعتمد اعترف في السنة ٨٨٥ بدولة ارمينية مستقلة بزعامة اشوت بغرتوني[٢] . فأسرع يعترف هو بدوره بالملك الجديد مقدماً له تاجاً مخاطباً اياه بالعبارة « الابن الحبيب » مؤكداً ان ارمينية ستظل اعز حلفاء الامبراطورية . ولكنه في الوقت نفسه بقي على اتصال وثيق بامراء الابساك والكرج كي لا يستفحل امر اشوت الملك الجديد[٣] .

وأدرك القسيلفس الجديد خطورة الموقف في البحر المتوسط وفي الغرب . فان السيادة على هذا البحر كانت قد استقرت في يد المسلمين . وكان هؤلاء قد استقروا في صقلية وفي باري وتارنتوم . وكانوا يغيرون من هذه القواعد على سواحل الادرياتيك الشرقية وسواحل ايطالية الجنوبية فيرعبون سكانها ويعرقلون تجارتها . وما فتئوا حتى ظهروا امام روما نفسها . وكان قد تبين جلياً ان امراء سلرنو وكابوة وبنفنتوم اللومبارديين لا يقوون على الصمود في وجه العرب المسلمين لانقسامهم على انفسهم انقساماً لا وحدة بعده وان الامبراطور الغربي لويس الثاني كان قد اصبح ضعيفاً . وكان قد امّ القسطنطينية وفدان احدهما يمثل هذا الامبراطور والثاني يمثل البابا ليحثا القسيلفس الجديد على صيانة النصرانية في الغرب ودفع خطر المسلمين عنها . فهبّ باسيليوس لمعونة اخوانه في النصرانية وانفذ في السنة ٨٦٨

١ *Vasiliev, A. A., Byzance et les Arabes Sous la Dyn. Macedonienne; Anderson, Campaign of Basil I against Paulicians, Class. Rev., vol. X; Theophanes Continuatus, Hist., 266-268, 271-276.*

٢ *Laurent, Arménie entre Byzance et l'Islam, 265-283.*

٣ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 304 .*

مئة بارجة حربية بقيادة نيقيطاس اوريفاس الى الادرياتيك . وُقدّر النجاح لهذا القائد البحري ففك حصار راغوسة ، ثم تعاون مع البنادقة فأعاد النظام والسلم الى بحر الادرياتيك . وعادت مدن دلمـــاتية الى حوزة الفسيلفس واعترفت دويلات الصرب والكروات بسيادة القسطنطينية[1].

وأدى اندفاع باسيليوس الاول في درء الخطر الاسلامي الى تقربٍ من البابا وتعاونٍ مع الامبراطور لويس الثاني . وبفضل هذا التعاون تمكن لويس الثـــاني من الاستحواذ على باري في السنة ٨٧١ . وبعد وفاته اخذ باسيليوس الامور على عاتقه فاحتل باري في السنة ٨٧٦ وأبقى فيها حامية بزنطية وقائداً امبراطورياً . وفي السنة ٨٨٠ دخل ترنتوم عنوة . ولكنه لم يتمكن من فرض سلطته على صقلية . وسقطت سرقوسة في يد العرب المسلمين في السنة ٨٧٨ . وكان في اثنـــاء هذا كله نصر الـوري يجول جولات موفقة في مياه ايطالية الغربية فيضرب بوارج المسلمين ضربات أليمة ، وما فتىء حتى احرز نصراً كبيراً بالقرب من جزائر ليباري . فدخلت كابوة وسلرنو ونابولي وبنافنتوم في حماية الروم ودخل البابا يوحنا الثامن في حلف مع الفسيلفس . وجاءَت السنة ٨٨٥ فأحرز القائد نيقيفوروس فوقاس انتصارات برية عديدة تمكن بها من استعادة امانتة وتروبة وسانتا رفرينة من يد المسلمين كما اخضع جميع ما وقع بين كوسنزة وبرنديزي . فأنشأ في السنة ٨٨٦ ثيمة لانغوبردية وثيمة كلابرية . واعترف عدد كبير من الامراء اللومبارديين بسلطة الروم . وأصبـــح الفسيلفس باسيليوس الاول « صاحب الشوكة المعظم » في جميع انحاء ايطالية الجنوبية . وانشأت

[1] *Vita Basilii, 290-292; Jirecek, Gesch. der Serben, I, 198 ff; Gay, Italie Meridionale, 49-76.*

الكنيسة الارثوذكسية عـدداً لا يستهان به من الابرشيات في هذه المنطقة عينها[1].

باسيليوس والكنيسة : وقضت هـذه المطامع السياسية الايطالية عينها بوجوب التفاهم بين رئاسة الكنيسة في الغرب وبين الرئاسة في الشرق . ومما زاد في رغبة باسيليوس في ازالة الانشقاق في الكنيسة ، ان انصار اغناطيوس ، منـاظر فوطيوس ، كانوا لا يزالون كثراً في القسطنطينية وما جاورها ، وان باسيليوس كان يكره فوطيوس ويخشى نفوذه في الاوساط العلمية والعالية . وهكذا فاننا نرى باسيليوس يخلع فوطيوس عن العرش البطريركي المسكوني في الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ٨٦٧ ، ويعيد اليه اغناطيوس نفسه ويطلب الى البابا ان يعيد توحيد الصفوف وان يرسل الى القسطنطينيـة من يمثله في مجمع مسكوني يعقد لهذه الغاية[2]. ووافق البابا ادريانوس الثاني (٨٦٧ - ٨٧٢) وأرسل رسله الى القسطنطينية فوصلوا اليها في السنة ٨٦٨ واستقبلوا فيهـا بحفاوة فائقة . وفي الخامس من تشرين الاول سنة ٨٦٩ ، التأم مئة اسقف في مجمع عدّ مسكونياً وروقب مراقبة شديدة من قبل الفسيلفس . فطلب اعضاؤه فوطيوس للمثول امامهم ، ففعل . فطُلب اليه ان يجيب عما وُجه اليه من انتقاد فرفض بعزة وأنفة وكبر . فقُطع هو وجميع اتباعه وكسرت قرارات بطريركيته . وفرض رسل البابا الطاعة على الشرقيين[3].

ولم يدم هذا الانتصار الا قليلاً . ففي غد اليوم نفسه الذي انتهت فيه اعمال هذا المجمع (٢٨ شباط ٨٧٠) تقدم بوغوريس ملك البلغار بطلب

١ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 440-441 ; Gay, Italie Meridionale, 185 ff.*

٢ *Mansi, Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio, XVI, 47 ff.*

٣ *Mansi, op. cit., XVI, 16-207 .*

الى المجمع يرجو فيه البت فيما اذا كانت الكنيسة البلغارية تابعة لرومة او للقسطنطينية. فعقد اعضاء المجمع اجتماعاً خاصاً لهذه الغاية. ووجد رسل رومة ان باسيليوس واغناطيوس لم يكونا اقل تمسكاً بالكنيسة البلغارية وبوجوب دوام خضوعها لكرسي القسطنطينية من برداس وفوطيوس. وعلى الرغم من احتجاج رسل البابا فان باسيليوس أقر خضوع الكنيسة البلغارية لسلطة البطريرك المسكوني، وأسرع اغناطيوس فسام عليها رئيس اساقفة يونانيا يعاونه عشرة اساقفة يونانيين ايضاً. واضطر الكهنة الرومانيون ورؤساؤهم ان يغادروا بلغاريا. ولدى وفاة اغناطيوس البطريرك المسكوني في السنة ٨٧٧ طلب باسيليوس الى فوطيوس ان يخلفه. وكان فوطيوس قد نجا من المنفى وعاد الى القسطنطينية ليهذب اولاد الفسيلفس. وفي السنة ٨٧٩ عاد الفسيلفس فطلب الى حليفه في السياسة البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢) ان يشترك في مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية للنظر في قضية فوطيوس البطريرك. فأوفد يوحنا الثامن من مثله في هذا المجمع. والتأم لهذه الغاية واحد وثانون رئيس اساقفة (متروبوليت) ومئتان وسبعون اسقفاً. واحتج فوطيوس احتجاجاً شديداً على قرارات المجمع السابق، فوافق المجمع الجديد على براءة فوطيوس مما نسب اليه، وكسر قرارات مجمع السنة ٨٦٩ — ٨٧٠، وأعلن فوطيوس رئيساً للكنيسة الشرقية، واعتبره ممثلو البابا «صاحب قداسة». وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٧٩ قدم فوطيوس الذبيحة الالهية يعاونه جميع اعضاء المجمع. وأصدر المجمع قوانين ثلاثة اهمها: ان البطريرك فوطيوس يحرم من يحرمه البابا يوحنا من رجال اكليروسه او ابناء رعيته المقيمين في آسية او اوروبة او افريقية، وان البابا يوحنا يقابله بالمثل، وان «التقدم» الذي للكنيسة الرومانية يبقى على حاله بلا احداث ولا تغيير ان في الحاضر او المستقبل. وعقدت الجلسة السادسة قبل الاخيرة في الثالث من آذار سنة ٨٨٠ في

البلاط لا في آجيا صوفيا ، وحضرها الفسيلفس واولاده . ونصح الفسيلفس ان يكتب دستور ايمان عام . فأجاب نائب بطريرك انطاكية « ان دستور الايمان في كل المسكونة هو هو لا يتغير والمجمع الحاضر يصدق عليه . » ثم قال نواب رومة انه يجب ان لا يسنّ قانون جديد بل ان يصدق على دستور الايمان القديم النيقاوي . فأمر البطريرك فوطيوس رئيس الكتاب الشماس بطرس ان يقرأ اعتراف الايمان ، ففعل .

وكان يقال فيما مضى ان رومة لم تعترف بقرارات هذا المجمع المسكوني الثامن وان البابا يوحنا الثامن لدى اطلاعه على قرارات هذا المجمع المسكوني الثامن ارسل مارينوس سفيراً الى القسطنطينية ليقنع الفسيلفس والبطريرك بوجوب تعديل بعض قرارات هذا المجمع وانه أخفق في هذا ، فصعد على الآمبن وفي يده الانجيل ونادى : « كل من لا يعتبر فوطيوس المفروز بحكم الهي كما تركه الباباوان نيقولاووس وادريانوس القديسان ليكن اناثيما اي مفروزاً » ، وان الفسيلفس غضب فألقاه ثلاثين يوماً في السجن[1]. ولكن جمهرة العلماء اليوم وبينهم الكاثوليكيون امثال دفورنك وغروَمل يرون ان هذا كله كان ضرباً من الدعاوة الاغناطيوسية التي اختلقت اختلاقاً في ايام البابا فورموسيوس (٨٩١ – ٨٩٦) وان كل ما نعلمه عن علاقات فوطيوس بالبابا يوحنا الثامن يكذب هذه الدعاوة تكذيباً[2]، وانه لم يقم بين خلفاء البابا يوحنا الثامن وحتى انتهاء بطريركية فوطيوس الثانية في ايام لاوون السادس مَنْ قطع علاقاته مع هذا البطريرك العالم التقي العظيم[3].

١ *Patrologia Graeca, Vie d'Ignace Patriarche de Const. vol. 105*

٢ *Dvornik, F., Pretendue Condamnation de Photius, Byzantion, 1933, 426 ff; Grummel. R. P., Y a-t-il un second schisme de Photius?, Rev. Sc. Th., 1933.*

٣ *Fliche, A., et Martin, V., Histoire de l'Eglise, (1937-1944), VI, 497-498; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 442-444.*

سياسة باسيليوس الداخلية : وكان باسيليوس يشعر بالواجب الملقى على عاتق الفسيلفس فيراه يقضي بالعدل والاستقامة والمحبة والرأفة والاحسان[١]. ولذا فانه سعى سعياً حثيثاً لرفع شأن العرش بعظمة البناء وكثرة البذخ والفخفخة وبحسن الادارة . وقال بوجوب السهر لرفع الظلم فجلس على منصة الحكم يصغي للمتظلم من الحكام ورجال الادارة . وأعلن نفسه حامياً للفقراء والوضعاء والتعساء . وجعل بمقدور رعاياه ان يتثبتوا من صحة الضرائب المفروضة عليهم . وعني عناية فائقة بانتقاء الموظفين وحضهم على العدل وعلى سياسة الرعايا بايادي طاهرة غير ملوثة[٢]. وبذل وسعه للحد من جشع اصحاب الاملاك الكبيرة ولتقليم اظافر هؤلاء الذين « طمعوا بما ليس لهم » .

ثم رغب في توضيح القوانين والشرائع وتدقيقها[٣]، فأمر بوجوب «تطهير» الشرائع القديمة منذ عهد يوستنيانوس وجعلها تتلاءم وتطورات المجتمع . وأمر ايضاً بنقلها الى اليونانية . وكان يهدف من وراء هذا فيما يظهر الى الغاء التشريع الاسوري ، الى « اسقاط هذه الاكلوغة الهدامة وابطال احكامها الرديئة[٤] » . وعيّن لجنة لهذه الغاية . ولا يستبعد ابداً ان تكون هذه اللجنة قد عملت باشراف فوطيوس البطريرك المسكوني . فظهر في السنة ٨٧٩ البروخيرون في اربعين فصلاً وفيه افضل ما جاء في مجموعة يوستنيانوس الكبيرة Corpus Juris Civilis . وبانت في السنة ٨٨٦ الاباناغوغوة Epanagogè في اربعين فصلاً خلاصة وافية في ايدي القضاة والطلاب والاساتذة .

١ *Exhortationes, ch. 41 : Vita Basilii, 321-340.*

٢ *Vita Basilii, 257-261.*

٣ *Freshfield, , Ecloga ad Prochirion Mutata .*

٤ *Prochiron, Préface, Parag., 3, 9.*

وكان باسيليوس قد طلّق زوجته الاولى ماريا في السنة ٨٦٥ وتزوج من افذوكية خليلة ميخائيل الثالث. فلما رقي باسيليوس العرش سرت اشاعة في العاصمة ان لاوون ابن باسيليوس الاكبر من زوجته افذوكية هو ابن ميخائيل لا باسيليوس. وعلم الفسيلفس بذلك في حينه. ودبرت عدة مؤامرات لاغتياله. فرأى من المناسب ان يوطد سلطته بتبيان اصل العائلة المالكة وحقها بالملك. ففعل واطلق على كل عضو من اعضاء عائلته اللقب Porphyrogenetes اي الذي أبصر النور بالارجوان. فنشأ عن هذا اخلاص واحترام ووفاء للاسرة المالكة أهابت بالمغتصبين انفسهم الى احترام من بيده السلطة الشرعية والى التدليل بشرعية اغتصابهم. وأصبح شق عصا الطاعة بحد ذاته جرماً وجهلاً في نظر الشعب. وساد الاعتقاد ان من بيده الحق في الملك يغلب في النهاية. وتمكنت النسوة من جراء هذا كله من الجلوس على العرش والتحكم في مقدرات الشعب. وهي ظاهرة اجتماعية سياسية لا اثر لها في الغرب المعاصر[1].

لاوون السادس: (٨٨٦ – ٩١٢) وتوفي باسيليوس من جراء جرح أصابه في اثناء الصيد في التاسع والعشرين من آب سنة ٨٨٦ وكان قد أوصى بالملك لولديه لاوون واسكندر، وكانا قد أشركا في الحكم في عهد والدهما. واستأثر لاوون بالسلطة ولم يعارضه في ذلك اخوه اسكندر لانـــه كان خفيف العقل طائشاً فاستصبى واستهتر.

ولم يكن لاوون رجل حرب كوالده لان صحته لم تكن تساعده على ذلك، فلازم القصر واهتم بآداب المعاشرة والتشريفات، وحارب في اكثر الاحيان بالمنظار من قصره بعيداً عن ساحات الوغى. ولم يكن والده ذا علم فأحب

١ *Vita Basilii*, 240, 264; *Cecaumenos*, *Strategikon*, 73-74.

ان يتلقن اولاده علوم العصر ، فوكل امر تهذيب لاوون الى فوطيوس البطريرك . فنشأ لاوون محيطاً بجميع علوم عصره . فادعى المنطق والفلسفة واللاهوت والقضاء والتكتيك في الحرب والشعر والسحر والتنبؤ وفاخر بها جميعاً . واثرت هذه الاحاطة في اوساط العاصمة فلقب بالحكيم . وكان متعبداً متديناً يعظ المؤمنين في الاعياد ومجالس الرهبان ورجال الدين ولاسيما معلم ذمته افثيميوس . وأوصى في قوانينه الصادرة عنه بدرجة من المحافظة على الاخلاق لم يصل هو نفسه اليها[١].

لاوون والكنيسة : وكان قد وشي لباسيليوس بابنه لاوون بانه ينوي قتله ، فسجنه وعزم على قلع عينيه ، ولكن فوطيوس البطريرك توسط في أمره وخلصه من الخطر . ولدى ارتقاء لاوون العرش دسّ اعـداء فوطيوس الوساوس للفسيلفس الجديد واقنعوه ان الواشي بـه لابيه كان ثيوذوروس الساحر واشركوا مع هذا بالتهمة فوطيوس نفسه . فعزل لاوون فوطيوس إما لانه صدّق الوشاية او لانه احب ان يجلس اخاه اسطفانوس بطريركاً او للامرين معاً ، ونفاه في اواخر السنة ٨٨٦ ، وحبس ثيوذوروس وجلده ، ورقى اخاه السنكلس اسطفانوس كرسي البطريركية . وتوفي فوطيوس في السادس من شباط سنة ٨٩١ . ولا يزال الدير ، الذي اقامه في جزيرة خالكي بالقرب من القسطنطينية على اسم الثالوث الاقدس ، وقد اصبح مدرسة اكليريكية عالية ، يحتفل بتذكاره في السادس من شباط حتى يومنا هذا كما لا تزال الكنيسة الارثوذكسية تعتبره قديساً عظيماً مساوياً للرسل . وتوفي البطريرك اسطفانوس اخو لاوون في السنة ٨٩٣ وقام بعده البطريرك انطونيوس الملقب بكاولياس Cauleas احد رهبان اوليمبوس . وكان رجلاً فاضلاً ايضاً

١ *Cernauti, Etudes de Droit Byzantin, III. 41; Monnier, H., Novelle de Léon le Sage, 14; Krubmacher. K., Gesch, der Byz. Lit. 628; Vogt et Hausherr, Oraison Funébre de Basil I, Orientalia Christiana, 1932.*

فحاول باخلاص اصلاح العلاقات بين اتباع فوطيوس واتباع اغناطيوس ، ولكن دون جدوى . وتوفي سنة ٨٩٥ فقام بعده البطريرك نيقولاووس ميستيكوس Mysticos ، اي المكاتم . وكان رجلاً عالماً ، فاضلاً ، تقياً ، تقبل النذر بعد ان كان قد اصبح كاتم اسرار لاوون الفيلسوف . ورقي في درجات الكهنوت الى ان انتخب بطريركاً . وما فتىء حتى نفاه لاوون في السنة ٩٠٦ ، فجلس على كرسي القسطنطينية افتيميوس السنكلس[١].

وكان شغل لاوون الشاغل وهمه الاوحد ان يكون له ولد ذكر يخلفه على العرش . وماتت زوجه الاولى ثيوفانو في السنة ٨٩٣ . وكانت له علاقات غير شرعية مع زويه ابنة استيليانوس زاوتسه . وكانت هذه قد اماتت زوجها الشرعي مسموماً ، وتوفي والدها . فاراد لاوون ان يتزوج منها زواجاً شرعياً ، وطلب الى كاهن البلاط ان يرفع يده بالبركة ففعل . ولكن البطريرك انطونيوس لم يرضَ عن هذا الاكليل . وبقيت زويه مع لاوون سنة وثمانية اشهر ثم ماتت . فتزوج الفيلسوف من ثالثة افذوكية الشهيرة بجمالها . ولكنها ما لبثت معه الا مدة الحمل ، فانها ماتت في اول ولادة هي وطفلها معاً . وهكذا فان لاوون بقي بدون ولد ذكر يخلفه . فأقام فيما بعد مع سرية اسمها زويه كاربونوبسينا Zoé Carbonopsina « ام العيون السود ! » وبعد ان خلّف منها ولداً ذكراً هو قسطنطين السابع ، طلب الى البطريرك نيقولاووس ميستيكوس ان يكلله عليها . فذكره البطريرك بالمادة التسعين من القانون الذي أصدره هو بصفته فسيلفساً وقد ثبت فيها القانون الكنائسي بمنع الزيجة الرابعة وشجب الثالثة . وذكره ايضاً بالمادة الحادية والتسعين من القانون نفسه التي منعت اقتناء

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانشقاق ، ج ١ ، ص ٥٣٤ ، وج ٢ ، ص ٩ – ١٠ .

السراري . ثم قال انه يعمّد المولود الجديد شرط ان يهجر الفسيلفس أم الطفل. فقبل لاوون بذلك وطرد زويه من البلاط . فاقيم سرُّ العماد باحتفال مهيب يوم عيد الظهور في السنة ٩٠٦ . ولكن لم تمض ثلاثة ايام حتى عادت زويه الى البلاط . وعلم لاوون انه ليس بين الكهنة ورؤساء الكهنة من يقبل ان يكلله عليها فكلل نفسه عليها بنفسه ، فكان هو العريس والقسيس معاً . ثم أغوى كاهناً اسمه توما فكلله ، فقطع البطريرك الكاهن ، وأخذ ينصح الى لاوون ، لا بل يتضرع اليه ، الا يكون عثرة في سبيل الكنيسة ، وان يتصرف بما يشرف مركزه العالي كي يصبح شخصه الشريعة الناطقة. فلما أصرّ الفسيلفس على موقفه منعه البطريرك من الدخول الى الكنيسة ، وسمح له بان يقف في المدخل مع الموعوظين . فسعى القيصر لدى بعض الاساقفة واستمالهم اليه ، كما استمال البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤ – ٩١١) وعقد مجمعاً في السنة ٩٠٦ ، وانزل نيقولاووس عن كرسيه البطريركي . وجلس البطريرك افثيميوس السنكلّس ، فحل لاوون من حرمه وقبله في شركة الكنيسة . وعزم لاوون ان يسن قانوناً يحلل به الزيجة الرابعة والخامسة والسادسة وهلم جراً ، ولكن افثيميوس منعه من ذلك . وظل لاوون فيما يظهر غير مرتاح البال حتى ساعة وفاته . فانه عندما اقترب أجله في السنة ٩١٢ ، استدعى نيقولاووس من منفاه ، وبكى وطلب الصفح ، وأوصى اخاه الوصي الكسندروس ان يخلع افثيميوس ويرجع نيقولاووس[١].

سياسة لاوون الداخلية : وعني لاوون بالتشريع كما فعل والده من قبل . وأمر بتأليف لجنة من كبار رجال القضاء لتعيد النظر فيما تم

١ *Diehl, C., Les Quatre Mariages de Léon, Figures Byzantines, I, 181-215 ; Gay, I., Le Patriarche Nicolas le Mystique, Mélanges Diehl, I, 91-100 ; Bréhier, L., Byzance, op, cit., 142-146 .*

في عهد والده . فظهرت على يد هذه اللجنة ما بين السنة ٨٨٦ والسنة ٨٩٢ مجموعة جديدة للقوانين باللغة اليونانية دعيت الباسيليكة . واللفظ مشتق من كلمة فسيلفس لا من كلمة باسيليوس ، ومعناه الشرائع الامبراطورية[١]. وليس لدينا نسخة كاملة تشمل الكتب الستين التي تألفت منها هذه الباسيليكة . وجل ما وصل الينا نسخ متعددة ناقصة تضم بمجموعها حوالى ثلثي هذا المؤلف النفيس . بيد ان القاضي باتزس Patzes الذي عاش إما في القرن الحادي عشر او الثاني عشر صنّف التيبوكيتوس Tipucitus فجعله جدولاً كاملاً لمحتويات الباسيليكة[٢]. وقد يعود كتاب الابارخوس الذي وجده العالم السويسراني نيقولا في اواخر القرن الماضي في جنيف الى عهد لاوون . والابارخوس لقب حاكم القسطنطينية اعلى الموظفين الاداريين في الدولة . وكان عليه ان يوطد الامن في العاصمة وان يدبر شؤون جميع النقابات الصناعية والتجارية . ومن هنا كانت اهمية هذا الكتاب ، فانه يحفظ لنا ما لا نجده في غيره من المصنفات . فهو يصف انظمتها وسير اعمالها ، ويبدأ بنقابة الكتّاب العدول ، ثم يصف نقابات الصاغة ، فرجال الحرير ، فالكتان والشمع والصابون ، والدباغين ، والخبازين ، واللحامين وغيرهم[٣]. وهنالك اكثر من مئة قانون تعود الى عهد لاوون ايضاً ولكنها لم تدرس بعد درساً وافياً[٤].

وعلى الرغم من هذا الاهتمام بالاشتراع فان بلاط لاوون السادس الحكيم ظل مسرحاً للمؤامرات والدسائس طوال مدة حكم هذا الفسيلفس. وتفصيل ذلك ان لاوون آثر الاهتمام بتنظيم القوانين على تطبيقها ، وشغل

١ *Heimbach, G., Basilicorum Libri.*
٢ *Ferrini, C., Opere di Contardo Ferrini, I, 349-363.*
٣ *Stockle, A., Spatromische und Byzantinische Zunfte, Leipzig, 1911.*
٤ *Monnier, H., Les Novelles de Léon le Sage.*

بالاستقبالات والتشريفات عن الاشراف على الادارة . فنفذت كلمة استليانوس تراوتزس الارمني الموظف في بلاط باسيليوس الذي كان قد أيد لاوون في نزاعه مع والده وتغاضى عن علاقات لاوون مع ابنته زوية . وعندما أصبح لاوون فسيلفاً جعل من استليانوس هذا لوغوثيتاً واعطاه صلاحيات واسعة بحيث أصبح وزيره الاول . وكان استليانوس في نزاع دائم مع افثيموس الراهب معلم ذمة الفسيلفس ، وأصبح الشغل الشاغل لكل منهما الدس على الآخر . وتوفي استليانوس في السنة ٨٩٨ فنال الحُظوة عند لاوون خصي عربي اسمه ساموناس ، كان قد تقبل الدين المسيحي ، وكشف للفسيلفس مؤامرة مخيفة . فاحبّه الفسيلفس وقرّبه وغمره بالمال ، وأفاض عليه الرتب والالقاب . وعلى الرغم من انه حاول الفرار الى بلاده باموال في السنة ٩٠٤ فان لاوون اكتفى باهماله بضعة اشهر ثم أعاده الى سابق عزه ونفوذه . وما فتىء كذلك حتى السنة ٩١١ ، ففيها ثبت لدى الفسيلفس ان هذا الخصي العربي هو الذي نظم الاهجية الفاضحة بحقه . فصادر الفسيلفس امواله وحبسه في احد الاديرة[١]. وأحل محله الخصي قسطنطين البافلاغوني .

ويعزو بعض رجال الاختصاص الى لاوون الحكيم انشاء سلسلة من القلاع المحصنة في اماكن متقدمة عند الحدود العربية الاسلامية دعيت كليسورات Clisurae . وكانت الغاية من انشائها ، فيما يظهر ، تدعيم الحدود وبث الدعاية السياسية والدينية . وأهم ما انشىء منها قام في قبدوقية الشرقية وفي اعالي الفرات[٢]. وخسر الروم اكسارخوسية افريقية لوقوعها في يد العرب ، واكسارخوسية رابينة لوقوعها في يد اللومبارديين اولاً ، ثم الافرنج بعدهم . وفي السنة ٧٥٤ كانت هذه الاكسارخوسية قد

١ . *Janin, R., Un Arabe ministre à Byzance, Echos d'Orient, 1935, 308-318.*

٢ *Gelzer, H., Ungedruckte... Texte der Notitiae Episcopatum, 562 ff.*

اصبحت نواة مملكة البابا الزمنية ، على اثر تنازل بابينوس عنها واهدائها لحبر رومة . وفي اوائل القرن التاسع كان لدى الروم عشر ثيات ، خمس في آسية ، واربع في اوروبة ، وواحدة بحرية . ويرى رجال الاختصاص ان باسيليوس الاول ولاوون السادس زادا عدد هذه الثيات ، فجعلاها خمس عشرة ، واضافا اليها دوقية واحدة ، وكليسوريتين ، وارخونيتين . ودليلهم على هذا مأخوذ من نص ابن خرداذبه المشار اليه سابقاً ، ومن بعض النصوص الاخرى[١].

لاوون الحكيم والعرب : وكانت قد اصبحت اقريطش العربية بلية الروم وأضحت عاصمتها الخندق مأوى القرصان المسلمين وملجأهم . فمنها ومن طرسوس وطرابلس كانوا ينتشرون في مياه الارخبيل فيسطون على التجارة وينقضون على الجزر مخربين مدمرين . فهجر الروم الجزر وفرّ سكان سواحل ايجه الى داخلية بلدانهم . وفي السنة ٩٠٤ قام لاوون الطرابلسي بهجوم جريء جداً على القسطنطينية نفسها ، فدخل الدردنيل بأشرعته السوداء وأحابيشه المردة . ثم انثنى من تلقاء نفسه وانقضّ على ثيسالونيكية اكبر مدن الروم بعد القسطنطينية . وقدر له ان تكون هذه خالية من الحامية ، فدخلها عنوة في بضع ساعات ، وقتل ونهب ، ثم سبى اثنين وعشرين الفاً من الشبان والشابات ، فباعهم في اسواق الرقيق في الخندق وطرابلس[٢]. فعظُم هذا الامر على الروم وشق وصعب . وهب هيماريوس قائد البحر في السنة ٩٠٦ فانتصر على المسلمين انتصاراً كبيراً . وتشجع وتقوى ، فقاد في السنة ٩١٠ حملة بحرية كبيرة على اقريطش بسبعة آلاف فارس واربعة وثلاثين الف

١ *Bury, J. B., Imperial Adm. System in Ninth Cent., 146-147 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 448-449 .*

٢ *Theophanes, Cont., 366-371 ; Cameniate, J., De Excidio Thessalonicensi, 564-567 .*

مقاتل بحري ، وخمسة آلاف من المردة ، وسبع مئة مرتزق رومي . واخفق هيباريوس فعاد عن اقريطش فصده في البحر اسطول عربي كبير في مياه ساموس فأنزل به خسارة كبيرة .

ولم يكن فوز العرب في الغرب أقل منه في الشرق . ففي السنة ٩٠١ سيطر العرب على مضيق مسينا . وفي السنة ٩٠٢ تم استيلاؤهم على صقلية باكملها ، وأعلن امير القيروان انه «سوف يخرّب مدينة الشيخ الهرم بطرس نفسها[١]» . وقامت مشاغل جديدة في البلقان ، فلم يتمكن لاوون من الدفاع عن رومة وايطالية كما فعل والده من قبل .

لاوون والبلغار : وكان قد تم الامتزاج بين البلغار الحاكمين ورعاياهم الصقالبة ، فتوحدت الكلمة ، واشتدت المطامع وعظمت . وكانت بلغارية في عهد لاوون السادس قد شملت قسماً هاماً من البلقان الغربي ، ومعظم ما وقع بين الدانوب ومورافية وبولونية . وكان قد تولى العرش بعد بوغوريس الاول ابنه سمعان (٨٩٣ — ٩٢٧) . وكان سمعان قد نشأ في القسطنطينية رهينة ، فتهذّب فيها ، واتقن اليونانيـة والخطابة والمنطق ، وتذوّق بذخ البلاط ، ونفـائس الحضارة البيزنطية . فطمع في عرش الروم ، وتاقت نفسه الى التاج البيزنطي . وما ان تبوأ العرش البلغاري في السنة ٨٩٤ حتى وجد نفسه في حرب ضد الروم[٢].

والغريب في هذه الحرب انها بدأت من جراء نزاع اقتصادي ، فاختلفت عن سواها من الحروب السابقة . وتفصيل ذلك ان التجار البلغاريين كانوا قد انشأوا لانفسهم وكالات تجـارية في القسطنطينية ، زاحموا بها

١ *Gay. I., Italie Meridionale, 155-158 .*

٢ *Runciman, S., First Bulgarian Empire; Rambaud, A., Hellènes et Bulgares.*

زملاءَهم الروم ، وكان هؤلاء قــد نجحوا فأكرهوا البلغاريين ، بتدبير خاص ، على الخروج من القسطنطينية والاتجار في ثيسالونيكية ، ونجحوا ايضاً في ان يجعلوا الدولة تفرض على التجار البلغـــاريين ضرائب باهظة . وفاوض سمعان زميله لاوون في أمر هؤلاء فتُلكع في ذلك ، فاغتاظ وأعلن الحرب[1]. وانقضَّ سمعان على تراقية ، وكان معظم جيش لاوون في آسية ، فانتصر الملك البلغاري . فاضطر لاوون ان يستعين المجر . فعبر هؤلاء الدانوب في الوقت نفسه الذي شنَّ فيه الروم هجوماً جديداً من البر والبحر . فقاتل سمعان متراجعاً ثم فاوض الروم في الصلح . فوقف القتال في الجبهة الجنوبية . وتفرغ سمعان للمجر فسحقهم سحقاً ، ثم قطع مفــاوضاته مع الروم وعاد الى الحرب . وفيما كان المجر لا يزالون في الاراضي البلغـارية ما وراء الدانوب ، والعرب لا يزالون يغيرون على شواطىء ايجه ، توصل الروم والبلغار في السنة ٩٠٤ الى سلم بقي محترماً من الطرفين طوال عهد لاوون . وظل الطمع في السيطرة على البلقان مشكلة تتطلب الحل طوال القرن العاشر[2].

الروم والروس : ويرى عدد من علماء الروس ان علاقات الروس مع الروم بدأت في عهــد لاوون السادس حينما ظهر الامير الرومي اولاغ في السنة ٩٠٧ عند اسوار القسطنطينية على رأس قوة بحرية روسية مطالباً ببعض الامتيازات التجارية . وهم يرون ايضاً ان اولاغ لجأ الى العنف في ضواحي القسطنطينية ، وان ظروف لاوون اضطرته الى عقد معاهدة مع اولاغ في السنة ٩١١ منح بموجبها الامتيازات المطلوبة[3].

١ *Theophanes Cont.*, 357 .

٢ *Rambaud, A., Empire Grec, 346 ff.*

٣ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp.* 320-322 ; *Ostrogorsky, G.*, Expédition du *Prince Oleg contre Constantinople, Annales Inst. Kondakov, 1940, 47-62* .

ويشك عدد لا يستهان به من علماء الغرب في صحة هـذه الرواية ، ويرون ان كل ما جاء عن اولاغ وغيره من اخبار عن حوادث جرت قبل السنة ٩٤١ لا يزال مفتقراً الى الاثبات ، وان قصة ظهور اولاغ عند اسوار القسطنطينية هي اسطورة من الاساطير[١]. ويرى فازيلييف في نص المخطوطة اليهودية عن علاقات الخزر بالروس والروم دليلاً مهماً على صحة خبر الحملة الروسية المشار اليها[٢].

١ . *Grégoire, H., Legende d'Oleg, Bull. Acad. Roy. Belgique, 1937, 80-94.*
٢ . *Schechter, S., An Unknown Khazar Document, Jewish Quart. Rev., 1912-1913, 181-219.*

الفصل الثالث والعشرون

النهوض بالدولة : قسطنطين السابع وورومانوس ليكابينوس

(٩١٢ - ٩٥٩)

قصور ووصاية : (٩١٢ - ٩١٩) وتوفي لاوون السادس الحكيم في الحادي عشر من ايار سنة ٩١٢ . وكان منذ التاسع من حزيران سنة ٩١١ قد جعل للدولة ثلاثة اباطرة : لاوون واخاه الكسندروس وقسطنطين السابع الارجواني المولد Porphyrogenitus . وكان قسطنطين لا يزال في السادسة من عمره . وكان عمه الاسكندر في الثانية والاربعين . وما ان تسلم مقاليد الوصاية والحكم حتى طرد زوية من القصر وخلع افثيميوس البطريرك وأعاد نيقولاووس الى الكرسي . فأنزل هذا كل من أيد زواج لاوون من رؤساء الاساقفة عن كراسيهم . فدخلت الكنيسة في نزاع داخلي جديد، وامتنع عدد من رؤساء الاساقفة عن الاعتراف برئاسة نيقولاووس . وأشهر هؤلاء ارياس متروبوليت قيصرية . ورفض الكسندروس تنفيذ بعض شروط المعاهدة التي ابرمها لاوون مع ملك البلغار ، فأدى عمله هذا الى حرب بلغارية جديدة . وتوفي في السادس من حزيران سنة ٩١٣ بعد ان أقام مجلس وصاية برئاسة البطريرك . فنشب نزاع شديد بين البطريرك ورئيس مجلس الوصاية وزوية ام القسيلفس القاصر ، وقد دام ست سنوات (٩١٣ - ٩١٩) . وكان من الطبيعي جداً ان يستغل الموقف كل من سوّلت

له نفسه الملك . وحاول ذلك كل من قسطنطين دوقاس اولاً (٩١٣) ، ولاوون فوقاس بعده (٩١٨ – ٩١٩) ولكنهما اخفقا . وشاءَ القدر أن يكون رومانوس ليكابينوس قائد العمارة البحرية في البحر الاسود اكبر حظاً من هذين العسكريين ، فاحتل البلاط في اذار السنة ٩١٩ وطرد زوية ومن شدّ ازرها ، واستحوذ على شخص الفسيلفس الصغير ، وأزوجه من ابنته هيلانة ، وأعلن نفسه Basileopator ابا الملك . وتقبل التاج قيصراً في ايلول من السنة نفسها . وتوّج زوجته واشرك اولاده خريسطوفوروس واسطفانوس وقسطنطين في الحكم معه . ثم أعلن نفسه فسيلفساً في كانون الاول من السنة نفسها ايضاً[١]. وعلى الرغم من انه ابقى لصهره لقبه الفسيلفس فانه لم يسمح له بالخروج من البلاط .

وعقد نيقولاووس البطريرك المسكوني مجمعاً في تموز سنة ٩٢٠ مؤلفاً من اساقفة الشرق نيقولاويين وافثيميين . وبعد مراجعة قوانين الآباء حرّم هذا المجمعُ مجمعَ السنة ٩٠٦ ، وأقر بالاجماع قراراً واحداً في أمر الزواج اسماه كتاب الاتحاد Tomus Unionis منع فيه الزيجة الرابعة منعاً قطعياً، وحرّم على المتجاسر عليها الدخول الى الكنيسة ما دام مصراً على غيّه ، واعتبره غريباً عن الهيئة المسيحية . ونعت الزيجة الثالثة بالدناسة ، ومنعها على الذين لهم اولاد ، والذين يزيد عمرهم على الاربعين . ووضع المتزوجين الزيجة الثالثة تحت قصاص الابتعاد عن المناولة خمس سنوات .

الحرب البلغارية : وكان تشامخ الفسيلفس الاسكندر قد أدّى الى اندلاع نار الحرب ثانية بين الروم والبلغار . فاستغل سمعان ملك البلغار هذه القلاقل الداخلية وظهر بجيوشه امام اسوار القسطنطينية في صيف السنة

١ Runciman, S., *Emperor Romanus I, Lecapenus*, London, 1929; Diehl, C., *Figures Byzantines*, I, 208-215.

٩١٣ . وفي السنة ٩١٤ استولى على اندرينوبل ، وسحق في السنة ٩١٧ جيشاً بيزنطياً بالقرب من انخيالوس . فاضطر البطريرك نيقولاووس الوصي ان يستعطف الملك البلغاري تارة ، ويتهدده تارة اخرى . وعبثاً حاول ساسة الروم إلهاءَ سمعان باستهواء البتشناغ الاتراك الذين كانوا قد احتلوا ما وقع بين الدانوب والدنيبر ، وباسترضاء القبائل الصربية وزجها في ميدان القتال . واستولى سمعان على جميع تراقية وكل مقدونية ، ولم يبقَ امامه سوى اقتحام القسطنطينية نفسها . فجاءَها محاصراً في السنة ٩٢٤ . وطاف به جنوده ازاءَ اسوار العاصمة محيينه تارة بالفسيلفس وطوراً بامبراطور البلغار والروم. وآثر هو المفاوضة على العنف ، فطلب مقابلة الفسيلفس رومانوس . فقبل رومانوس والتجأ الى كنيسة العذراء مصلياً متضرعاً . ثم لفَّ صدره برداء العذراء العجائبي Maphorion وخرج الى مقابلة خصمه . فكلّمه كلاماً مؤثراً . وكان سمعان قد استنجد المسلمين فلم يلبوا الطلب . ولم يكن لديه ما يحاصر به العاصمة من البحر فاتعظ وفاوض في أمر الصلح[1]. فكان هذا بدء تقهقر الامبراطورية البلغارية[2].

وكان لسمعان ان استحصل من رومة على لقب الامبراطور وان رقي رئيس كنيسته الى رتبة بطريرك . فمثل حبر رومة في البلقان الدور نفسه الذي كان قد مثله سلفه عندما جعل من كارلوس الكبير امبراطوراً في الغرب . فمهّد بعمله هذا الى انشقاق الكنيسة الام الى كنيستين كما سنرى .

وكان سمعان يحب العلم والعلماء ، فاحاط نفسه بهم ونقل الى البلغارية افضل مصنفات الروم : تآليف باسيليوس ، واثناسيوس ، ويوحنا الدمشقي ،

١ *Theophanes Continuatus, 380, 389-390, 405-408; Runciman, S., First Bulgarian Emp., 168 ff.*

٢ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 450.*

وخرونيقون ملالاس . وجمع هو بنفسه مختارات شائقة من مواعظ يوحنا الذهبي الفم واقواله .

وتوفي سمعان في السنة ٩٢٧ وخلفه ابنه بطرس الصغير . وتولى الوصاية على الملك الطفل جاورجيوس سرسبول . فاستغل الروم الموقف فأعادوا امارة الصرب الى الوجود وشملوها برعايتهم وحمايتهم . وهدد المجر الحد الشمالي ، وشق بعض امراء الاقطاع عصا الطاعة . فاضطر سرسبول ان يفاوض الروم في الوصول الى سلم دائم . ووقع في السنة ٩٢٧ معاهدة مع رومانوس الاول . واهم شروط هذه المعاهدة ان الروم ابقوا للبلغار كل ما ضمه سمعان حتى جبال الرودوب ، واعترفوا لبطرس بلقب فسيلفس كما أقروا للكنيسة البلغارية كياناً مستقلا استقلالاً محلياً . وأزوجوا بطرس من مريم حفيدة رومانوس الاول . فأصبح بطرس « ابن الفسيلفس العزيز » وحليفه . ودامت هذه الصداقة طوال عهد بطرس (٩٢٧ – ٩٦٨) . وعظم شأن الروم في بلغارية واكتسحوا الموقف اكتساحاً[١] .

رومانوس الاول والعرب : (٩٢٠ – ٩٤٤) وكان الخلفاء العباسيون لا يزالون مغلوبين على امرهم لقلة طاعة الجند ، ولشدة نفوذ الخدم ، ولدسائس امهات الامراء ووشاياتهن ومؤامراتهن ، ولشغب الجند على القادة وتنازع هؤلاء السيادة . وكان ان شعر الولاة بضعف الخلفاء ، فانصرفوا الى جمع المال وحبسوا رزق العمال عن اصحابه . فعمد الخلفاء الى اغتيال الولاة ، فكثر العصيان ، واضطربت الاحوال ، وفقد الامن ، وقامت الثورات . ولم يتمكن الخلفاء من استغلال ظروف الروم في البلقان في اثناء حروبهم ضد سمعان والبلغاريين .

وقبيل انتهاء الحرب البلغارية أحرز الروم نصراً كبيراً في البحر .

١ *Runciman, S., Romanus Lecapenus, 100 .*

917

٨

فانهم حطموا في السنة ٩٢٤ عمارة لاوون الطرابلسي في مياه لمنوس ونجا لاوون نفسه باعجوبة[١]. وما ان وضعت الحرب البلغارية اوزارها في السنة ٩٢٧ حتى بادر الروم الى الهجوم، وهب غرغون القائد Jean Courcouas الى القتال في آسية الصغرى فأحرز انتصارات متتالية (٩٢٢ – ٩٤٤)، وتمكن من جعل دجلة والفرات الحد الفاصل بين الدولتين بدلاً من الهاليس. ونفخ في الجنود روحاً جديدة، فاستحق بذلك كله اعجاب المعاصرين. وعاونه في هذه الحروب عدد من كبار الضباط قُدّر لهم فيما بعد ان يتابعوا هذا العمل الحربي وان ينتصروا هم ايضاً كما انتصر غرغون نفسه. وأشهر هؤلاء ثيوفيلوس ابن غرغون، وبرداس فوقاس وابناه نيقيفوروس ولاوون. ففي السنة ٩٢٨ احتل الروم ارضروم وأخرجوا العرب من ارمينية. وفي السنة ٩٣٤ استولوا على ملاطية، ثم ناوأهم سيف الدولة صاحب الموصل وتمكن من ايقاف تقدمهم. ولكنهم عادوا الى الهجوم بين السنة ٩٤١ والسنة ٩٤٢ فاحتلوا دارا ونصيبين وميافارقين وقاربوا حلب. وفي السنة ٩٤٤ توّج غرغون انتصاراته بان نقل بموكب فخم «منديل السيد» – الذي كان قد احتفظ به أبجر الملك – من الرها الى القسطنطينية[٢]. وأعجب رومانوس بهذا كله فاعترف بفضل غرغون. وأحب ان يربط اسرة هذا القائد الفاتح باسرته المالكة فقاومه ابناؤه وابعدوا غرغون وأذلّوه.

قسطنطين السابع: (٩٤٥ – ٩٥٩) وكان عظماء العاصمة لا يزالون يدينون بالولاء للاسرة المقدونية. وكان رومانوس لا يزال باخساً قسطنطين حقه في الملك. وكان قد زاد تطاوله فنصّب ابنه ثيوفيلكتوس بطريركاً

١ *Theophanes Continuatus, 405.*

٢ *Theophanes, op. cit., 427.*

على الرغم من حداثة سنه . فكرهه الزعماء واستغلوا موقف ابنائه منه في حادث غرغون، فحركوا ابن رومانوس الاصغر اسطفانوس . فقام على والده وطرده من القصر ونفاه الى جزيرة بروتي من جزائر الامراء واكرهه على قبول النذر وحبسه في دير هناك في التاسع عشر من كانون الاول سنة ٩٤٤ وتسلم ازمة الحكم بالاشتراك مع اخيه وصهره . واذ لم يتفقوا اتحد الاخوان ضد الصهر . وعلمت اختهما هيلانة بما يجري فاخبرت زوجها قسطنطين بذلك فألقى القبض على الاخوين ونفاهما في السابع والعشرين من كانون الثاني سنة ٩٤٥ واكرهما على قبول النذر[١].

وكان قسطنطين السابع قد قضى خمساً وعشرين سنة في عزلة عن الحكم وعن الناس، منهمكاً في المطالعة والدرس، محباً للعلم والعلماء، مشتغلاً في التصوير والنحت، باحثاً منقباً عن تاريخ الروم وآثارهم . فلما رقي العرش في الثامنة والثلاثين من عمره آثر متابعة دروسه وابحاثه على الحكم والادارة . فتسلمت زوجته ازمة الحكم بيدها يعاونها في ذلك باسيليوس ابن رومانوس غير الشرعي . وعلى الرغم من عدم تعمق قسطنطين في ابحاثه نظراً لكثرتها وتنوعها فانه خدم العلم في انه شوّق الناس اليه في عصره . فكان شغفه بالعلم من ابرز اسباب اليقظة العلمية في القرن العاشر وفي انه خلّف لنا مراجع لتفهم عصره[٢]. فرسالته في الثيمات هي سجل كامل للولايات وحدودها وسكانها ومواردها . وكتابه في ادارة الامبراطورية يشتمل على اشياء واشياء عن الدول والشعوب المجاورة . وأطول مؤلفاته وأغزرها مادة كتابه في التشريفات، وقد وصف فيه سلطة الفسيلفس الرسمية وواجباتها وحقوقها، كما أبان كيفية تنظيم الاحتفالات الرسمية

١ *Liudprand, Antapodosis, V, 21; Bréhier, L., Byzance, 176-178.*

٢ *Liudprand, Antapodosis, III, 37; Theophanes Cont., 465-471; De Administrando Imperio, 9, 172-173; Rambaud, A., Emp. Grec, 77-78.*

وادارة القصر وغير ذلك . واليك عناوين هذه المؤلفات كما جاءت باللاتينية :

De Thematibus, De Ceremoniis aulae Bizantinae, De Administrado Imperio.

قسطنطين وسيف الدولة : ولم يقع اي تمزيق جديد في جسم الدولة العباسية في ايام المعتضد (٨٩٢ – ٩٠٢) ، والمكتفي (٩٠٢ – ٩٠٨) . وفي عهد المقتدر (٩٠٨ – ٩٣٢) عادت الدولة الى ما كانت عليه من التفكك. ثم اضاع القاهر (٩٣٢ – ٩٣٤) والراضي (٩٣٤ – ٩٤٠) والمتقي (٩٤٠ – ٩٤٤) والمستكفي (٩٤٤ – ٩٤٦) آخر ولاياتهم فاضمحلت بذلك سلطة الخليفة الزمنية بكاملها . وكان بين الطـامعين في الملك والسلطان في اثناء هذا الانحلال بعض القبائل البدوية العربية . ولعل أشهر هؤلاء بنو تغلب . فان كبيرهم الامير عبدالله ابن حمدان تمكن في السنة ٩٠٥ في عهد المكتفي من انتزاع حاكمية الموصل من يد الخليفة . وتمكن ولداه حسن وعلي في السنة ٩٤٢ من انتزاع اللقبين ناصر الدولة للاول وسيف الدولة للثاني . وتغلغل سيف الدولة في البلاد حتى شمال سورية الشرقي في السنة ٩٣٧ . وفي السنة ٩٤٤ دخل حلب واسس فيها دولة دامت حتى السنة ١٠٠٣ . وبقي ناصر الدولة في الموصل يسكن الفتن في بغداد بينما هب سيف الدولة يمتشق حسام الاسلام في وجه الروم . وما فتىء كذلك حتى ادركته المنية في السنة ٩٦٧ .

ولما استقر سيف الدولة في حلب وجعلها عاصمة لملكه وقاعـدة لاعماله الحربية تحول القتال الرئيسي بين الروم والعرب من جبهـة ارمينية الى خط قتال جديد امتد من قيليقية حتى ديار بكر . وكانت الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة مجهولة على الفرات فوق سميساط ، فتمر بين حصن منصور وزبطرة وفوق الحدث ومرعش متبعة سلسلتي جبال طوروس حتى ابواب قيليقية واللامس او الليموس . وتبدأ من النقطة نفسها على الفرات فتتجه شمالاً الى شرقي سميساط فأرمينية .

وكانت المبادرة في الحروب بين الروم والعرب قد افلتت من يد العرب نظراً لما كان قد حلّ بالخلافة من انحلال ومصائب. وكان الدافع لمحاربة الروم قد أصبح واحداً من اثنين او الاثنين معاً: إما القيام بواجب الجهاد، او احراز الغنائم. ولم تكن حروب القرن العاشر حروب فتح كتلك التي قام بها الامويون والعباسيون المؤسسون. وأصبح موقف العرب دفاعياً اكثر بكثير منه هجومياً. ونيط الدفاع بحكام الحدود. وانتقلت المبادرة في هذه الحروب الى الروم، وأصبحت هجومية اكثر منها دفاعية. وقد رأينا الاسرة المقدونية تبدأ باعمال تمهيدية فتضرب البولسيين حلفاءَ العرب في تفريقية ضربة قاضية، ثم تعترف بأشوت البغرتوني ملك الارمن وتحالفه. ثم تبدأ هجومها في عهد رومانوس ليكابينوس كما سبق ان ذكرنا.

ويرى رجال الاختصاص ان انتصار الروم على العرب في القرن العاشر لم يكن نتيجة ضعف العباسيين فحسب، بل انه تأتى عن تجدد عند الروم وتيقظ وتنشط، وان هؤلاء وان اختلفوا في العنصر فقد اتحدوا في ايمان واحد وفي المفاخرة بامجاد ماضية، وشعروا بوجوب اعادة النظر في انظمتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وبوجوب اتقان الجيش وتكميله ليأتي بالفائدة المطلوبة. فالروم في القرن العاشر في نظر هؤلاء كانوا في يقظة ونشاط لا في غفلةٍ وانقسام[١].

وأثقل الحمدانيون كاهل العشائر الضاربة في الجزيرة التابعة لحكمهم بالضرائب، وبين هؤلاء بنو حبيب. وكان بنو حبيب تغالبة ايضاً، فشق عليهم الامر، فانقبضوا ثم خرجوا للقتال. فجرد عليهم ناصر الدولة في السنة ٩٣٥ فقهرهم. فعوّلوا على الرحيل. فقاموا عشرة آلاف فارس بنسائهم واولادهم

١ *Gelzer, H., Genesis der Byzantinischen Themenverfassung, 8; Canard, M., Dynastie des Hamdanides, I, 718-719.*

وعبيدهم وقطعوا الحدود والتجأوا الى الروم وتنصروا . وحذا حذوهم غيرهم من عشائر الجزيرة . فتوترت العلاقات بين الروم وبين الحمدانيين[١]. وبدأ سيف الدولة غزواته في ارض الروم . فكان يقوم بها كلما شعر بهدوءٍ واستقرار داخلي . واشتهر في بغداد بالغازي .

وفي السنة ٩٣٨ سجل سيف الدولة انتصاره الاول امام حصن زياد فدخله عنوة . ثم خرج منه يقاتل جيشاً كبيراً أنفذه الروم عليه . وأدركه الروم بين حصن زياد وحصن سلام . واقتتل الطرفان فدارت الدائرة فيما يظهر على الروم وتغنى ابو فراس بالنصر . وفي السنة ٩٣٩ أنفذ الروم حملة عسكرية الى القوقاس لتأديب الكرج (الايبريين) الذين كانو قد امتنعوا مراراً عن غزو الاراضي العربية على الرغم من كونهم ارثوذكسيين يدينون بدين الفسيلفس . فاستنجد الكرج الحمدانيين ، فهبّ سيف الدولة لمعونتهم وأجلى الروم عن بلادهم . وفي الربيع التالي سنة ٩٤٠ دخل الى ثيمة خلدية واستولى على عدد من الحصون والمدن فيها . ثم قام الى كولونية وحاصرها[٢]. فأصبح زعيم الجهاد الاكبر في الاقطار الاسلامية وعدو النصرانية عند الروم .

وشغلت سيف الدولة ما بين السنة ٩٤٠ والسنة ٩٤٤ مشاغل في عاصمة الخلافة كان محورها السلطة العليا فأصبح امير طرسوس عدو الروم الاوحد . فانقضوا عليه في خريف السنة ٩٤٠ ووصلوا الى منطقة كفرتوثة . ثم شغلوا في اوروبة فتراجعوا . وعادوا في مطلع السنة ٩٤٢ فانطلقوا في سهول قيليقية حتى حدود سورية فأسروا خمسة عشر الف اسير . وفي خريف هذه السنة نفسها انقض غرغون على مقاطعة ديار بكر

Canarc

١ اطلب ابن حوقل ، فصله عن الجزيرة .

٢ *Canard, M., Dynastie des Hamdanides, I, 741-747 .*

فاستولى على ميافارقين وغيرها كما سبق واشرنا . وكان ما كان من أمر المنديل .

وفي السنة ٩٤٤ دخل سيف الدولة حلب وحمص وانتزعهما من يد الاخشيديين . فانطلق الروم في منطقة مرعش ومنطقة بغراس حتى ابواب انطاكية . فردّ سيف الدولة باغارة في منطقة عرابسوس . ودخل سيف الدولة في ربيع السنة ٩٤٥ في نزاع مع الاخشيديين فلم يستغل قسطنطين السابع هذا الظرف . وجاءت السنة ٩٤٦ فتبادل الخصمان الأسرى عند لامس سلفكية . وفي ربيع السنة ٩٤٨ خرج الروم من ملاطية وسميساط واتجهوا نحو الجزيرة ليستولوا على بمر الحدث – مرعش . فصمد سيف الدولة في وجههم في معركة جلباط الوارد ذكرها في احدى قصائد ابي فراس . وفي الربيع التالي ٩٤٩ ظهر لاوون ابن فوقاس امام الحدث محاصراً ، فدخلها عنوة ودك حصونها[1] . واستولى الروم في هذه السنة عينها على مرعش وقاتلوا عند اسوار طرسوس . وحملوا على جزيرة اقريطش ولكن دون جدوى[2] . وفي ربيع السنة ٩٥٠ قام سيف الدولة الى الجزيرة يتفقد شؤونها وأناب عنه في الحكم في حلب ابن عمه محمد ابن ناصر الدولة . فانقض لاوون ابن فوقاس على شمالي سورية حتى مداخل انطاكية وحاصر بوقة في سهل العمق . فهبّ محمد لقتاله ولكنه فشل فشلاً ذريعاً . وأرسل قسطنطين السابع وفداً يفاوض في التهادن . فمثل الوفد امام سيف الدولة في آمد . وكاد الاتفاق يتم ولكن مروان القرمطي قتل احد اعضاء الوفد . واسرع سيف الدولة يعتذر ويظهر استعداده للتعويض . ولكن قسطنطين

١ *Cedrenus, G., Historiarum Compendiam, II, 336.*

٢ *Vasiliev, A. A., Byz. et les Arabes, II, 285 ff.*

أصر على تسليم القاتل . فأبى سيف الدولة وانقطعت المفاوضات[1] .

وعاد سيف الدولة الى حلب يستعد للقتال ، فجمع ثلاثين الف مقاتل واصطحب ثلاثة من الشعراء : المتنبي وابا فراس وابا زهير المهلهل . وقام في اواخر آب او اوائل ايلول من السنة ٩٥٠ الى مرعش فانضم اليه اربعة آلاف مقاتل من طرسوس . ثم نهض بجموعه عن طريق ملاطية ــ قيصرية فاحتل صارخة وقتل وسبى واحرق . واراد العودة الى حلب نظراً لحلول فصل الشتاء فعبر الهاليس واتجه جنوباً . ثم علم ان لاوون ابن فوقاس قد حشد جيشه في منطقة خَرشَنة Charsianon . فأوقف السير وعاد بنخبة من جنوده فعبر الهاليس وأنزل بالروم خسارة كبيرة ، ثم اتجه نحو الجنوب . ولمّ الروم شعثهم ونظموا صفوفهم وأسرعوا الى جبال طوروس يكمنون لسيف الدولة ، واستقروا في درب الجوزات بين الالبستان والحدث . ومرت طلائع سيف الدولة ولم يحرّك الروم ساكناً . ثم أقبل سيف الدولة فوجد الممر مسدوداً مقطوعاً ، فأمطره الروم حجارةً وصخوراً وسهاماً . فسقط عدد كبير من رجاله وأسر غيرهم . وتمكن سيف الدولة من اجتياز هذا الممر والوصول الى اعلى الجبل . ولحق به الروم فأرهقوه وحملوه على ما لا يطيق . وكان عليه ان يمر بعقبة الشير فسبقه الروم اليها وقطعوها عليه . فاضطر ان يسلك طريقاً وعرة للغاية مستعيناً على ذلك بالادلاء . فأدركه الروم وأرهقوه ، وتفرّق عنه رجاله ، ولم يبقَ معه من يستطيع القتال المنظم . فقتل الاسرى وأحرق الامتعة وفر هارباً نحو حلب . فعُرفت هذه الحرب « بغزوة المصيبة[2] » . وعاد سيف الدولة لأخذ الثأر في السنة ٩٥١ فدخل

١ كمال الدين ابن العميد ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، في مجموعة كنار ، ص ٣٩٧ .

٢ *Canard, M., Dynastie des Hamd I, 762-770 ; Vasiliev, A. A., Byz et les Arabes, II, 280-290 .*

قبدوقية ليخرج منها مدحوراً . ثم قام قادة الروم بغزوات متتالية بين السنة ٩٥٢ والسنة ٩٥٨ في قيليقية والجزيرة انتصروا فيها واتخذلوا[١].

وفي السنة ٩٥٨ بدت علامات الضعف في مقاومة سيف الدولة . وتسلم قيادة الروم يوحنا شمشيق Jean Tzimiscees فاحرز انتصارات متتالية في الجزيرة العليا واحتل اكثر مدنها . ثم حاصر سميساط على الفرات وأنزل بسيف الدولة سلسلة من الهزائم . وبعد السنة ٩٦٠ أضاف الروم الى ملكهم كل ما وقع شرقي الفرات جاعلين من هذه المناطق ثيمة الجزيرة[٢].

احتلال اقريطش : (٩٦٠ – ٩٦١) وكان لقسطنطين السابع ولد اسمه رومانوس تزوج وهو ابن سبع عشرة سنة بابنة اسمها ثيوفانو . وكانت ثيوفانو من أصل وضيع ولكنها ذات جمال متناهٍ . وكانت تكره العيشة بين حماتها وبنات حميها ، فأوعزت الى زوجها رومانوس فدسّ السم لوالدة قسطنطين ، وشرب منه جرعة ، فلم يعش الا سنة واحدة ، ومات في السنة ٩٥٩ . وكان رومانوس الثاني منصباً على الشهوات والملاهي ، وكانت ثيوفانو تحب السلطة . فاتكل زوجها عليها وعلى رجل اسمه يوسف ابرنكاس Joseph Bringas .

ولمس ابرنكاس وقادة الجيش ضعف العرب ، فرأوا الظرف ملائماً لارجاع اقريطش الى حوزة الروم . فأعد نيقيفوروس فوقاس اسطولاً عظيماً مولفاً من الفي بارجة والف وثلاث مئة نقالة . وقام بهذه القوة الكبيرة الى اقريطش وحاصر مدينة الخندق . فهرع صاحبها عبد العزيز القطربي يستنجد المسلمين شرقاً وغرباً ولكن دون جدوى . فان القليل الذي جاءه من طرسوس ومن افريقية حطمه الروم قبل وصوله اليه .

١ *Canard, M., op. cit., I, 770-783*

٢ *Philipson, A.E., Byzantinische Reich als Geographische Ercheinung, 173.*

واقتحم نيقيفوروس الخندق ودخلها عنوة في السابع من آذار سنة ٩٦١ ثم استولى على الجزيرة بامرها[1]. ونقل اليها جاليات يونانية وارمنية ، واستدعى نيقن مطانويتا ، اي صاحب التوبة ، القديس المبشر ، ليكرز فيها بين سكانها المسلمين[2]. وبسقوط اقريطش بيد الروم بَعُدَ شبح القرصنة والاغارات المفاجئة وتهيأ للروم مركز تجاري هام وعادت سيادة البحر اليهم ، فتمكن نيقيفوروس من القول بعد قليل : « ان القوة في البحر هي لي وحدي[3] » .

مغارة الكحل : (٩٦٠) وظنّ سيف الدولة ان حملة الروم على اقريطش انقصت مقدرتهم على الحرب في بر الاناضول ، فجهّز ثلاثين الفاً وقام بهم الى خرشنة داخل حدود الروم . وأسرع لاوون فوقاس اخو نيقيفوروس الى تلال طوروس يسد عليه طريق العودة . فكمن له في ممر جبلي اسماه العرب مغارة الكحل واطلق عليه الروم اسم اندراسوس Andrasus فهزمه فيه هزيمة شنعاء في الثامن من تشرين الثاني سنة ٩٦٠ . وعظمت غنائم لاوون فانه أسر في هذه المعركة عدداً كبيراً من العرب ، واطلق سراح جميع من كان قد وقع في الاسر من الروم[4].

عين زربا وحلب : (٩٦٢) ورأى نيقيفوروس ان يستغل الكارثة التي حلت بسيف الدولة فيفتتح قيليقية اكبر المعاقل البحرية الاسلامية بعد اقريطش واقرب الطرق الى سورية . فجال جولة موفقة فيها في مطلع السنة ٩٦٢ واستولى في اثنين وعشرين يوماً على خمسين بلدة او

١ *Schlumberger, G., Nicéphore Phocas, 37-114.*

٢ البطريرك مكسيموس ، اخبار القديسين ، ج ١ ، ص ٤٣٠ – ٤٣٤ .

٣ *Léon Diacre, 28-29.*

٤ *Canard, M., op. cit., I, 800-803.*

حصناً . وعاد في اول الصوم الكبير الى قبدوقية . وفي خريف هذه السنة نفسها أعاد الكرة فافتتح عين زربا مفتاح سورية . ولم يقوَ سيف الدولة على الصمود في وجهه في ممرات الامانوس ، فتدفقت جيوش نيقيفوروس الى سهول سورية حتى منبج على الفرات . ثم حاصر نيقيفوروس حلب احد عشر يوماً (٢٠ – ٣١ كانون الاول سنة ٩٦٢) فاقتحم سورها واحتل البلدة ولكنه لم يقوَ على القلعة . وعاد الى القسطنطينية بغنائم عظيمة مالاً ورجالاً[١]. وعلم بوفاة رومانوس الثاني وهو في طريقه الى العاصمة .

١ Canard, M., op. cit., I, 805-817 ; Bréhier, L., Byz., Vie et Mort, 190-191.

الفصل الرابع والعشرون

هجوم عظيم ونصر مبين

(٩٦٣ - ١٠٢٥)

الجيش في القرن العاشر : وعني الروم في هذه الحقبة عناية فائقة بالجيش . وقال احد كبرائهم : « ان الجيش للدولة كالرأس للجسم ان هو ضعف تعرضت الدولة للخطر[١] » .

وكان هذا الجيش يتألف من عناصر وطنية وعناصر اجنبية . وكانت العناصر الوطنية خيّالة تُقطع اراضٍ لها ولذريتها لا تصادر ولا تتحول ملكيتها . وكانت العناصر الاجنبية مرتزقة يستهويها سخاء الروم ، فتؤم القسطنطينية من اوروبة وآسية . وكان بينها الخزري والبتشناغي والنروجي والصقلبي والدانياركي والنورماندي والسكوني والكرجي والتركي والعربي . ولم يكن هنالك ما يمنع التحاق هؤلاء بأية فرقة من فرق الجيش . ففرقة الحرس الهترية Heteria كانت تتألف من الروس والنروجيين والدانياركيين والخزر . ولم يكن في صفوفها اي عنصر وطني . وكثر عدد الارمن في الجيش بصورة خاصة وتقلدوا اعلى الرتب .

١ *Lingenthal, Z., Jus Graeco - Romanum, Novelle Canstantine VII, III, 261 .*

وكان هذا الجيش يقسم الى قسمين رئيسين : التغماتا Tagmata في العاصمة وضواحيها ، والثماتا Themata في الولايات . وشمل القسم الاول فرق الخيالة الاربع : السوكولس Scholes والاكسكوبيتور Excubitor والاريثموس Arithmos والهيكاناتس Hicanates وفرقة المشاة النوماري Numeri . وكانت كل فرقة من فرق الحرس الخمس تتألف من اربعة آلاف مقاتل وتخضع لقيادة ضابط كبير يحمل رتبة دوميستيكوس Domesticus . وكان قائد فرقة السوكولس قائد الجيش الاكبر . وكان القسم الثاني جيش الولايات الثماتا يتألف من اربعة آلاف الى عشرة آلاف مقاتل ويخضع لقيادة ضابط من رتبة إستراتيجوس Strategos . وكان معظم هؤلاء من الخيالة ايضاً بنوعيها الثقيل Cataphractes والخفيف Trapazistes . وكان هنالك ايضاً جيش الحدود Acritai وكانت مهمة هؤلاء تقضي بالدفاع عن اللامس Limes وبالمحافظة على الابراج والقلاع وسائر انواع التحصينات التي كانت تنتشر على طول خط الحدود . وكان عليهم ايضاً ان يراقبوا الاعداء ويسدوا الممرات ويردوا الهجوم بهجوم مماثل .

ولم يكن عدد هذا الجيش كله كبيراً . فانه لم يزد على السبعين الفاً في آسية ومثل ذلك في اوروبة . ولكنه امتاز بانتظامه وشجاعته وحبه للوطن واندفاعه في سبيله . وتقوّى بحذق في صنع الاسلحة ، ومهارة في تخطيط القلاع وبنائها . واستعمل النار الاغريقية في الحروب ، كما استعان بالمجانيق الكبيرة في اعمال الحصار وبمجانيق اصغر منها في قتال الميدان . وكانت هذه تنقل بمركبات خاصة تحمل المنجنيق ورجاله فتنقل القصف حيث تدعو الحاجة .

ويستدل من مضمون رسالة في علم التكتيك ، صنّفت في عهد

نيقيفوروس فوقاس[١]، ان الحروب التي كان يخوضها هذا الجيش كانت حرب كمين واستطلاع ومفاجآت والتحامات، وان ابراج المراقبة كانت تنبىء بالخطر باشارات نارية، فيهب المشاة الى الممرات يكمنون فيها، وتنطلق دوريات الفرسان الخفاف حاملة مؤونة يوم واحد من الزاد مخفية سلاحها تستطلع حركات العدو. ويهرع السكان من القرى والدساكر الى القلاع والابراج، بينما يتجمع الجيش في نقاط معينة استعداداً للعمل. ويستدل من هذه الرسالة ايضاً وغيرها من نوعها ان ترتيبات القيادة كانت كاملة تشمل خطط التجسس والاستطلاع، ونقل العتاد والمؤن، وتجمّع الوحدات، وكيفية سيرها. ويدل ما تبقى من الروايات المعاصرة ان تدريب هذا الجيش كان متواصلاً غير منقطع، وان التمرين في القتال كان يشمل جميع ضروب التعب وانواع الضنك والقلة، وان الاباطرة كانوا يعيرون الجنود نصيباً وافراً من عنايتهم الشخصية فيُفيضون عليهم النعم ويغمرونهم بالاحسان ويشملونهم بشتى مظاهر التقدير والاكرام. وكانوا لا ينفكون عن الاشارة الى الماضي المجيد الحافل بالانتصارات العسكرية والى صيانة الفادي الحبيب الذي لا يغفل ولا ينام. وكان من حسن حظ هذا الجيش ان تولى قيادته عدد متسلسل من كبار الرجال امثال غرغون وفوقاس وسكيليروس وشمشيق.

وتلخص نقائص هذا الجيش بان نظام التعبئة فيه كان يربط الجنود بكبار رجال الاقطاع ربطاً وثيقاً يشجع هؤلاء على الانتقاض على السلطة وان المرتزقة كانوا لا يهتمون الا للغنائم[٢].

نيقيفوروس فوقاس: (٩٦٣ – ٩٦٩) وتوفي رومانوس الثاني في

١ *Vari, Incerti Secriptoris de Re Militari, Leipzig, 1901.*

٢ *Bréhier, L., Inst. de l'Emp. Byz., 366-382.*

الرابعة والعشرين من عمره ، إما مسموماً من زوجته ثيوفانو ، او مسقوماً من فرط انصبابه على الملذات . فتسلمت زوجته زمام الحكم بالوصاية على ولديها القاصرين باسيليوس وقسطنطين . وكانت تكره ابرينكاس الوزير كرهاً شديداً وتحب نيقيفوروس القائد . فاستدعت نيقيفوروس من حلب ، وسمح هذا لجنوده ان ينادوا به فسيلفساً في قيصرية . ثم تقدم نحو العاصمة فقامت ثورة ضد ابرينكاس . ودخل القائد الفسيلفس الى العاصمة في الثالث من آب سنة ٩٦٣ وتقبل التاج من يد البطريرك مشتركاً في الحكم مع كل من باسيليوس وقسطنطين القاصرين . وبعد شهر واحد تزوج من ثيوفانو الوصية الارملة . ولما جاء الى الكنيسة وطلب ان يدخل من الباب الملوكي اعترضه البطريرك بوليفكتوس بسبب زواجه من الثانية في حياة الاولى خلافاً للناموس[١].

وكان نيقيفوروس جندياً مدهشاً وتكتيكياً قديراً ، وقائداً محنكاً ، فاحبه الجنود وتعلقوا به . وكان زاهداً قنوعاً ، قاسياً متصلباً ، ولكنه كان في الوقت نفسه محباً عطوفاً . وأصبح رجل الساعة بقوة ارادته وتمسكه بالسلطة وحبه للدولة واخلاصه لها .

فتوحات الروم في سوريا : (٩٦٣ – ٩٦٩) وأوقفت ثورة القسطنطينية الاعمال الحربية في قيليقية وسورية . فعاد سيف الدولة الى حلب واستعاد عين زربا ومصيصة وغيرهما في قيليقية . وأصبح يوحنا ابن شمشيق قائد قوات الروم في الشرق . فحاصر مصيصة في صيف السنة ٩٦٣ ولم يستولِ عليها . وقام الى اذنه فتحداه حاكم طرسوس فهزمه ابن شمشيق هزيمة كبيرة ولكنه اضطر ان يغادر قيليقية لما حلّ بها من قحط وجوع واوبئة .

١ *Schlumberger, G., op. cit., 252-309.*

وفي ربيع السنة ٩٦٤ تولى الفسيلفس بنفسه قيادة جيوشه . فانشأ قاعدة هامة للتموين في قيصرية قبدوقية وزحف برجاله على قيليقية . فاقتحم عين زربا وادنه وعشرين حصناً عربياً واستولى على امسوس عند مدخل سورية ، وعاد الى قبدوقية لتمضية فصل الشتاء . وفي ربيع السنة ٩٦٥ أنفذ اخاه لاوون فوقاس الى حصار طرسوس وقام هو الى مصيصة فاقتحم اسوارها ودخلها عنوة ، ثم عاد الى طرسوس فسلّمت تسليماً . وهكذا فان قيليقية باسرها عادت الى الروم بعد ان كانت زهاء ثلاثة قرون متتالية قاعدة برية بحرية تنقضّ منها جيوش العرب واساطيلهم على الامبراطورية . وجعل نيقيفوروس منها ثيمة جديدة وجعل طرسوس عاصمتها . وفي شتاء هذه السنة عينها جهّز الفسيلفس حملة بحرية بقيادة نيقيطاس وأنفذها الى قبرص فاحتلت الجزيرة وأصبحت قبرص ايضاً ثيمة جديدة .

وثارت حلب وانطاكية في وجه سيف الدولة فقاسى الامرين في اخضاعها . ثم طلب الى نيقيفوروس تبادل الاسرى فاجابه الفسيلفس الى ذلك . وتم التبادل على الفرات في الثالث والعشرين من حزيران سنة ٩٦٦ ، ففاق عدد اسرى الروم عدد اسرى الحمدانيين بثلاثة آلاف . فافتدى البيزنطيون هؤلاء بمئتي الف دينار بيزنطي . وعاد ابو فراس الى وطنه بعد ان قضى اربع سنوات اسيراً في القسطنطينية[١].

وفي شتاء السنة ٩٦٦ أغار نيقيفوروس على الجزيرة فدخل دارا ونصيبين ووصل الى الحد الذي كان يفصل دولة الروم عن دولة الفرس في اوائل القرن السابع واستولى على الآجرّة المقدسة **Karmidion** التي كانت تحمل صورة السيد العجائبية . ثم انقضّ على انطاكية في حملة ارهابية . وعاد

١ يحيى ابن سعيد الانطاكي ، تاريخه ، ص ١٠٥ - ١٠٦ . ابو فراس ، ديوانه ، ص ٣٢٣ .

مستعجلاً الى القسطنطينية لينظر في قضية بلغارية . وفي خريف السنة ٩٦٨ عاد الى الفتح فحاصر ابن سيف الدولة في حلب وأزال النجدة التي جاءَ بها قرغويه من مصر . وبدلاً من ان يحاصر حلب قام بجيشه الى حمص فدخلها ثم انحدر منها الى عرقة فطرطوس فجبلة . وأبقى في جميع هذه المدن حاميات من الروم . ثم ظهر أمام انطاكية يشدد الحصار عليها بامرة ميخائيل بورجس البطريق ويرمم قلعة بغراس في طريق انطاكية الاسكندرونه . وأقام ابن اخيه بطرس فوقاس قائداً عاماً وأوصاه بوجوب انتظاره وعدم اقتحام انطاكية قبل عودته . وقام الى القسطنطينية فدخلها بموكب نصر عظيم في مطلع السنة ٩٦٩ . وفي اثناء غيابه اتصل نصارى انطاكية بقيادة الروم مؤكدين وقوع الفوضى في صفوف المسلمين . فاندفع بورجس البطريق وقام ببعض رجاله فتسلق الاسوار ودخل بعض الابراج وكاد يموت موتاً لولا وصول لاوون واسعافه . وسقطت انطاكية بيد الروم في الثامن والعشرين من تشرين الاول بعد ان بقيت اسلامية عربية ثلاثة قرون ونيفاً . واغتاظ نيقيفوروس وأقال بورجس من منصبه . واشتد حماس الجند وألحوا بوجوب اقتحام حلب ، وفعلوا . فسقطت المدينة في يدهم في كانون الاول من السنة ٩٦٩ ، ووقع صاحبها قرغويه معاهدة مع الروم اعترف فيها بسيادتهم وحمايتهم . واعترف الروم بولايته على حلب وولاية بكجور بعده على ان يعينوا اميراً عليها من يرونه لائقاً من ابناء حلب بعدهما . ومن شروط هذه المعاهدة ايضاً ان يقيم في حلب ممثل رسمي للفسيلفس ، وان يدفع الحلبيون ديناراً عن كل ذكر في كل سنة ، وان يمتنعوا عن جباية الجزية من النصارى ، وان يؤمنوا طرق التجارة ، وان تشرف لجنة من الروم والحلبيين على جباية الكمارك[١] .

١ كمال الدين ابن العميد ، الزبدة ، مجموعة كنار ، ص ٤١٩ – ٣٢٤ .
Schlumberger, G., Nicéphore, op. cit., 730-733; Canard, M., Dyn. Hamd., 831-838.

نيقيفوروس والغرب: وكان اوثون الاول Otton قد أعاد الامبراطورية الغربية في السنة ٩٦٢ فادعى بجميع ايطالية . وكان الامراء اللومبارديون اجمعين قد اعترفوا بسلطته . وكان هو قد زار بنيفنتوم Beneventum وكابوة Capua في السنة ٩٦٧ . وجاءت السنة ٩٦٨ فزحف اوثون على ابولية وحاصر باري قاعدة الروم فارتد عنها حسيراً . فأرسل لويدبراندو اسقف كريمونة يفاوض في القسطنطينية في زواج ابن اوثون وولي عهده (اوثون الثاني) من الاميرة حنة ابنة ثيوفانو من رومانوس. فأنكر نيقيفوروس اجابة طلب اوثون وأظهر كدره من تسلطه على رومة التي كان يعتبرها العاصمة الاولى لمملكته . ثم أرسل البابا يوحنا الثالث عشر (٩٦٥ – ٩٧٢) يتوسط في عقد هذا الزواج ، وسمّى الفسيلفس في تحاريره امبراطور « اليونان » فأيّد بعمله هذا الفكرة التي قال بها سلفه البابا لاوون الثالث وقد كانت ترمي الى تجزئة حقوق الفسيلفس الشرقي في الحكم ، وذلك باقامة امبراطور غربي ينافس الفسيلفس وريث رومة الشرعي . فاغتاظ نيقيفوروس ورجال دولته من البابا . وأصبح هذا خصماً سياسياً لا بد من مقاومته . وبذرت بذور الشقاق في اوساط الكنيسة الام الكاثوليكية الارثوذكسية ممهدة السبيل للانشقاق الكبير . ودخل الفسيلفس في نزاع مع امبراطور الغرب وكنيسة رومة . وغادر الوفد البابوي المفاوض عاصمة الروم . وأغار اوثون الاول على ثبات الروم في ايطالية ولم يفلح . وانكسر الامير بالدولفوس Paldolphus ووقع اسيراً في يد الروم[١].

الروم وبلغارية وروسية: وكانت معاهدة السنة ٩٢٧ بين الروم والبلغار قد قضت بان يدفع الروم للبلغار مالاً سنوياً محدداً . وكانت

١ . *Liudprand, Legatio, 350 ff ; Diehl et Marçais, Monde Oriental. 469-470.*

بلغارية في تقهقر داخلي مستمر . وكان بعض رجال الاقطاع فيها قد عادوا الى سابق نفوذهم فاصبحوا مستقلين استقلالاً فعلياً . فرأى نيقيفوروس ان يستغل هذا الظرف لمصلحة دولته وشعبه . فاتخذ من تجرؤ بعض العصابات المجرية وعبورها الدانوب ووصولها الى اراضي الروم عبر بلغارية عذراً للتوقف عن دفع المال السنوي المقرر . وهكذا فاننا نراه يصفع في السنة ٩٦٧ مندوبي بلغارية الذين أموا عاصمته يطالبون بالمال السنوي ويطردهم طرداً .

ثم رأى نيقيفوروس قبل ان يبدأ الحرب ان يستعين بالروس ليضع البلغاريين بين نارين ، فأوفد الى كييف عاصمة الروس من يسعى للتحالف مع سواتوسلاف Sviatoslav اميرهم الكبير . فلبى الامير الطلب وأنزل في السنة ٩٦٧ جيشاً روسياً كبيراً في الساحل البلغاري . فرحب بعض امراء الاقطاع من البلغاريين بالروس وتمكن الامير الروسي من اكتساح الموقف . ثم اضطر ان يعود الى كييف لاخماد ثورة أشعلها البتشناغ . وعاد في السنة ٩٦٩ الى بلغارية لضمها الى ملكه . فأدرك نيقيفوروس الخطأ الذي ارتكب ، فصالح البلغاريين . ولكن وفاة بطرس ملكهم وظهور سيمان يناظر ولي العهد أشعل الفوضى في بلغارية[١].

يوحنا جيمسكي : (٩٦٩ – ٩٧٦) ولم ترضَ ثيوفانو الفسيلسة الام عن حياتها الزوجية مع نيقيفوروس نظراً للتفاوت في السن بينهما ، ونظراً لانهماك نيقيفوروس بمشاغله وتشاغله عنها . وكان ابن اخته يوحنا جيمسكي Jean Tzimisces جميل الصورة ولا يزال في الخامسة والاربعين من عمره ، فأحبته ثيوفانو فأبعده نيقيفوروس عن القسطنطينية . فأخذت ثيوفانو تسعى لارجاعه . فاقنعت زوجها نيقيفوروس برقيق اسلوبها فأرجعه الى البلاط . وكانت مؤامرة بين ثيوفانو ويوحنا . فذبح نيقيفوروس في غرفته ذبحاً في

١ *Schlumberger, G., Nicéphore, op, cit., 735 ff.*

العاشر من كانون الاول ٩٦٩ وأسلم الروح وهو ينادي « يا والدة الاله ! »
وفي الغد نودي بيوحنا جيمسكي فسيلفساً بالاشتراك مع باسيليوس وقسطنطين القاصرين . وبقي الفسيلفس الجديد اسبوعاً كاملاً في القصر لا يخرج منه . ثم نزل الى كنيسة الحكمة الالهية ليتوّجه فيها البطريرك المسكوني بوليفاكتوس . غير ان هذا الشيخ الورع لم يسمح للفسيلفس بالدخول الى الكنيسة الا بعد ان يقوم بامور ثلاثة : اولها ان يطرد ثيوفانو المجرمة من البلاط ، والثاني ان يعترف بالقاتل اياً كان ، والثالث ان يرجع للمجمع المقدس حق انتخاب الاساقفة وان يترك البت في الامور الكنائسية للمجمع . فأذعن الفسيلفس ونفى ثيوفانو من القسطنطينية ، واعترف باسم القاتل ونفاه ، وأعاد الى المجمع المقدس ما كان نيقيفوروس قد اخذه منه . وتوّج فسيلفساً في الخامس والعشرين من كانون الاول من السنة ٩٦٩ في كنيسة الحكمة الالهية[1].

وكان يوحنا جيمسكي ارمني الاصل يمت بصلة النسب عن طريق والده الى غرغون القائد ، وعن طريق امه الى عائلة فوقاس . وكان يدعى بالارمنية شمشقيق . ومن هنا اسمه في المراجع العربية المعاصرة . وكان قصير القامة ، جميل الصورة ، شجاعاً ، باسلاً ، لطيفاً ، كريماً ، متزناً ، صبوراً . وكان قد اشترك في معظم حروب نيقيفوروس ، فعرفه الجنود واحبوه وتعلقوا به[2]. ورأى الفسيلفس الجديد انه لا بد من ان يتسلم قيادة جيشه بنفسه ، فأعاد الى ادارة دفة الحكم البراكيمومان باسيليوس ليكابينوس الذي كان قد خرج من البلاط في عهد نيقيفوروس الفسيلفس[3].

١ *Schlumberger, G., Jean Tzimisces, (Epopée Byz.) Vol. I.*
٢ *Schlumberger, G., op. cit., I. 4 .*
٣ *Dolger, F., Regesten, 725 .*

عنايته بالكنيسة : وأحب يوحنا جيمسكي الكنيسة وجالس رجالها ولاسيما الرهبان . واصلح ما بين رهبان جبل آثوس وبين النساك فيه . وأصدر في السنة ٩٧٠ « البراءة الذهبية » فأسس بها اتحاد جماعات جبل آثوس[1]. وكان بطريرك انطاكية قد قتل في اثناء الحصار وقبل دخول الروم اليها . وكان الموقف السياسي في سورية لا يزال حرجاً . فطلب الفسيلفس في السنة ٩٧٠ نفسها الى البطريرك المسكوني ومجمعه المحلي ان ينتخبوا بطريركاً على انطاكية وسائر المشرق ، واقترح انتخاب الراهب ثيودوروس فتم انتخابه وتكريسه في الثامن والعشرين من كانون الثاني . ثم توفي بوليفكتوس البطريرك المسكوني ، فرشح الفسيلفس راهباً من رهبان جبل اوليمبوس باسيليوس لهذا المنصب السامي . وقدمه بنفسه الى المجمع وكان لا يزال لابساً القلنسوة الجلدية . فتم انتخابه وسيم بطريركاً في التاسع والعشرين من كانون الثاني من السنة ٩٧٠[2]. وفي السنة ٩٧٤ وشي الى الفسيلفس بان باسيليوس البطريرك وعد شخصية كبيرة بالتاج . فاستدعاه الفسيلفس ليمثل امام مجلس القضاء الاعلى . فرفض البطريرك وطلب محاكمته امام مجمع مسكوني . فخلعه الفسيلفس ونفاه ورشح راهباً آخر هو انطونيوس الاستوديتي . فانتخبه المجمع خلفاً لباسيليوس . ويرى بعض رجال الاختصاص ان الدافع لخلع باسيليوس كان رفضه مجاراة الفسيلفس في سياسته في ايطالية التي قضت بقطع العلاقات مع كنيسة رومة[3].

الروس والبلغار : وكان امير الروس سواتوسلاف لا يزال طامعاً

١ *Dolger, F., Regesten, 745 ; Meyer, Ph., Die Haupturkunden der Athos-Kloster, 141-151.*

٢ *Schlumberger, G., Epopée Byz, I. 32-36.*

٣ *Gfroerer, Byzantinische Gesch., II, 255 ; Fliche et Martin, Hist. de l'Eglise, VII, 761.*

طامحاً ، فجاء في ربيع السنة ٩٧٠ الى البلقان ناهباً مدمراً . وبعد ان استولى على فيليبوبوليس عبر الحدود البيزنطية ، وحلّ ضيفاً ثقيلاً على تراقية . فدبّ الرعب في قلوب سكان العاصمة ، وهبّ برداس سكليروس Bardas Skleros صهر الفسيلفس الى محاربة الروس ودفع الاذى . فدحرهم عند اركاذيوبوليس Loule Bourgas في السنة ٩٧٠ وأكرههم على التراجع الى بلغارية[1]. واضطر الفسيلفس ان يتبع الملاينة في ايطالية والغرب ، فأزوج اوثون الثاني من ثيوفانية ابنة ثيوفانو ، وقضى على ثورة دبّرها برداس فوقاس في بر الاناضول[2]. وفي آذار سنة ٩٧٢ قام هو بنفسه على رأس جيشه الى بلغارية وأنفذ اسطوله الى الدانوب ، واستولى على بريسلافة عاصمة البلغار ، ورد سواتوسلاف الروسي على عقبيه . فامتنع هذا في حصن سليسترية . وبعد حصار دام ثلاثة أشهر سلم الامير الروسي الحصن وقفل راجعاً الى بلاده . ومـا ان وصل الى شلالات الدنيبر حتى اطبق به البتشناغ وقضوا عليه[3]. وأكره الفسيلفس بوغوريس ملك البلغار على التنازل عن العرش وضم بلغارية الشرقية الى دولة الروم ، وألغى بطريركية البلغار[4].

توسع جديد في سورية ولبنان : وما أن أنهى الفسيلفس الجديد مشكلة الروس والبلغار حتى عزم على ازالة خلافة بغداد وتحرير فلسطين والاستيلاء على القدس . ولكن كان عليه قبل هذا وذاك ان يجابه دولة فتية جديدة كانت قد قامت في مصر . فان المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع كان قد سيّر جوهراً الرومي الى مصر في السنة ٩٦٨ فافتتحها

١ *Schlumberger, G., Epopée Byz., I, 39.*
٢ *Diehl, C., Byzance, 126-127.*
٣ *Schlumberger, G., op. cit., I, 92 ff ; Léon le Diacre, 156-157.*
٤ *Dolger, F., Regesten, 739.*

وأزال الشعار الاسود العباسي وألبس الخطباء الابيض وفتح دمشق وخطب للمعز على منابرها . وكان جوهر قد أنفذ جيشاً الى انطاكية فحاصرها خمسة أشهر خلال السنة ٩٧٠ – ٩٧١[١]. وكان الفسيلفس قد اكتفى بان عيّن ميخائيل بورجس دوقاً على انطاكية وأمره بترميم حصونها وجعلها صالحة للدفاع . وفي السنة ٩٧٣ أنفذ الدومستيقوس (الدمستق) الارمني مليه Mleh الى الجزيرة غازياً . فاستولى هذا القائد على ملاطية ولكنه ارتد امام آمد فاعتقل وارسل الى بغداد فتوفي فيها[٢].

وفي السنة ٩٧٤ بعد الانتهاء من مشكلة الروس والبلغار قام الفسيلفس بنفسه على رأس قواته قاصداً بغداد . فسلك الطريق نفسها التي كان قد سلكها هرقل من قبله . فسار في وادي الفرات الاعلى ودخل ارمينية وحالف ملكها أشوت[٣]. ثم اتجه جنوباً فاستولى على آمد وأحرق ميّافارقين ودخل نصيبين وأدخل امير الموصل الحمداني في طاعته[٤]. وتعسّر عليه تموين جيشه فعاد الى القسطنطينية منتصراً غانماً[٥].

وفي ربيع السنة ٩٧٥ عاد الفسيلفس يوحنا جيمسكي الى القتال . فانطلق من انطاكية قاصداً المدينة المقدسة . وما ان أطل عـلى دمشق حتى فاوضه حاكمها في السلم ، فوقّع بياناً اعترف فيه بسيادة الفسيلفس وتقبل حامية مسيحية في مدينته . وقام الفسيلفس الفاتح الى طبرية فدخلها . ثم قام الى الناصرة فعفّ عنها احتراماً واجلالاً ، وتسلق جبل الطابور تيمناً

١ *Schlumberger, G., op. cit., I, 222-223 .*

٢ *Anastasievic, Die Zahl der Araberzuge des Tzimiskes Byzantinische Zeitschrift, vol. 30, 401 ff.*

٣ *Honigmann, Die Ostgrenze des Byzantinischen Reiches, 98 .*

٤ *Adontz, Notes Armeno — Byzantines, Byzantion, 1934, 371-377 .*

٥ *Schlumberger, G., op. cit., I, 262 .*

وتضرعاً . وتقبل هنالك دخول القدس والرملة وعكة في الطاعة وارسل اليها قادة عسكريين يقيمون فيها . ولما كانت قوات الفاطميين قد التجأت الى مدن الساحل فانه رأى ان الحكمة العسكرية تقضي بالاتجاه نحو الساحل قبل التوغل في الجنوب . فاحتل صيدا وبيروت وجبيل وعاد الى انطاكية متأثراً من مرض ألمّ به ، ومنها قام الى القسطنطينية[١].

ومما نقله المعاصرون انه في اثناء عودته الى العاصمة شاهد أراضي فسيحة جميلة خصبة ، فسأل عن مالكها فقيل له انها تخص رئيس الخصيان باسيليوس المقدم بين الوزراء . فاستعظم يوحنا هذا الامر نظراً لاحتياج الدولة وشقاء رؤسائها في سبيل الفتوحات . وبلغ هذا باسيليوس نفسه فخاف فدسّ سماً خفيفاً للفسيلفس فقتله في مدة لا تبلغ السنة . فمات في الثامن عشر من كانون الاول سنة ٩٧٦[٢].

باسيليوس الثاني: (٩٧٦ – ١٠٢٥) وكان باسيليوس واخوه قسطنطين شريكا يوحنا جيمسكي قد بلغا سن الرشد او ما يقرب منها . وكانا يهابان الخصي باسيليوس لانه كان قد تولى تربيتهما . وحدثته نفسه بالملك ، فأرجع ام الفسيلفسين ثيوفانو . ثم عزل القائد الاعلى برداس اسكليروس وعينه في وظيفة ثانوية في قيادة جيش الجزيرة . فذهب برداس وجمع جيشاً واتحد مع اعداء باسيليوس الخصي . فكانت بينه وبين جيوش العاصمة مواقع هائلة وحروب شديدة دامت اربع سنوات . ولجأ برداس الى بغداد وطلب معونة الخليفة العباسي الطائع (٩٧٤ – ٩٩١) .

وكان باسيليوس الفسيلفس الشاب يحضر جلسات المجالس كلها ويتتبع الحوادث ويدرسها . فلمس الخراب الذي حلّ بالدولة من سوء ادارة الخصي

١ *Du Laurier, E., Chronique de Matthieu d'Edesse, Bibliothèque, Hist. Arménienne, 16-24 ; Georges Hamartolus, Continuator, 865.*

٢ *Schlumberger. G., op. cit., 308-315.*

بصرف الاموال ، وقتل القواد والضباط والعساكر ، وانتفاع المسلمين من هذه الحوادث ، ونهوض البلغـــار لاستغلال الموقف . وكان هو عبوساً شجاعاً لا يعتمد الا على نفسه ، قنوعاً في معيشته وملابسه ، بعيـداً عن الملاهي والطرب . وكان اخوه قسطنطين كسولاً محباً للهو والملذات ، يكثر من حضور الروايات والصيد[١].

وفي السنة ٩٨١ رأى ان يذهب بنفسه لمحاربة البلغار ، فعارضه الخصي في ذلك . ولكنه أصرّ وذهب فلم ينجح . وكان اوثون الثاني قـد شرع في الاستيلاء على املاك الروم في ايطالية مدعياً انها تخص زوجته ثيوفانية. فنهاه الفسيلفس فلم يرتدع . فحاربه الفسيلفس في السنة ٩٨٢ وظفر بجنوده واسترجع معظم ما ملكه الروم في ايطالية .

ولم يرضَ باسيليوس الخصي عن تدخل الفسيلفس الشاب في الحكم وخشي ان تفلت السلطة من يده فأثارها حرباً باردة في القصر بينه وبين سميّه الفسيلفس . وانتهى هذا النزاع الصامت بكف يد الخصي في السنـة ٩٨٥ وابعاده الى دير يعيش فيه زاهداً . وما ان فعل حتى رفع رجال الاقطاع رؤوسهم مرة اخرى منـــادين في السنة ٩٨٧ ببرداس فوقاس فسيلفساً . وانضم اليهم برداس اسكليروس . فتفـاقم الشر وعظم الخطب . فاستمال الفسيلفس الكنيسة وخطب ودها ، ثم حـالف امير كييف فلاديير الكبير واستعان بستة آلاف مقاتل روسي . فلما زحف رجال الاقطاع عـــلى العاصمة أنزل الفسيلفس بهم هزيمة شنعـــاء في خريسوبولس (٩٨٨) ولقي برداس فوقاس حتفه في أبيدوس (٩٨٩) . ولم يبقَ في الميدان سوى القائد برداس اسكليروس . فوعده الفسيلفس بالعفو ان هو سلّم ، ففعل[٢].

١ *Zonaras, J., Hist., III, 555 ; Psellus, M., Chronog., 4*

٢ *Psellus, M., op. cit., 9 ff; Schlumberger, G., op. cit., I, 672-677.*

ويستدل من رسم هذا الفسيلفس الذي لا يزال محفوظاً في نسخة قديمة من المزامير انه كان قصير القامة ، مفتول العضل ، أزرق العينين ، مشرق الوجه ، ذا لحية ملتفة كثيفة . ومما يستدل عليه من هذا الرسم ايضاً ان باسيليوس انفرد عن سائر زملائه في انه آثر الظهور باللباس العسكري والسلاح بالزرد والسيف والرمح[١]. وهو في مراجعنا الاولية بعيد عن البذخ إن في المأكل او المشرب او الملبس . وهو قليل الاهتمام بالحفلات والتشريفات . ولم يتذوق العلم والفلسفة . واعتبر الجدل في هذه ضرباً من الثرثرة . ولكنه كان جندياً ممتازاً وفارساً مغواراً وقائداً عظيماً ، يشاطر جنوده التعب ويقودهم الى النصر بوفرة ذكائه وسعة اطلاعه وحسن تدبيره وتنظيمه . ومما جاء في هذه المراجع انه لم يكن لديه وزير اول ، ولم يخص احداً بعطف اكثر من غيره ، ولم يحكم بالقوانين المدونة بل بما اوحاه اليه ضميره ووجدانه[٢].

الكنيسة في عهد باسيليوس : وليس لدينا من مخلفات السلف في هذا الموضوع ما يكفي لايضاح جميع الحوادث[٣]. وأهم ما يلفت النظر ان البطريرك المسكوني انطونيوس الثالث استقال في السنة ٩٨٠ في اثناء ثورة برداس اسكليروس . وبعد استعفائه بقي المنصب اربع سنوات شاغراً . وفي السنة ٩٨٤ سيم نيقولاووس الثاني (خريسوبيرجيوس) بطريركاً مسكونياً فأقام على الكرسي حتى وفاته في السنة ٩٩٥ . ثم خلفه سيسينيوس الثاني المايستروس الطبيب . وكان التنافر لا يزال قائماً في بعض الاوساط الاكليريكية بسبب زيجة لاوون الرابعة ، فوفق

١ *Diehl, C., Peinture Byzantine, pl. 83.*

٢ *Psellus, M., op. cit., 18-24.*

٣ *Bréhier, L., Byz., Vie et Mort, 218-219.*

البطريرك بينهم وسنّ قانوناً بالا يأخذ اخوان زوجتين احداهما ابنة عم او خال او عمة او خالة الاخرى على الوجه السادس ، ولا ان يأخذ العم او الخال وابن اخيه او اخته اختين على الوجه الخامس . وبعد سيسينيوس نصّب البطريرك سرجيوس الثاني (١٠٠١ – ١٠١٩) أحد اقرباء فوطيوس البطريرك السابق .

ويرى مؤرخو الكنيسة الارثوذكسية ان سرجيوس الرابع بابا رومة (١٠٠٩ – ١٠١٢) قال بالانبثاق من الآب والابن ، وانه لما بلغ هذا الامر مسامع سرجيوس الثاني البطريرك المسكوني كتب الى زميله البابا سرجيوس الرابع يرشده في هذا الموضوع فلم يقبل . فعقد البطريرك المسكوني مجمعاً أيّد فيه اعمال البطريرك فوطيوس كلها ومحا من ذيبتيخة الكنيسة اسم البابا سرجيوس الرابع[١]. ويرى بعض رجال الاختصاص من علماء الغرب ان السبب في هذا التباعد بين فرعي الكنيسة الرئيسين هو ان فسيلفس الشرق وامبراطور الغرب كانا في تنافس مستمر حول النفوذ في ايطالية ، وان البابا بنديكتوس الثامن (١٠١٢ – ١٠٢٤) كان مديناً بتبوئه العرش الكنائسي لهنريكوس الثاني امبراطور الغرب ، وانه اعترافاً بهذا الفضل اهدى الى هنريكوس كرة ذهبية يعلوها صليب رمز السلطة العالمية ، وان فسيلفس الشرق باسيليوس اعتبر اقدام البابا على صنع هذه الكرة وتقديمها الى هنريكوس عملاً عدائياً ، وان البطريرك المسكوني شاركه في هذا الشعور[٢].

ومما لا ينبغي اغفاله في هذا كله هو ان مراجعنا الاولية كما سبق ان أشرنا قليلة ، وان مراجع الانشقاق العظيم الذي حلّ في السنة ١٠٥٤

١ جراسيموس ، متروبوليت بيروت ، الانشقاق ، ج ٢ ، ص ٦٣ .
٢ *Jugie, M., Le Schisme Byzantin, (1941), 166-167.*

لا تشير البتة الى هذا الاختلاف بين سرجيوس الشرق وسرجيوس الغرب .

تنصر الروس : وأعظم من هذا كله وأشد اثراً في التاريخ تنصّر الروس . وكانت اولغة زوجة ايغور اول امراء الروس قد اعتنقت الديانة المسيحية في القسطنطينية في السنة ٩٠٥ فسميت هيلانة . ثم عادت الى بلادها وأخذت تسعى في تنصير شعبها وخصوصاً ابنها ايفاتوسلاف . وأثمر سعيها مع بعض الاهالي ولكنها توفيت ولم تستطع اقناع ابنها . ولا يزال الروس يعيّدون لها في الحادي عشر من نيسان في كل سنة . ثم مات ايفاتوسلاف وخلفه ابنه فلاديمير سنة ٩٨٠ . ثم كان ما كان من امر برداس فوقاس . فطلب القيلفس باسيليوس الثاني معونة فلاديمير ، فجاءت المعونة في حينها . وطلب فلاديمير حنة شقيقة باسيليوس زوجةً . فقبل القيلفس شرط ان يتقبل فلاديمير النصرانية . فتقبلها . فشرطن البطريرك المسكوني نيقولاووس الثاني ميخائيل السوري الاصل متروبوليتاً على كييف . وأرسله وخمسة اساقفة مع الاميرة حنة لينشروا الديانة المسيحية في روسية . ووصلوا الى خرسون في بلاد القرم وعمّدوا فلاديمير سنة ٩٨٨ وكللوه على حنة . وعاد فلاديمير الى كييف ، وأمر بان يجتمع جميع أهلها كباراً وصغاراً على شاطىء النهر . فركع فلاديمير وصلى ووقف الكهنة على ألواح من الخشب يعمّدون الشعب تغطيساً . واعتبرت الكنيسة الروسية فيما بعد فلاديمير وزوجته قديسين ومنحت فلاديمير لقبَ معادل الرسل ولا تزال تحتفل بعيده في السادس عشر من تموز في كل سنة[١]. ويرى بعض من يعنى بتاريخ الروم في الغرب ان فلاديمير تقبل النعمة في كييف قبل زواجه من حنة وذلك في السنة ٩٨٧[٢].

١ *Schlumberger, G., Epopée Byzantine, I, 701-723, 758-777, II, 1-12.*
٢ *Baumgarten, Conversion de la Russie, Orientalia Christiana, 1932, 1-36.*

حروب باسيليوس وفتوحاته : وكان باسيليوس اعظم قوة وأطول باعاً في الحرب من اسلافه . فانه تمكن بجده وسعيه ومقدرته في الادارة والحرب من تجييش عدد من الرجال اكبر بكثير من اي عدد جنده أسلافه . وحارب في وقت واحد في جبهات اربع : في الجنوب والشمال وفي ايطالية والقوقاس .

وكانت مشكلة بلغارية لا تزال عقدة العقد . فان انتصار يوحنا جيمسكي لم يكن كاملاً . ولم يتمكن هذا القسيلفس من تدويخ جميع البلغاريين . ولم يضم الى ملكه سوى بلغارية الشرقية . وبقي عدد من كبار رجال الاقطاع البلغاريين خارجين عن سلطته . وما ان زال البيت المالك القديم حتى شق صموئيل احد هؤلاء طريقه الى الملك ونظم بلغاريةً غربية جديدة وحكمها من قلعته في اوخريدة في تلال مقدونية . ولم يحاول صموئيل باديء ذي بدءٍ ان يكتسح بلغارية الشرقية ولكنه اتجه جنوباً فانقضّ على بلاد اليونان . واحتل لاريسة سنة ٩٨٦ ووصل الى برزخ كورينثوس . فأعد باسيليوس الثاني حملة وأغار على املاك صموئيل . فارتد هذا عن اليونان وأنزل بخصمه القسيلفس هزيمة شنعاء امام صوفية في السابع عشر من آب من هذه السنة . واضطر باسيليوس ان يواجه ثورة البرداسين كما سبق وأشرنا .

وكان سعد الدولة الحمداني قد دخل حلب واستولى عليها ، فحاول مراراً ان يتملص من الاتاوة التي كان بقجور قد قبل بدفعها الى الروم. فأدى هذا الى انفاذ حملات ثلاث على حلب بقيادة برداس فوقاس في السنوات ٩٨١ و٩٨٣ و٩٨٦ . واضطر سعد الدولة ان يستنجد العزيز الفاطمي ، فنشب خصام بين الروم والفاطميين . ولما كان باسيليوس منهمكاً في القضاء على ثورة البرداسين اضطر بدوره في اواخر السنة ٩٨٧ الى ان يصالح العزيز بمعاهدة كان من شروطها ان يذكر اسم العزيز في خطبة

الجامع في القسطنطينية . وكان قد قام في القسطنطينية مسجد منذ القرن الثامن[1] .

ولم يكن باسيليوس الثاني في هذه الفترة نفسها أسعد حظاً في ايطالية. فان اوثون الثاني امبراطور الغرب طمع في جنوبي ايطالية . ففي كانون الثاني من السنة ٩٨٢ غزا ابولية البيزنطية وهاجم مدنها . ولكنه عندما دخل كلابرية اصطدم بجيش عربي كان قد أنفذ اليها من صقلية . فواقعه عند ستيلو في الثالث عشر من تموز سنة ٩٨٢ فانهزم وكاد ان يقع في يد العرب اسيراً لولا نزوله الى البحر على ظهر جواده والتجاؤه الى سفينة بيزنطية قريبة . وعاد الى روسانو وأعاد تنظيم جيشه وتراجع شمالاً وتوفي في رومة في كانون الاول من السنة ٩٨٣ . وعاد العرب الى صقلية فتمكن الروم من اعادة سلطتهم في ابولية[2] .

وفي السنة ٩٨٨ أخمد باسيليوس ثورة البرداسين واستتب الامر له . وكان في سلم مع الروس والفاطميين فعاد الى حدود البلغار . وكان صموئيل قد استثمر انشغال خصمه باسيليوس فاستولى على قسم من دلماسية وعلى ساحل البانية فأصبح سيد ثلثي البلقان . وكان قد هاجم ثيسالونيكية واحتل بروة Berrhoe عند مداخلها الغربية . فقام باسيليوس الى ثيسالونيكية بنفسه في ربيع السنة ٩٩٠ فرمم حصونها ثم دخل في حرب بلغارية دامت اربع سنوات متتالية[3] .

وتوفي سعد الدولة الحمداني في السنة ٩٩١ فطمع العزيز الفاطمي بحلب .

١ *Schlumberger, G., Epopée Byzantine, I, 544-572 , 730-713 ; Dolger, F., Regesten, etc., 770 .*

٢ *Schlumberger, G., op. cit., I, 499-507 ; Gay, J., Italie Méridionale, 331-335 .*

٣ *Schlumberger, G., op. cit., 751-755 , II, 44-45 ; Cedrenus, G., Synopsis Historion, II, 58, 180.*

فحاصرها في السنة ٩٩٢ فاستجار لؤلؤ الكبير الوصي على ابن سعد الدولة القاصر باسيليوس الثاني . فأمر باسيليوس دوق انطاكية ميخائيل بورجس ان يقدم المعونة اللازمة . فظفر الفاطميون بجيشه في موقعة العاصي في الخامس عشر من ايلول سنة ٩٩٤[١]. فرأى الفسيلفس الكبير ان الواجب يقضي بان يشرف بنفسه على الاعمال في سورية الشمالية . ففوض نيقيفوروس اورانوس متابعة الحرب البلغارية . وجمع جيشاً خاصاً وجعل لكل مقاتل بغلين ، وهب بسرعة فائقة فقطع آسية الصغرى في ستة عشر يوماً وفاجأ الفاطميين عند حلب فتراجعوا عنها وفروا امامه حتى ابواب دمشق . وعاد الفسيلفس الى القسطنطينية في خريف السنة ٩٩٥[٢].

ونشط صموئيل في غياب باسيليوس فزحف على ثيسالونيكية واوقع الهزيمة بحاكمها الارمني أشوت ، ولكنه لم يقتحمها بل آثر التوغل في اليونان فوصل ثانية الى برزخ كورينثوس . وتأثره نيقيفوروس اورانوس وأنزل به هزيمة شنعاء عند مضيق ثوموبيلي الشهير . ففر صموئيل متسلقاً الجبال حتى وصل الى سواحل ابيروس في صيف السنة ٩٩٦ . ووصل الفسيلفس من سورية ولم يتمكن من استثمار هذا النصر استثماراً كاملاً واكتفى بان أنزل نيقيفوروس الى بلغارية الغربية ليدمر وينهب ويحرق .

وتوفي العزيز الفاطمي وتولى الحكم بعده الحاكم بأمره (٩٩٦ - ١٠٢١) فأنزل بدوق انطاكية داميانوس دلاسانوس في تموز السنة ٩٩٨ هزيمة كبيرة . وخرّ داميانوس مقاتلاً . فاضطر باسيليوس ان يعود الى سورية الشمالية لينقذ الموقف . فدخل انطاكية في العشرين من ايلول سنة ٩٩٩ واستولى على حمص في تشرين الاول من السنة نفسها . ثم قام الى طرابلس

١ *Schlumberger, G., op. cit., II, 68-84.*

٢ *Yahya d'Antioche, Chronique Universelle, 176-177.*

فارتد امامها (٦ – ١٧ كانون الاول) ، وعاد الى طرسوس لتمضية الشتاء[١].

وبينما هو يعد العدة في طرسوس لمتابعة الحرب ضد الفاطميين علم بوفاة داود ملك الكرج . وكان داود هذا قد عاون برداس فوقاس في ثورته على الفسيلفس وأوصى عند انتهائها بملكه الى الفسيلفس . فقام الفسيلفس بجيشه الى ملاطية ، ثم عبر الفرات ودجلة ووصل الى هافاتشيش . فقدم امراء الكرج خضوعهم ، وضم الفسيلفس دولة داود الى الامبراطورية وعاد الى القسطنطينية عن طريق ارضروم[٢].

وترك هذا كله اثراً في نفس الحاكم بامره ، فأسرع يفاوض باسيليوس في السلم . ولما عاد الفسيلفس الى القسطنطينية وجد فيها اورسطيوس بطريرك القدس منتظراً لابرام صلح باسم الخليفة الفاطمي . فكان صلح بين الدولتين لعشر سنوات[٣].

وانطلق الفسيلفس بعد هذا يذلل الصعاب في بلغارية . فدخل في حرب دامت سبع عشرة سنة (١٠٠١ – ١٠١٨) تمكن في اثنائها من مضايقة خصمه صموئيل بتفوّق عساكره ، ومهارة قواده ، وحذقه هو في تدبير الخطط وتنفيذها ، وفي سرعته ومفاجآته . وأشهر مواقع هذه الحرب معركة كيمبالونغوس Kimbalongos . وهو ممر طبيعي في وادي السترومة كان لا بد لباسيليوس من ان يعبره في طريقه الى معاقل صموئيل الاخيرة في مقدونية الغربية . وفي التاسع والعشرين من تموز سنة ١٠١٤ كمن صموئيل لباسيليوس في هذا الممر . وما ان وصل الروم اليه حتى أمطرهم البلغاريون وابلاً من السهام من وراء أسيجة مدبرة . فأنقذ

١ *Yahya d'Antioche, op. cit., 183-184.*

٢ *Schlumberger, G., op.cit., II, 172-198.*

٣ *Dolger, F., Regesten, 788 ; Schlumberger, G., op. cit., II, 201-208.*

باسيليوس القائد نيقيفوروس زيفياس يهدمم من الوراء . فكان نصر مبين . ووقع في يد باسيليوس عدد كبير من الاسرى ، فسمل عيون خمسة عشر الفاً منهم وأطلقهم بقيادة مئة وخمسين أعور يقابلون صموئيل ملكهم . وما ان شاهدهم هذا حتى اغمي عليه وتوفي للحال في السادس من تشرين الاول سنة ١٠١٤ . ونال باسيليوس لقب « ذباح البلغاريين » Bulgaroctonus . ونادى البلغار بابن صموئيل جبرائيل ملكاً ، فدامت الحرب اربع سنوات اخرى . وتابع باسيليوس الحرب فاحتل اوخريدة العاصمة في خريف السنة ١٠١٧ ثم حاصر كستورية . واستجار البلغار البتشناغ ، ولكن دون جدوى . وسقط آخر ملوك البلغار مقاتلاً في اوائل السنة ١٠١٨ . فضم باسيليوس جميع بلغارية الغربية الى ملكه . وأصبحت شبه جزيرة البلقان بكاملها ارضاً بيزنطية للمرة الاولى بعد يوستنيانوس الكبير . وبلغت دولة الروم بفضل هذه الفتوحات في الشرق والغرب حدودها الطبيعية[١] .

وتميزت السنوات الخمس الاخيرة من حكم باسيليوس الثاني (١٠٢٠ — ١٠٢٥) بالسيطرة على ايطالية ، والاستعداد لاخراج العرب من صقلية ، وبمحاولة جدية لتأمين الحدود عند القوقاس ، والصمود في وجه الاتراك السلاجقة الذين كانوا قد بدأوا يتجهون غرباً . ففي ربيع السنة ١٠٢١ قام باسيليوس الى ارضروم ومنها الى سهل بسيان حيث أنزل بالملك جورجي هزيمة سهلت وصول الفسيلفس المنتصر الى تفليس . ثم عاد الى طرابزون يمضي فصل الشتاء فتقبل فيها خضوع يوحنا سمباد ملك ارمينية الكبرى ، كما تسلم من الملك فاسبوراكان سلطته على الاراضي الواقعة جنوبي بحيرة وان ، لانه لم يتمكن من حمايتها من غزوات الاتراك السلاجقة . وقبل

١ Bréhier, L., Byzance, Introduction, 5-6.

انتهاء فصل الشتاء جاءَ الملك جورجي نفسه يقدم خضوعه بلا قيد او شرط . وعاد الفسيلفس الى القسطنطينية في مطلع السنة ١٠٢٣[١].

وأدّت مقاومة البلغار الطويلة وتعديات القرصان الصقالبة والعرب في مياه الادرياتيك الى تفاهم وثيق وتعاون جدي بين الفسيلفس وحكومة البندقية التي كانت تعترف بسيادة الروم . ففي السنة ٩٩٢ منح باسيليوس تجار البندقية امتيازات تجارية اهمها انقاص المكوس وردع الموظفين عن البلص . فوعد البنادقة بوضع سفنهم تحت تصرف الفسيلفس لنقل جيوشه وعتاده الى ايطالية[٢]. وتودد الفسيلفس الى مدن بحرية ايطالية اخرى اهمها بيزا .

وفي السنة ١٠٠٩ ثار الجمهور في باري على عامل الروم فيها من جراء ضغطه وصلفه . وامتدت هذه الثورة الى جميع انحاء مقاطعة ابولية ، ودامت عشرة أشهر . وحاصر الروم باري واستولوا عليها . وفر زعيم الثورة فيها الى المانية فرحب بقدومه هنريكوس الثاني الامبراطور ومنحه لقب دوق ابولية[٣]. واستعان هذا الزعيم الايطالي بالفرسان النورمنديين الذين كانوا على استعداد دائم لتقديم خدماتهم في مثل هذه الظروف . فلبوا الطلب وجاء بهم وبغيرهم الى ابولية في ربيع السنة ١٠١٧ وأنزل بالروم خسائر عديدة . فأنفذ باسيليوس احد رجاله الاشداء باسيليوس بويانس فقضى على هذه المحاولة ، وفر زعيم الثورة ثانية الى المانيا ، الى حضن هنريكوس الثاني وتوفي فيها (١٠٢١) . وأعاد بويانس هيبة حكم الروم في ايطالية الجنوبية . وحصن الحدود الشمالية ولاسيما منطقة غارغانو - بنفنتوم . فهال

١ Dolger, F., *Regesten*, 809, 810, 811, 816 ; Schlumberger, G., *op. cit*, II, 468 ff., 480-511, 595-536.

٢ Dolger, F., *Regesten*, 789.

٣ Chalandon, F., *Hist de la Domination Normande en Italie*, I, 47.

هذا الامر هنريكوس الثاني ، وقام للحال بحملة عسكرية يزعزع بها نفوذ زميله الفسيلفس ، ولكنه أخفق كل الاخفاق ! وحاول باسيليوس الفسيلفس ان يستثمر هذا النصر فيحتل صقلية ويخرج العرب منها . وأنفذ الى ايطالية في شهر نيسان من السنة ١٠٢٥ جيشاً ، واحتل بويانس مسينة . وتأهب الفسيلفس للحاق بيويانس ولكنه صعق بمرض اودى به في الخامس عشر من كانون الاول سنة ١٠٢٥[١].

١ *Gay, J., Italie Méridionale, 420-429; Schlumberger, G., op. cit., II, 598-599, 619-620; Mercati, G., Bessarione, 1921, 138.*

الفصل الخامس والعشرون

التوقف عن التوسع وانتهاء الاسرة المقدونية

(١٠٢٥ – ١٠٥٧)

ورقي عرش القسطنطينية ، بعد وفاة باسيليوس الثاني ، عددٌ من صغار الرجال وضعفاء النفوس والهمم . فأفلتت السلطة الحقيقية من يد الفسيلفس وعظم شأن الخصيان في البلاط ونشبت مشادة عنيفة بين هؤلاء وبين قادة الجيش . فأدّت هذه المشادة وهذا التنافس الى تمرد الجند وضعف قوى الدفاع في وقت هدد فيه كيان الدولة عدوان جديدان هما النورمانديون في الغرب والاتراك السلاجقة في الشرق .

قسطنطين الثامن : (١٠٢٥ – ١٠٢٨) وتوفي باسيليوس بدون عقب وتولى الحكم بعده اخوه قسطنطين الثامن . وكان هذا خفيف العقل مستهتراً متصابياً مولعاً بسباق الخيول منغمساً في الملذات يكره الحرب والعمل الجدي . وكان قاسياً عتياً يلاقي جميع الذنوب بسمل العينين[١] . فما ان تبوأ العرش حتى عزل كبار القادة ابطال الحروب السابقة واستبدلهم برجال من صنعه . ولم يكن له ولد ذكر ، فاستدعى الشريف رومانوس ارغيروس اليه وأكرهه على تطليق امرأته وازوجه من ابنته زوية وذلك

١ *Schlumberger, G., op. cit., III, 6-14.*

في الثامن من تشرين الثاني سنة ١٠٢٨ وقبل وفاته بثلاثة ايام[١].

الاباطرة الاصهار: (١٠٢٨ – ١٠٥٧) ودخل الروم بعد هذا في حكم اصهار الاسرة المقدونية . ولم يكن اصهار القرن الحادي عشر من بضاعة سلفائهم اصهار القرن العاشر . وكان رومانوس ارغيروس الثالث (١٠٢٨ – ١٠٣٤) ينتسب الى بيت عسكري شهير مما يسّر له قيادة الجنود ولكنه لم يوفق الى النصر كما سنرى . وكان اول ما قام به من الاعمال ان ألغى تشريع باسيليوس الثاني الذي حمى به الفقراء وصغار الملاكين من جشع اصحاب الاملاك الكبيرة . فطغى هؤلاء وتجبروا ، وأدى جشعهم الى انفراط العقد وتشتيت الكلمة .

وكان عند رومانوس الثالث خصي اسمه يوحنا البفلاغوني . وكان لهذا اخوة اربعة فرقاهم الخصي وأدخل أحدهم ميخائيل في خدمة البلاط . وكان ميخائيل لا يزال في عنفوان شبابه ، جميل الوجه ، ساحر العينين. فتعلقت به زوية فدفعها الى قتل الفيلسوف . فدست له السم ثم خنقته في مغطس الحمام في الحادي عشر من نيسان سنة ١٠٣٤ . وألبست ميخائيل البفلاغوني بدلة الملك وتوّجته وأجلسته بجانبها وأمرت بتعظيمه . وما ان تم جلوس ميخائيل الرابع على العرش حتى قام اخوه يوحنا الخصي يستأثر بالسلطة . فحصر زوية بين نساء الحرم . وألم باخيه ميخائيل الرابع داء النقطة فاستقل الخصي بالادارة ورقى اقرباءه الى الوظائف الكبرى وعزل غيرهم من ذوي الاهلية . وانتقمت زوية من يوحنا الخصي فدست له السم . ولكنه استدرك الامر ونجا من الموت . ولم يبطش بها محافظة على مركز اخيه ومركزه . وكان مرض ميخائيل الرابع يزداد من يوم الى يوم . فشعر بقرب اجله . وأنبه ضميره على فظاظة ما عمله برومانوس الثالث ، فشرع يوزع الحسنات ويبني الكنائس

١ *Psellus, M., Chonographia, II, 10 ; Grummel, R. P., Regestes etc., 836.*

ويعمّد الاطفال ليكفر عن خطيئته . وزار مقام القديس ديمتريوس في ثيسالونيكية ولكنه لم ينتفع . ثم اصيب بالاستسقاء فطلب العزلة وسيم راهباً . وبعد قليل توفي في العاشر من كانون الاول سنة ١٠٤١[١].

وكان لميخائيل الرابع ابن اخت اسمه ميخائيل القلفاطي . وكانت زوية قد تبنته . فلما مات ميخائيل الرابع طردت زوية اخاه يوحنا الخصي واخويه الآخرين وتوّجت ابنها الوضعي ميخائيل الخامس القلفاطي فسيلفساً . ولم يبر ميخائيل الخامس بامه زوية فنفاها الى جزيرة من جزر الامراء ، وأكره البطريرك الكسيوس على ان يذهب الى الدير ، واساءَ معاملة كثيرين من اهله . فاستاء سكان العاصمة من عمله وكانوا لا يزالون يكنون المحبة والولاء للاسرة المالكة المقدونية . فاحضروا ثيودورة اخت زوية من الدير وخلعوا عنها ثياب الرهبنة وألبسوها الحلة الملوكية وأرجعوا اختها زوية ونادوا بهما فسيلستين . فلما رأى ميخائيل الخامس القلفاطي هياج الشعب التجأ الى دير الاستودي هو وعمه وتقبلا النذر . ولكن ثيودورة أمرت بمعاقبتهما فسحبا من هيكل كنيسة الدير وسملت اعينهما ونفيا (١٠٤٢)[٢].

واجتهدت زوية بعد هذا في ابعاد اختها ثيودورة فلم توفق الى ذلك نظراً لموقف الشعب منها . وأحبت والياً اسمه قسطنطين ارتوكليني ورغبت في الزواج منه ولكن زوجته علمت بذلك فدست له السمّ فمات . وكان ميخائيل الخامس قد نفى قسطنطين مونوماخوس الى مدلّة لتعلق زوية به . فلما مات ميخائيل ومات ارتوكليني أحبت الفسيلسة ان تتخذ منه

١ *Schlumberger, G., op. cit., III, 150-183, 276-278, 319-372 ; Bréhier, L., Byzance, op. cit., 242-243.*

٢ *Psellus, M., Chronographia, I, 106 ; Diehl, C., Figures Byzantines, I, 268-271.*

زوجا لها فلم يرضَ البطريرك عن زواج ثالث ولم يسمح به .

ولكن الفسيلسة أصرت فكللها كاهن القصر في الحادي عشر من حزيران سنة ١٠٤٢ . وبعد ان تم لها ذلك أكرهت البطريرك على تتويج قسطنطين فسيلفساً ففعل وأصبح قسطنطين مونوماخوس قسطنطين التاسع (١٠٤٢ — ١٠٥٥)[١].

الحدود والعلاقات الخارجية : (١٠٢٥ — ١٠٤٢) وعلى الرغم من تصاغر هؤلاء الملوك وتحاقرهم فان جهاز الدفاع كان لا يزال قوياً بفضل الجهود التي بذلها باسيليوس الثاني في اثناء حكمه الطويل . وظلت حركة التوسع قائمة ولكن نتائجها كانت بطبيعة الحال أخف بكثير من ذي قبل .

ففي السنة ١٠٢٧ قام عرب افريقية بهجوم بحري على بعض جزر ايجه فصمد قائد ساموس في وجههم وعاونه في ذلك قائد خيوس وأنزلا بالعرب خسائر فادحة في الرجال والعتاد . وعاد العرب الى هجوم آخر في السنة ١٠٣٥ ليلقوا اندحاراً مماثلاً[٢]. وفي السنة ١٠٢٧ ايضاً وافق الظاهر خليفة الحاكم (١٠٢١ — ١٠٣٥) على ترميم كنيسة القبر المقدس التي كان قد أمر باحراقها الحاكم في السنة ١٠٠٩ ووقع معاهدة بهذا المعنى مع قسطنطين الثامن[٣]. ثم أغارت عشائر حلب على اراضي الروم فهبّ رومانوس الثالث في السنة ١٠٣٠ يدافع ويقتص . ولكنه أخفق وكاد يقع اسيراً . ثم كرّ القائد مانياكيس ودوق انطاكية نيقيطاس فأكرها امير حلب على توقيع معاهدة في ايلول من السنة ١٠٣١ دخل بها في طاعة الفسيلفس . وثار في

١ *Psellus, M., Chron., I, 122-127; Diehl, C., op. cit., I, 271-283; Schlumberger, G., op. cit., III, 392-401.*

٢ *Cedrenus, G., Synopsis, II, 259-266.*

٣ *Dolger, F., Regesten, 824.*

هذه الآونة حاكم طرابلس ودخل في حماية الروم . ثم سجل منياكيس نصراً في الرها فدخلها عنوة واستولى على رسالة السيد المسيح الى ابجر ملك الرها . وعندئذ عرض رومانوس الثالث صلحاً على زميله الفاطمي مشترطاً السماح باعادة بناء جميع الكنائس المخربة والاعتراف بحق الفسيلفس في ترميم كنيسة القبر المقدس على نفقته الخاصة . وفي السنة ١٠٣٦ وقعت معاهدة بهذا المعنى بين ميخائيل الرابع وارملة الظاهر الوصية على ابنها القاصر المستنصر[١] . ويستدل من كلام ناصر خسرو الذي زار بيت المقدس في السنة ١٠٤٦ ان كنيسة القبر كانت قد شيدت على نفقة الفسيلفس وزينت بالرخام الملون والنقوش والفسيفساء المذهبة . ومما جاءَ في كتاب ناصر خسرو ان فسيلفس الروم تخفّى وزار القدس متنكراً في عهد الحاكم بامره ، وان الحاكم علم بذلك فارسل الى زميله يطمئنه ويعده بالخير[٢] .

وحاول قسطنطين الثامن في السنة ١٠٢٧ ان يستغل وفاة جورجي ملك الكرج وقصور ابنه وولي عهده ولكنه مُني بالاخفاق . وقلْ الامر نفسه عن الحملة التي قام بها قسطنطين اخو ميخائيل الرابع في السنة ١٠٣٨ . وتوفي يوحنا سمباد ملك الارمن واندلعت حرب اهلية في ارمينية فأحب ميخائيل الرابع ان ينفذ الوصية التي أوصى بها سمباد في السنة ١٠٢١ . فأنفذ حملة الى ارمينية ولكن الجيش الذي هاجم عانة مُزق تمزيقاً ، وأعلن كاكيغ الثاني نفسه ملك الملوك في السنة ١٠٤٢[٣] .

وغضب قسطنطين الثامن على بوبانس القائد المحنك واقاله من وظيفته

١ Dolger, F., Regesten, 834-843 ; Schlumberger, G., III, 88-91 , 107-118 , 194 199 , 203-204.

٢ Nasir -i- Khusrau, A Diary of a Journey Thaough Syria and Palestine, Trans. Guy Le Strange, 59-60.

٣ Schlumberger, G., op. cit., III, 23-24 , 208-218.

في السنة ١٠٢٨ وأحل محله من لم يكن اهلاً للقيادة والقتـــال . فنشط عرب صقلية للاغارة والغزو ما بين السنة ١٠٣٠ والسنـة ١٠٣٢ وظهرت مراكبهم في مداخل الادرياتيك . ولكنهم لم يتمكنوا من الصمود في وجـه راغوزة ونابولي . ففاوض اميرهم في الصلح في السنة ١٠٣٥ ووقع معاهدة بذلك مع ميخائيل الرابع[١]. وفي السنة ١٠٣٧ حـــاول الروم الاستفادة من تقسم العرب في صقلية ، فقـــام قسطنطين اوروبوس حاكم ايطالية اليها وتغلب على العرب في مواقع متعـددة وحرر الوف الاسرى المسيحيين . ولكنه لم يتمكن من الاستقرار في الجزيرة . وقام في السنة التالية ١٠٣٨ بعد العدة لحملة كبيرة على صقلية . فأمَّر اخاه اسطفانوس على الاسطول وعهد بقيادة الجيش الى جورج منياكيس . واشترك في هذه الحملة هارولد ملك نروج وعدد من الفرسان النورمنديين . ونزل الروم الى الجزيرة واستولوا على مسينة . ثم قام منياكيس الى بالرمو فسرقوصة ، فاستولى عليهما في صيف السنة ١٠٤٠ . وقلت جماكية العساكر فانسحب الافرنج الى ايطالية . ووقع الشقاق بين قائد البر وقائد البحر . ووجـه الاول كلاماً لاذعاً الى قائد الاسطول لانه افسح في المجال باهماله لزعيم تووينة المسلم ليفرّ سالماً . فاستدعي منياكيس الى القسطنطينيـــة واودع السجن . وحـل محله من لم يكن اهلاً لذلك ، فلم يبقَ بيد الروم من صقلية في السنة ١٠٤١ الا مسينة[٢].

قسطنطين التاسع مونوماخوس : (١٠٤٢ — ١٠٥٥) وأحب قسطنطين التاسع خليلة اسمها اسكليرينة . فاحضرها الى البلاط ومنحها لقب سبسطة . فجلست في المجالس ، وظهرت في المواكب ، واستمتعت باموال الدولة ،

١ *Dolger, F., Regesten, 841.*

٢ *Chalandon, F., Hist. Domination Lombarde en Italie, I, 89-95; Psellus, M., Chronographia, II, 31-46.*

فحطت من كرامة هذا الفسيلفس في أعين الشعب . وعند وفاتها قرّب آلانية شابة وجعلها سبسطة ايضاً ، ولكنه لم يجرؤ على ان يسكنها القصر . وظل طائشاً خاملاً مستهتراً مسرفاً مبدداً الى ان حلّ به فالج قوي أقعده عن كل حركة . وكان قسطنطين في الوقت نفسه صافي القلب بشوشاً بعيداً عن الحقد والتكبر يجذب القلوب بلطفه وخفة روحه[1].

وافضل ما ينسب اليه اهتمامه بجامعة القسطنطينية وسعيه لجعلها مؤسسة تغذي الدولة برجال مثقفين مهذبين يخرجون الادارة من ايدي الخصيان والعسكريين . وكان ميخائيل الخامس قد قدّم المشترع قسطنطين ليخوذس على غيره من رجال البلاط فابقاه مونوماخوس في هذه الوظيفة . وعطف ليخوذس على رفاقه في العلم الذين تحدروا إما من بيوت وضيعة كيوحنا زفلينس Xiphilinis الطرابزوني او من الطبقة المتوسطة كميخائيل بسلوس Psellus . وجاء قسطنطين التاسع يفاخر بالعلم ويسعى لتصديع جبهة العسكريين ، فحمى الادباء والعلماء وأسند اليهم بعض الوظائف الكبرى ، وجعل في السنة ١٠٤٣ بسلوس ، الذي كان لا يزال في الخامسة والعشرين من العمر ، رئيساً للديوان الملكي ، ورقى يوحنا بيزنتيوس الى رتبة مستشار ، ووكل رئاسة كلية الحقوق الى يوحنا زفلينس . وأصبح ميخائيل بسلوس فيما بعد « قنصل الفلاسفة » فتولى ادارة الابحاث الادبية وتمتع برتبة عالية في تشريفات البلاط . ثم انتقد ليخوذس تبذير الفسيلفس بصراحة الفلاسفة ووقاحتهم ، فغضب عليه قسطنطين التاسع في السنة ١٠٥٠ وأبعده . ثم حلّ سخط الفسيلفس على يوحنا مورويوس فاستقال بسلوس وزفلينس[2].

وكان رومانوس اسكليروس اخو خليلة الفسيلفس يكره القائد الكبير

[1] *Psellus, M., op cit., I, 133-134 ; Diehl, C., Figures Byz., I, 273-276.*

[2] *Psellus, M., op. cit., I, 138-140 , II, 38-60 , 66-57 ; Bréhier, L., Byzance,* 252-253.

جورج منياكيس . فاستدعى قسطنطين هذا القائد من ايطالية وأبعده . وثار القائد ونادى به جنوده في خريف السنة ١٠٤٢ فسيلفساً . وجرح جرحاً بليغاً في اول اصطدام وقع بينه وبين جنود الفسيلفس . فانفض جنوده عنه وانتهى أمره[١]. وفي منتصف السنة ١٠٤٣ تخاصم الروس والروم في ضواحي القسطنطينية ، وقتل أحد كبار تجار الروس . وكان قد سبق لتجار الروس في عاصمة الروم ان شكوا مضايقة الروم وتعسفهم الى امير كييف . فرأى الامير فلاديمير ان يتخذ من قتل التاجر الرومي عذراً للمطالبة بشروط تجارية للروس في القسطنطينية افضل من ذي قبل . واحتج على مقتل التاجر الروسي وطالب بالدية . فصُد عن ذلك . فجرد حملة برية بحرية ودخل البوسفور . فذعر الناس ونشط الفسيلفس وقام بنفسه الى قتال الروس في البحر . فتمكن من ابعادهم بالنار الاغريقية في حزيران سنة ١٠٤٣ . ووقعت معاهدة في السنة ١٠٤٦ لا نعرف من شروطها سوى زواج احد امراء الروس من اميرة بيزنطية[٢].

وفي السنة ١٠٤٧ تضافرت العناصر العسكرية الساخطة التي كانت قد ابعدت عن السلطة واتخذت من ادرنة قاعدة لها ونادت بطورنيكيوس الارمني فسيلفساً وزحفت على القسطنطينية . وحاولت اقتحام الاسوار ولكن دون جدوى . ثم وصلت قوى الشرق فأنزلت بطورنيكيوس وزملائه هزيمة كبرى في اواخر السنة ١٠٤٧[٣].

وكانت قبائل البتشناغ التركية قد وصلت الى الدانوب في عهد باسيليوس الثاني . وفي السنة ١٠٤٨ نشب خلاف ونزاع بين اثنين من زعمائها .

١ *Schlumberger, G., op. cit., III, 450-456.*

٢ *Dolger, F., Regesten, 875; Revue des Questions Historiques, Couret, Les Russes à Constantinople, 1876, 69 ff.*

٣ *Dolger, F., Regesten, 872-883; Schlumberger, G., op. cit., III, 507-528.*

فالتجأ احدهما الى الروم . فعبر خصمه الدانوب وتوغل في بلغارية . فأنزل به الروم بمعاونة خصمه هزيمة شنعاء. ودخل في خدمة الروم عدد كبير من البتشناغ . وقضت ظروف داخلية في بيثينية ان يساق هؤلاء اليها . فأبوا وتمردوا وأقاموا في سهول صوفية . وانضم اليهم من كان قد بقي من اخوانهم في بلغارية . وطاردتهم جيوش الروم مراراً ولكن دون جدوى . وفي السنة ١٠٥٣ سئم هؤلاء البتشناغ الحرب وفاوضوا في الصلح واستقروا في بلغارية[١].

وجدد قسطنطين التاسع معاهدة الصداقة والمودة بينه وبين المستنصر الفاطمي في السنة ١٠٤٧ – ١٠٤٨ وأمد الفاطميين بالقمح عند حلول القحط في سوريا في السنة ١٠٥٣ وتمكن من حماية النصارى فيها[٢]. ولكنه لم يحسن السياسة في معالجة السلاجقة . فان هؤلاء الغز كانوا في اثناء القرن العاشر قد انتظموا حوالي احد زعمائهم سلجوق فتركوا مراعيهم بالقرب من بحيرة اورال ودخلوا في خدمة الغزنويين وعاونوهم في حرب الهند . ثم ثاروا على مسعود الغزنوي واستقروا في خراسان (١٠٣٨ – ١٠٤٠) بزعامة طغرل بك[٣]. وما ان شعرت قبائل التركمان الضاربة في اواسط آسية بشجاعة طغرل وعشائره حتى التفت حواليه وائتمرت اوامره . فقام طغرل بك بجموعه يهدد الخلافة وارمينية والروم . وكان من سوء طالع قسطنطين التاسع ان استبدل الخدمة العسكرية عند حدود آسية الصغرى الشرقية بضريبة سنوية فقلّ عدد الرجال في جيش الحدود ، واضطر الفسيلفس الى ان يلجأ في معالجة السلاجقة الى التكتيك نفسه الذي لجأ

١ Grousset, R., *Empire des Steppes*, 238; Ostrogorsky, G., *Gesch. des Byz. Staates*, 234-235; Dolger, F., *Regesten*, 888-890, 909.

٢ Dolger, *Regesten*, 881, 912; Vincent et Abel, *Jérusalem*, 248-259.

٣ Grousset, R., *Emp. des Steppes*, 203-205.

اليه اسلافه في دره خطر الحمدانيين اي ان يمتنع عن مقاومة الغزاة فلا يطبق بهم الا بعد ان يكونوا قد غنموا فتراجعوا خارجين . فاستعاض قسطنطين عن قلة الرجال بحنكة القادة امثال كتكالون وبحسن التدبير والتكتيك، فتمكن من الاحتفاظ بجميع ولاياته الشرقية[1].

وازداد طمع النورمنديين في ايطالية وكثر عددهم . واتخذ غيام امير سلرنو لقب دوق ابولية وكلابرية وبدأ يُقطع النورمنديين الاراضي يميناً وشمالاً . وغزا النورمنديون اراضي اوترانتو ولم يتمكن الروم من صدهم عنها ولم يبقَ بيدهم منها سوى المدن الساحلية . واستدعى الفسيلفس القائد الحاكم في ايطالية اوجيروس ليعاونه في القضاء على ثورة طورنيكيوس . وبقي ارجيروس في القسطنطينية خمس سنوات (١٠٤٦ – ١٠٥١) . ولا نعلم ماذا دار بينه وبين الفسيلفس من حديث او تبادل في الرأي . ولكننا نعلم علم اليقين ان البطريرك المسكوني ميخائيل كيرولاريوس (الشمّاع) لم يكن راضياً عن سلوك القائد الحاكم في ايطالية فمنعه مراراً عن التناول لانه سكت عن استعمال الفطير في خدمة القداس في الولايات الايطالية . وتدخل هنريكوس الثالث في شؤون ايطالية فحل في السنة ١٠٤٦ أزمة البابوات الثلاثة وأجلس اقليمس الثاني على الكرسي الرسولي . ومسح اقليمس الثاني هنريكوس الثالث امبراطوراً على ايطالية وسواها من اقاليم الغرب . وزار الامبراطور جنوبي ايطالية في اوائل السنة ١٠٤٧ فقوّى النورمنديين بان اعترف بحقهم الشرعي في الاماكن التي كانوا قد سطوا عليها . فنهج بذلك نهجاً مضراً بمصالح الروم . وعلى الرغم من تبادل عبارات الصداقة والمودة بين الفسيلفس والامبراطور في السنة ١٠٤٩ فان الفسيلفس لم يرضَ

١ *Cedrenus, G., Synopsis, II, 301-304; Schlumberger, G., op. cit., III, 543.*

عن سياسة الامبراطور في ايطالية[١].

الانشقاق العظيم: (١٥ تموز ١٠٥٤) ولم تطل مدة البابا اقليمس الثاني، فانه توفي في السنة ١٠٤٧. وعاد بندكتوس فاغتصب الكرسي الرسولي واقام عليه ثمانية أشهر. فتدخل هنريكوس الامبراطور وأجلس داماسوس الثاني (١٠٤٨) فمات مسموماً بعد ثلاثة وعشرين يوماً. وعاد بندكتوس فاستولى على الكرسي مرة خامسة. فأرسل الرومانيون وفداً الى هنريكوس فتدخل فأرسل البابا لاوون التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤). وهال البابا الجديد انحطاط الكنيسة في الغرب وتأخر احوالها، فهبّ لاصلاحها، وعقد المجامع المحلية، وقطع الاساقفة الذين استعانوا بالمال للوصول الى مراكزهم، وألغى زواج الاكليروس، وأصغى الى تذمرات الشعب بنفسه، وأنّب النورمنديين لقساوتهم وظلمهم. فأحبه الايطاليون وتعلقوا به. واستجار سكان بنفنتوم بالبابا من النورمنديين وطلبوا حمايته ورجوه ان يتولى امورهم. فرأى ان لا بد من اللجوء الى القوة. فعاد الى المانيا ليأتي بالعساكر اللازمة. فأقرّه هنريكوس الثالث على بنفنتوم. وعاد الى ايطالية على رأس قوة عسكرية فوصل اليها في اوائل السنة ١٠٥٣. وكان قد حالف أرجيروس الحاكم البيزنطي على شروط نجهلها، فلما وصل الى ميدان القتال وجد ان ارجيروس كان قد قاتل منفرداً وانه غلب على أمره. فاضطر البابا لاوون ان يقاتل منفرداً ايضاً. فدارت الدائرة عليه عند سفح جبل غرغانو ووقع في الاسر في السابع عشر من حزيران سنة ١٠٥٣. وبقي مأسوراً في بنفنتوم نفسها حتى اذار السنة ١٠٥٤، ثم عاد الى رومة وتوفي فيها في التاسع عشر

١ *Gay, J., Italie Méridionale, 475-477; Chalandon, F., Domination Normande en Italie, 113-115; Bréhier, L., Byzance, 260 261.*

من نيسان من هذه السنة نفسها[1].

وأدى اهتمام لاوون التاسع بالكنيسة واندفاعه في سبيل اصلاحها الى تثبيت السلطة فيها وتدعيمها. وكان يعاونه في هذا الاصلاح رهبان كلوني. وكثر عدد هؤلاء في ايطالية الجنوبية وتسربوا الى المقاطعات البيزنطية والى الابرشيات الخمس التي كانت تابعة لكرسي القسطنطينية. وكان هنريكوس الثالث امبراطور الغرب يعطف كثيراً على هؤلاء الرهبان ويؤيد حركتهم. وكان هو الذي انتقى البابا لاوون التاسع وأجلسه على كرسي رومة[2]. وكان كرسي رومة هو الذي نفذ فكرة الامبراطورية الغربية كما سبق ان أشرنا. فكان من الطبيعي جداً ان تنظر القسطنطينية بفسيلفسها وبطريركها بعين الريب والحذر الى برنامج كلوني ولاوون التاسع فلا تفصلهما عن سياسة هنريكوس الامبراطور ومطامعه في ايطالية[3].

فكتب البطريرك المسكوني ميخائيل في ايلول سنة ١٠٥٣ بالاشتراك مع لاوون متروبوليت اوخريدة الى رئيس اساقفة تراني (اوترانتو) ينبهه على حفظ التعاليم الارثوذكسية في الابرشيات الخمس التابعة لسلطته فيتجنب استعمال الفطير وصوم السبت واكل الدم والمخنوق. وأوضح له اوجه الخطأ في هذه، ورغب اليه ان يطلع اساقفة الغرب على موضوع هذه الرسالة وفحواها. فلما وصلت الرسالة الى يوحنا رئيس اساقفة تراني كان عنده الكردينال هومبرت! فلما وقف الكردينال على رسالة البطريرك المسكوني ترجمها حالاً الى اللاتينية وحملها الى البابا لاوون التاسع.

١ *Fliche et Martin, Hist. de l'Eglise, VII, 98 ff. Gay, J., op. cit., 477-487; Bréhier, L., Byzance, 261-262.*

٢ *Halphen, L., Essor de l'Europe, 24-26.*

٣ *Vasiliev, A. A., Byz., Emp. 337-339.*

فاجاب لاوون التاسع عن هذه الرسالة برسالة طويلة أوضح فيها رغبته في السلام والوفاق الروحاني ولكنه ضمنها بعض العبارات القاسية وأردفها بنسخة عن منحة قسطنطين Donatio Constantini مبيناً حقه في السلطة على ايطالية وكنائسها وعلى الكنائس الشرقية. ولا يخفى ان منحة قسطنطين هذه وثيقة مزورة لا تمت الى قسطنطين الكبير بصلة وانما دُبّرت في رومة في منتصف القرن الثامن لتقوي مطالبة رومة بالسلطة المطلقة على جميع الكنائس. وتزوير هذه الوثيقة أمر مسلم به اليوم في الاوساط الشرقية والغربية[1].

فامتعض البطريرك والفسيلفس وازدادا تثبتاً من مطامع هنريكوس ولاوون في ممتلكات الروم في ايطالية ومطالبتهما بالسيادة الزمنية والروحية على هذا الجزء من الامبراطورية الشرقية. وعلى الرغم من هذا كله فان الفسيلفس والبطريرك رأيا ان المحافظة على السلام افضل من خرقه لان النورمنديين آنئذٍ كانوا يهددون جنوبي ايطالية واليونان. فجاوب كل منهما جواباً رقيقاً وطلب الفسيلفس الى البابا ان يرسل وفداً الى القسطنطينية للتفاوض في الوفاق. فأرسل البابا وفداً مؤلفاً من الكردينال هومبرت ورئيس الاساقفة بطرس والكنكيلاريوس فريديركوس. وارسل معهم رسالة الى الفسيلفس ورسالة الى البطريرك. وفي الرسالة الى الفسيلفس ذكر البابا الخراب العظيم الذي لحق بجنوبي ايطالية من جراء اعمال النورمنديين وعلق آماله على مساعدة الفسيلفس والامبراطور. ثم طالب بابرشيات بلغارية وايليرية وايطالية السفلى، وذكّر بسلطة الكرسي الروماني. وفي رسالته الى البطريرك اتهمه بانه رقي الكرسي البطريركي دون ان يرقى

[1] Leclercq, H., Constanin, Dict. d'Arch. Chrét. et de Liturg., III, 2676-2683.

كل الدرجات الكنائسية ، وانـــه يرغب في اخضاع كرسي انطاكية والاسكندرية ، ووبخه على كتابته ضد بعض ممارسات الكنيسة الرومانية .

ووصل الوفد البابوي الى القسطنطينية ومثـل امام الفسيلفس فسلّم الكردينال رسالة البابا وأرفقها برسالة منه رد فيها على انتقادات البطريرك ميخائيل وادعى على الكنيسة الارثوذكسية بانها تعيد معمودية اللاتين ولا تعمد الاطفال قبل اليوم الثامن ، وانها تناول الشركة المقدسة بملعقة من ذهب ، وانها تدفن في الارض ما يبقى منها او تحرقه ، وانها لا تناول المؤمنين جسد الرب ودمه كلًا على حدة .

ويستدل من المراجع اليونانية ان الكردينال هومبرت كان ينقصه شيء كثير من اللطف والوداعة والكياسة وانه دخل على البطريرك المسكوني دخولاً فظاً غريباً فلم يحنِ رأسه له ولم يقدم القبلة السلامية بل دفع اليه برسالة البابا دفعاً وان البطريرك بعـد ان اطلع على الرسالة ظن ان لأرجيروس يداً فيها وانها ربما لم تكن صحيحة . وتدل المراجع اليونانية ايضاً على ان البطريرك لم يقطع الشركة مع اعضاء الوفد البابوي حالاً بل بعد ما رأى من اصرارهم . فرفض مواجهتهم ومنعهم من اقامة الخدمـة في ابرشيته وافادهم ان المسألة يجب ان تعرض على الكنيسة الجامعة في مجمع مسكوني .

فطار رشد الكردينال فكتب بالاتفاق مع زميليه الآخرين حرماً ضد البطريرك المسكوني وضد كل من يوافقه . وفي الخامس عشر من تموز سنة ١٠٥٤ دخل رجال الوفد البابوي الى كنيسة الحكمة الالهية واتجهوا نحو الهيكل فدخلوا اليه والقداس قائم ووضعوا الحرم على المذبح تحت الانجيل وبحضور الاكليروس والبطريرك . ثم خرجوا وهم يقولون : الرب يحكم فيما بيننا وبينكم . ولم يحرك البطريرك ساكناً وغض النظر عن التشويش الذي احدثه الوفد في الكنيسة وسمح لاعضاء الوفد بالخروج . وبعـــد

خروجهم مكثوا يومين في القسطنطينية ثم سافروا .

ومما جاءَ في هذا الحرم ما يلي : « فليُعلم اننا قد ادركنا هنا من اين لنا فرح كثير بالخير العظيم ومن اين لنا حزن شديد بالشر الجسيم ، لان المدينة بالنسبة الى اركان المملكة وأشرافها ورجالها هي في غـاية من الايمان المسيحي ومستقيمة الرأي . ولكن بالنسبة الى ميخائيل المسمى بطريركاً على سبيـل المجاز وبالنسبة الى مشاركيه في جنونه يُبذَر في وسطها كل يوم مقدار كثير جداً من زؤان الهرطقات لانهم مثـل السيمونيين يبيعون موهبة الله ، ومثل الآريوسيين يعيدون تعميد المعمدين ، ومثل الدوناتيين يتشبثون بان كنيسة المسيح والذبيحة الحقيقية والمعمودية فيما عدا كنيسة اليونان قد فقدت في كل العـالم ، ومثل النيقولائيين يسمحون لخدام المذبح المقدس بالزيجات اللحمية ، ومثل المقدونيين قطعوا من الدستور انبثاق الروح القدس من الابن .

« ونقول ان ميخائيل المسمى بطريركاً الحديث في الايمـان المتقلد اسكيم الرهبنة عن خوف بشري الذي اشتهر عند كثيرين بجرائم فظيعة ومعه لاوون المدعو اسقف اخريس ونيقيفوروس ساكيلاريوس ميخائيـل نفسه فليكونوا اناثيما ماران آثا (محرومين الرب جاء) » .

واما البطريرك المسكوني فانه بعد ان اطلع على ترجمة هذا الحرم اتصل بالفسيلفس قسطنطين التاسع . فأرسل هـذا واستدعى الوفد الى القسطنطينية بعد ان رحل عنها بيوم واحد . فعاد الوفد وأصر عـلى ما جاء في الحرم وأبى ان يواجه البطريرك او ان يمثل امام مجمع الكرسي القسطنطيني . فكتب الفسيلفس الى البطريرك المسكوني يقول : « ايهـا السيد الجزيل القداسة ، ان دولتي قد بحثت في الامر الذي حصل فوجدت أصل الشر ناشئاً من المترجم ومن ارجيروس . أما غرباء الجنس فبما انهم غرباء ومرسلون من آخرين لا نستطيع ان نعمل معهم شيئاً . وأما المسببون

فقد ضربوا ثم أرسلناهم الى قداستك لكي يؤدب بهم آخرون غيرهم حتى لا يرتكبوا مثل هذا الهذيان . أما الورقة فمن بعد حرمها هي والذين أشاروا بها والذين أصدروها والذين كتبوها والذين لهم أقل علم بعملهم اياها فلتحرق امام الجميع ، لان دولتي أمرت ان يحبس الفستارشيس صهر ارجيروس وابنه الفيستياربوس في سجن لكي يقيا فيه تحت الشدة . »
وعندئذ حرم البطريرك المسكوني الصك المذكور والذين كتبوه والذين يوافقون عليه دون ان يمس البابا او احداً غيرهم .

وكتب دومنيكوس رئيس اساقفة البندقية الى بطرس بطريرك انطاكية (١٠٥٢ – ١٠٥٧) يطلب رأيه في ما جرى وأمضى « بطريرك اكليئية » او البندقية . فلما اخذ بطرس كتابه اجابه جواباً لطيفاً ولفت نظره الى الطريقة التي وقع بها امضاءه فقال : « ما تعلمت ولا سمعت ان رئيس اكليئية يسمى بطريركاً لان النعمة الالهية دبرت ان يكون في كل العالم خمسة بطاركة وهم الروماني والقسطنطيني والاسكندري والانطاكي والاوروشليمي . ومن هؤلاء الخمسة البطريرك الانطاكي وحده يسمى بطريركاً على وجه الحقيقة ، لان الروماني والاسكندري يسميان باباوات ، والقسطنطيني والاوروشليمي رؤساء اساقفة . أوكيف نستطيع ان نقيم بطريركاً سادساً على وجه آخر ما دام الجسد ليست فيه حاسة سادسة[١] . ثم يقول بطرس البطريرك في رسالته هذه : « ان بطريرك القسطنطينية يعرف حق المعرفة انكم ارثوذكسيون وتؤمنون مثلنا بالثالوث الاقدس وبسر التجسد ، ولكنه متكدر من انكم تخالفون في مسألة الفطير وحده فلا تقدمون الذبيحة مثل البطاركة الاربعة وكل الكنيسة » .

وكتب البطريرك الانطاكي الى بطريرك القسطنطينية موجباً السلام

١ *Patrologia Graeca, CXXX, 756-760.*

والمحبة «لان الغربيين هم ايضاً اخوتنا وان كانوا يخطئون احياناً كثيرة بسبب توحشهم وجهالتهم، اذ لا يمكن لاحد ان يطلب عند البربر الكمال الذي عندنا نحن الذين منذ نعومة الاظفار نربى في مطالعة الكتب المقدسة، فيكفيهم ان يحفظوا التعليم القديم في الثالوث القدوس وسر التجسد. أما الشر العظيم المستحق الاناثيما فهو زيادة «والابن» في دستور الايمان[1].»

نهاية العهد: وتوفي قسطنطين التاسع مونوماخوس بعد هذا بقليل في الحادي عشر من كانون الثاني سنة ١٠٥٥، فنودي بالعقب الوحيد الباقي من الاسرة المقدونية ثيودورة ابنة قسطنطين الثامن الصغرى. وكانت قد قضت معظم حياتها في الدير فنشأت تقية فظة بقدر ما كانت اختها زوية متيّمة بالحب. ورأى البطريرك المسكوني ان تتزوج فتشرك معها في الحكم من كان أهلاً لذلك لاسيما وانها كانت قد ناهزت السبعين. ولكن الخصيان حولها رأوا غير ذلك ابقاءً للسلطة في يدهم. وغلب البطريرك على أمره وحكمت ثيودورة وحدها ومارست السلطة فاستقبلت السفراء وعنيت بالقوانين ووزعت العدل. وخصت الخصيان بمراتب الدولة العليا فأقصت مستشاري قسطنطين التاسع واكتفت بآراء هؤلاء ونصائحهم. فقاومها العسكريون واعوانهم وتفاقم الشر. وفي صيف السنة ١٠٥٧ أشرفت الفسيلة على الموت. فهرع الخصيان يستدركون دوام النعمة بتعيين من يركنون اليه قبل وفاة ثيودورة. فصرحت هذه وهي على فراش الموت بانها اتخذت ميخائيل استراتيوتيكوس Stratioticus

١ *Patrologia Latina, CXLIII, 1004; Labedev, A. P., Separation of The Churches; Bréhier, L., Le Schisme Oriental du XI Siècle; Gay, J., Les Papes du XI Siècle; Jugie, M., Le Schisme de Michel Cerulaire, Echos d'Orient, 1937, 440-473.*

جراسيموس، متروبوليت بيروت، الانشقاق، ج ٢، ص ٧٧ – ١٠٧.

خليفة لها . وتبنته قبل وفاتها . وماتت في الثلاثين من آب سنة ١٠٥٧ فاضطر البطريرك ان يتوّجه فسيلفساً .

ودام حكم ميخائيل السادس سنة وعشرة ايام . واشتد في اثنائه النزاع بين العسكريين والخصيان . فكان شغل الزعماء العسكريين الشاغل تحقير الفسيلفس ومعاندته . اما هو فقد كان يرد مطالبهم بانتظام . وتفجر الخصام يوم عيد الفصح في الثلاثين من آذار سنة ١٠٥٨ عندما طالب الزعماء العسكريون بالحقوق المهضومة ، فنفر الفسيلفس منهم واشتد في القول . وكانت مؤامرة وكان اصطدام عند نيقية في العشرين من آب سنة ١٠٥٨ . وتدخل البطريرك المسكوني فأرسل وفداً من المطارنة يشيرون على ميخائيل السادس بالتنازل . فسأل الفسيلفس المطارنة ماذا تعطونني بدل المملكة . فقالوا نعطيك ملكوت السموات . فرمى شعار الملك وترك البلاط والتجأ الى الدير . وتوفي بعد ذلك بقليل[١].

ولم يحسن الخصيان السياسة الخارجية فدخلت الدولة في منازعات متعبة مزعجة . ومثال ذلك ان قسطنطين التاسع كان قد حافظ على اواصر الصداقة بينه وبين الخليفة الفاطمي المستنصر ليتسنى له شيء من حرية العمل في جميع جبهات الدولة . فجاءت ثيودورة تستبدل هذه الصداقة بحلف يربط الدولتين . فأبى المستنصر ، فمنعت ثيودورة تصدير الحبوب الى مصر وسوريا ، فمنع المستنصر دخول الحجاج الى المدينة المقدسة وأمر باضطهاد النصارى[٢]. وكان طغرل بك قد أصبح زعيم بغداد بلا منازع فتطلب ان يذكر اسمه في خطبة المسجد في القسطنطينية بدلاً من اسم الخليفة

١ *Cedrenus, G., Synopsis, II, 319-311, 341-352, 365-368 ; Schlumberger, G., op. cit., III, 742, 754-756, 763-778, 785-786, 798-814.*

٢ *Wustenfeld, Gesch. der Fatimiden Kalifen, 250.*

الفاطمي[1].

فأدى هذا كله الى التعاون مع هنريكوس الثالث وعقد تحالف بين الامبراطوريتين[2].

١ Dolger, F., op. cit., 929 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 573 574.

٢ Dolger, F., op. cit., 930.

الفصل السادس والعشرون

اسس الدولة ونظمها في القرنين العاشر والحادي عشر

المسيح هو الملك : وتنصرت الحكومة وفاخرت بنصرانيتها واعتزت بها . وأصبح السيد في نظر الحكومة والشعب هو الملك . وأصبح الانجيل دستور الدولة . فكنت اذا قصدت القصر الملكي وذهبت اليــه ماشياً مترثياً تقرأ على جدران بعض البنايات المعومية العبارة « المسيح الفسيلفس » او « المسيح الامبراطور » . وقــد تسمع وانت في طريقك الى القصر جماعات يرتلون . فاذا ما اقتربوا منك وجدتهم جنوداً حاملين الصليب عالياً هاتفين : « المسيح المنتصر » . واذا مــا وصلتَ الى مداخل القصر وجدتَ فوق العتبة ايقونة مقدسة تمثل المسيح مرتدياً لباس الملك متوجاً . واذا ما تابعت السير وصرت الى داخل القصر ظننت انك في كنيسة لا في قصر ملكي . فمن ايقونة للعذراء والدة الاله حامية العاصمة ، الى ذخيرة تضم عود الصليب ، الى ايقونة عجائبية تمثل السيد مصلوباً كان قد ظفر بها يوحنا جيمسكي في اثناء مروره في بيروت ، الى زاوية مكرمة تحفظ حذاء السيد الذي وجده يوحنا هذا في جبيل ، الى المنديل الذي كان لا يزال يحمل رسم وجه السيد وقد احتفظت به الرها اكثر من تسعة قرون . وقد تقف قليلاً متأملاً مصلياً ، فيدخل القاعة رئيس اساقفة تتبعه حاشيته وقد جاءَ خصيصاً لتكريم هذه الآثار وتجديد تكريس المكان . وقــد

تكون احد اعضاء الوفود العربية المفاوضة في تبادل الاسرى فيتـاح لك الدخول الى قاعة العرش . فتجد العرش عرشين احدهما عليه الانجيـــل المقدس وهو عرش المسيح الملك والثاني لنـائبه على الارض الفسيلفس . فاذا قابلت العرش الاول او مررت من امامـه رسمت شارة الصليب وانحنيت . وقد تكون احد القضاة الزائرين فيدفعك اهتمامك بالقضاء الى الوقوف في المحكمة العليا لاستماع المرافعة وصدور الاحكام فتتذكر هناك ايضاً بان الملك للسيد المسيح ، فالقوانين والاحكام تستهل « باسم سيدنا يسوع المسيح » . وقد تكون تاجراً فتضطرك الظروف الى زيارة احد المصارف لتقبض تحويلاً مالياً معيناً ، فتَنقد الدراهم والدنانير فتجد رسم السيد المسيح على احد الوجهين[١] .

الفسيلفس نائب المسيح : ولما كان الملك الحقيقي روحاً غير منظور أصبح الملك الملموس رمزَ الملك السيد ونائبه عـلى الارض : ثوبه ثوب الايقونات ، وتاجه وصولجانه مشرّفان بالصليب المقدس . ولما كانت ثيابه هذه هبة ربانية حملها الملائكة الى قسطنطين الكبير أصبح المحل الوحيـد اللائق بحفظها هو الكنيسة . وامسى قصر الفسيلفس من حيث التخطيط وهندسة البناء وتزيين الزوايا والقبب والجدران اشبه بالكنيسة من اي بناء آخر . وأمست ابواب قاعة العرش تفتح وتغلق في اوقات معينـــة كابواب الايقونسطاس في الكنيسة . وقام العرش في حنية تشبه حنيـة الهيكل . وقضت هذه الصلة بين الفسيلفس وبين السيد الروح غير المنظور ان يظهر الفسيلفس ظهوراً على عرشه في الاستقبـالات الرسمية دون اي كلام او تبادل افكار . وتغرد الطيور الذهبية وتزأر الاسود المصطنعة ويسجد الحاضرون ثلاث سجدات . وما هي الا لحظة حتى يرتفع الفسيلفس بعرشه

١ Guerdan, R., *Vie, Grandeurs et Misères de Byzance*, 1-5.

نحو السماء فيختفي . واذا قضت الظروف بان يستقبل الفسيلفس في باسيليكة المنيورة جلس على عرشه الذهبي صامتاً مسبل الجفنين . فاذا ما رغب في شيء رفع جفنيه ونظر الى رئيس الخصيان . فتصدر اشارة عن هذا فيتم تنفيذ الامر الصادر دون كلام . وتنتهي المقابلة عندما يرسم الفسيلفس شارة الصليب فيخرج الزائرون متراجعين خاشعين . وقضت نيابة المسيح على الفسيلفس بان يشترك مع البطريرك في ممارسة بعض الطقوس الدينية . فيخرج الاثنان الى الشوارع بسحابة من البخور وموكب كبير . ويركب البطريرك حماراً ابيض ويمتطي الفسيلفس جواداً عربياً ، فيزوران في كل يوم جمعة كنيسة السيدة حامية العاصمة . وفي يوم الخميس الكبير يتفقدان العجزة في المآوى فيغسل الفسيلفس ارجل هؤلاء ويقبلها مذكراً بعمل السيد قبل الصلب[1].

ومما جاءَ في كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته (٩٠٣) انه اذا خرج الفسيلفس الى كنيسة الحكمة الالهية مشى امامه « اثنا عشر » بطريقاً وحمل هو بيده حقاً من ذهب فيه تراب . فاذا مشى خطوتين وقف ونظر الى التراب وقبّله وبكى . وما يزال يسير كذلك حتى ينتهي الى باب الكنيسة ، فيقدم رجل شيخ طشتاً وابريقاً من ذهب . فيغسل الفسيلفس يده ويقول لوزيره : اني بريء من دماء الناس كلهم . ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ويأخذ دواة بيلاطس ويجعلها في رقبة الوزير ويقول له : دنْ بالحق كما دان بيلاطس[2].

واذا دخل الفسيلفس الكنيسة ليصلي استوى على عرش خاص وأُعتبر ممسوحاً من الله لينوب عن المسيح في الارض. واستحق التناول بيده من المائدة

١ Guerdan, R., op. cit., 4-7.

٢ ابن رسته ، ص ١٢٣ - ١٢٦ .

المقدسة . ولكنه لم يرئس الكنيسة كما توهم البعض .

وكان على الفسيلفس ان يراعي هذا التقليد في حياته الخاصة ايضاً . فكان كلما انتهى من الطعام كسر الخبز وشرب الخمر . واذا ما جلس الى المائدة ، جلس حواليه اثنا عشر شخصاً . وعند كثرة الضيوف كانت تقام اثنتا عشرة مائدة . وفي ليلة عيد الميلاد ، كان عليه ان يدعو أفقر الفقراء لتناول الطعام معه . فالكل اخوان في المسيح . وكان يضيء غرفة نومه صليبٌ أخضر وعدد من الكواكب . وكان يطل عليه من فسيفساء الجدران باسيليوس الاول المقدوني وعائلته وفي ايديهم الاناجيل !

ولما كان الفسيلفس نائب المسيح على الارض كانت ارادته مطلقة وكان الشعب عباده . وكان هو مصدر جميع السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية . فهو يعين الوزراء ويعزلهم ، ويسن الشرائع ويلغيها ، ويوافق على انتخاب البطريرك المسكوني ويعزله اذا شاء . وكانت سلطته بطبيعة الحال مسكونية تشمل العالم بأسره فلا تقف عند حد من الحدود ولا يعترض عليها معترض . وأصبح البطريرك الجالس الى يمينه الثاني بعده في الدولة بطريركاً مسكونياً ايضاً له حق التقدم على سائر البطاركة بعد بطريرك رومة .

وضاقت لا بل تضاءلت صلاحيات مجلس الشيوخ مصدر السلطة في رومة القديمة ، فأضحى في هذين القرنين متفرجاً يشاهد الحوادث الجسام دون ان يشترك فيها . وأمسى الشعب بعيداً عن المشاورة ، وبات الزرق والخضر في جملة المتفرجين لا مجالس لهم ولا صلاحيات . واستبدلوا اهازيج القتال بتراتيل الصلاة ، يأتمرون باشارة الموسيقار بدلاً من سيف القائد المغوار .

البطريرك المسكوني : وجارت الكنيسةُ الدولةَ في نظمها واحكامها ، فكانت كنيسة واحدة جامعة كما كانت الامبراطورية واحدة جامعة .

وكما جاز للامبراطورية ان يكون لها امبراطوران في آن واحد ، كذلك جاز للكنيسة ان تخضع لاكثر من رأس واحد[1]. وتقبل المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) هذه النظرية فأوجب في قانونه الثاني على الاساقفة الا يتعدى احدهم على الكنائس التي تقع خارج حدود ابرشيته . وأقر في قانونه الثالث ان يكون التقدم في الكرامة لاسقف القسطنطينية بعد اسقف رومة « لكونها رومة الجديدة[2] » . ثم أقر المجمع المسكوني الرابع في قانونه الثامن والعشرين هذا التقدم في الكرامة لبطريرك القسطنطينية بعد بطريرك رومة[3]. وجاءَ يوستنيانوس الكبير يشترع فتعرف الى بطاركة خمسة في امبراطوريته : بطاركة رومة والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية واوروشليم ، واعتبرهم اساس النظام والسلطة في الكنيسة[4].

وكان هذا البطريرك في بادىء الامر ينتخب انتخاباً . وكان الشعب يشاطر الاكليروس حق الانتخاب. ثم قضى قانون يوستنيانوس الكبير بان ينتخب الاكليروس ووجهاء العاصمة ثلاثة ، فينتقي الاسقفُ المشرطن افضلَ هؤلاء للسدة البطريركية[5]. ثم حرَّم المجمعان المسكونيان النيقاوي (٧٨٧) والقسطنطيني (٨٧٠) سيامة بطريرك ينفرد اميرٌ بانتقائه ، كما حرَّما تدخل الشعب في الانتخاب . وأصبح انتخاب البطريرك بعد هذا محصوراً في مطارنة الكرسي . وجاءَ في كتاب التشريفات لقسطنطين السابع (٩١٢–٩٥٩) ان المطارنة ينتخبون ثلاثة ينتقي الفسيلفس احدهم . وبقي الحال على هذا

١ *Bréhier, L., Inst. Emp. Byz., 447.*

٢ *Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, III, 559.*

٣ *Mansi, Amplissima, VII, 428-429.*

٤ *Lingenthal, Novelles de Justinien, 109, 123, 131.*

٥ *Lingenthal, op. cit., 174.*

المنوال حتى آخر ايام الامبراطورية : المجمع ينتخب والفسيلفس يرقي[١].

وبعد هذا كان الفسيلفس يدعو اعضاء مجلس الشيوخ والمطارنة وعدداً كبيراً من رجال الاكليروس الى القصر ليقول : « ان النعمة الالهية وقدرتنا المستمدة منها تعلنان ترقية فلان الى رتبة بطريرك القسطنطينية » . ويظهر البطريرك ليتقبل تهاني الشيوخ والمطارنة . ثم يصار الى رسامته بطريركاً في الاحد التالي في كنيسة الحكمة الالهية . فيترأس حفلة الرسامة رئيس اساقفة هرقلية . ويقدم له الفسيلفس العكاز والمنديّة الارجوانية والصليب[٢]. ويدعى بعد هذا صاحب القداسة ويخاطبه المطارنة بالعبارة : « ايها السيد الفائق القداسة » ، ويوقع هكذا : « بنعمة الله رئيس اساقفة القسطنطينية رومة الجديدة وبطريرك المسكونة[٣] » . وقد سبق وأشرنا ان لقب بطريرك المسكونة ظهر في شرائع يوستنيانوس ، وان رومة لم تعترض عليه قبل ايام البابا بلاجيوس الثاني وغريغوريوس الكبير ، وان المجمع الخامس السادس أقره على الرغم من اعتراض رومة واحتجاجها[٤].

وكان البطريرك بموجب نص الاباناغوغ (٨٨٤ - ٨٨٦) صورة المسيح على الارض وراعي نفوس المؤمنين وحامي العقيدة . وكان ايضاً صاحب السلطة الروحية العليا . ولذا احيط بهالة من الاحترام فلا تمس كرامته ولا يعتدى عليه . ولما كانت الدولة والكنيسة متحدتين متفقتين كان للمقام البطريركي نفوذ كبير في شؤون الدولة ، فأصبح لزاماً عليه اذاً ان

١ *Patrologia Graeca, CXII, 1040-1048.*

٢ *Patrologia Graeca, CLV, 441-444.*

٣ *Patrologia Graeca, CVII, 403, 415-416; Laurent, Byzantion, 1929, 629-631.*

٤ *Vailhe, S., Titre de Patriarche Oecumenique, Echos d'Orient, 1908, 65-69.*

يعاون الفسيلفس في ادارة دفة الامور . فكانت الاوامر العليا والبيانات تصدر ، في بعض الظروف الهامة ، باسم الاثنين معاً . ولا يغيب عن البال انه كان على الفسيلفس ان يتسلم تاجه من يد البطريرك وفي الكنيسة وان يعلن موقفه من بعض الشؤون الهامة الى البطريرك قبل التتويج . وكان لا يتم تتويج بدونه لان الفسيلفس الحقيقي كان في عرف الشعب المسيح نفسه كما سبق ان أشرنا . وكان للبطريرك على الفسيلفس سلطة روحية . فهو عرّاب الامراء ابناء الفسيلفس ، وهو الذي يعلن شرعية ولادتهم ، وهو الذي يعقد زواج الفسيلفس والامراء[١].

الفسيلفس والكنيسة : وقال الروم بان الدولة والكنيسة شخص واحد يديره الفسيلفس والبطريرك ، وان الاول يتسلط على الجسم والثاني على الروح ، وانه لا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة[٢]. ولا يخفى ان الآباء الاولين رأوا في شخص قسطنطين الكبير الداعي الاكبر للنصرانية فمنحوه لقب « المساوي للرسل » Isapostolos وان احداً من خلفائه المسيحيين لم يتنازل عن هذه المنحة وان اساقفة المجامع المسكونية نادوا مراراً بالفسيلفس حبراً أعظم Pontifex Maximus لانهم رأوا فيه ابناً روحياً اعلى واكبر من المؤمنين العاديين . ومن هنا في الارجح نشأت هذه الامتيازات الروحية التي تمتع بها ملوك الروم في داخل الكنيسة كمنح ولي العهد اكليل الاكليروس ، والسماح للفسيلفس بالدفاع في اثناء مسحه فسيلفساً كأنه شماس ، ودخوله الى الهيكل من الباب الملوكي وتناوله الذبيحة بيده عن المائدة[٣].

١ *Dolger, F., Regesten, 823; Grummel, R. P., Regestes des Actes du Patriarcat Byzantin, I, 830; Schlumberger, G., Epopée, III, 60.*

٢ *Epanagoge, II-III; Treitinger, O., Die Ostromische Kaiser und Reichsidee, 158-159.*

٣ *Bréhier, L., Institutions, 432.*

وأدّى هذا التمسك الشديد بالنصرانية والتعصب لهـا الى انقسامات وتحزبات آلت في بعض الاحيان الى العنف والاخلال بالامن . واضطر الفسيلفس ان يتخذ موقفاً معيناً من بعض العقائد الدينية فكان يلجأ عادة الى دعوة المجامع المحلية والمسكونية فيرعاها بعنايته وينفذ مقرراتها . وكان في بعض الاحيان يفرض الحل فرضاً . فاما ان يؤيد هـذا الفريق او ذاك او ان يقترح حلاً لا يرضي هذا او ذاك كما فعل هرقل عندمـا اقترح القول بالمشيئة الواحدة[١].

وكان على الفسيلفس ايضاً ان يتدخل في شؤون الكنيسة للمحافظة على نظامها ، وتنفيذ قرارات مجامعها واصحاب السلطة فيها . فقضى احد قوانين يوستنيانوس الكبير (٥٣٥) بان يحافظ على شرف الكهنوت فيقول كلمتـه في انتقاء الكهنة والاساقفة[٢]. وقال بعض كبار رجال الناموس بوجوب ترأس الفسيلفس للمجامع ووجوب اشرافه على تنفيذ مقرراتها وتدخله لضبط سلوك الكهنة وللتثبت من صحة احكام الاساقفة[٣].

وكان للفسيلفس ايضاً ان يتدخل فيقرر بعض الاعيـاد الكنائسية الرسمية . فيوستينوس الاول (٥١٨ – ٥٢٧) هو الذي عمم الاحتفال بعيد الميلاد في الخامس والعشرين من كانون الاول . ويوستنيـانوس الكبير هو الذي ثبّت عيد دخول المسيح الى الهيكل في الثـاني من شباط[٤]. وموريقيوس (٥٨٢ – ٦٠٢) هو الذي قرر الخامس عشر من آب عيداً

١ *Bréhier, L., Institutions, 432-435.*

٢ *Lingenthal, Z., Nov. Just., 16 Mars, 535.*

٣ *Jus Graeco — Romanum, V, Responsio II; Patrologia Graeca, Balsamon, 93.*

٤ *Pargoire, Eglise Byzantine, 114; Leclercq, H, Dict. d'Arch. Chrét., XII, 910-916, XIV, 1720.*

لانتقال العذراء[١]. ويعود الفضل في الاحتفاء بعيد النبي الياس في العشرين من تموز الى باسيليوس الاول (٨٦٧ – ٨٨٦) فانه كان شديد التعلق به والتوسل اليه[٢]. وفي السنة ١١٦٦ تدخل الفسيلفس عمانوئيل كومنينوس فجعل الاعياد الكنائسية انواعاً منها ما تجب البطالة فيه طوال النهار، ومنها ما تنتهي البطالة فيه عند الانتهاء من خدمة القداس[٣].

الانجيل دستور الدولة: وقضت هذه الفلسفة الدينية السياسية بان يُعترف بقدسية الانجيل الطاهر ووجوب تطبيق احكامه. فأصبحت دولة الروم ديموقراطية في تساوي ابنائها، مطلقة مستبدة في تنفيذ مبادىء الانجيل واحكامه. فلم يبقَ فيها اي تفوق نظري لطبقة على سواها. وأصبح بامكان اوضع الرجال ان يتسنم اعلى المراتب. أولم يكن لاوون الاول لحّاماً، ويوستينوس الاول راعياً للخنازير، وفوقاس قائد مئة، ولاوون الثالث شحاذاً متسولاً، وباسيليوس الاول فلاحاً، ورومانوس ليكابينوس افّاقاً؟ أولم يُنعت قسطنطين الخامس بالزبلي، وميخائيل الثالث بالسكير، وميخائيل الخامس بالقلفاط اي نقّال البضائع؟ والفسيلسات ألم تكن احداهن خزرية، واخرى مغنية، وغيرها مروضة للدببة او عمومية؟ أولم يكن عدد كبير منهن بنات موظفين عاديين؟

وترفع الفسيلفس، عملاً بتعاليم الانجيل، عن الشموخ والتكبر فدعا الى مائدته البؤساء والمتشردين. وفتح بابه لجميع الرعايا من عباد الله يلجونه انى شاؤوا. ومما يروى عن ثيوفيلوس الفسيلفس انه خرج في يوم احد من الآحاد في موكب رسمي ممتطياً جواداً. فاعترضت سبيله بائعة سمك

١ *Dolger, F., Regesten, 147.*

٢ *Theophanes Continuatus, V, 8.*

٣ *Dolger, F., Regesten, 1466.*

وامسكت بقود الجواد وقالت : «هو لي وقد صادره احد عمالك فاعده اليّ» . فنزل ثيوفيلوس عن ظهر الجواد وقدمه لها . وتابع سيره مشياً على الاقدام ! وشخص امامه في الملعب مهرّجان وهزّ كلٌّ منهما قارباً صغيراً بيده وقال احدهما للآخر : أبلعني هذا القارب . فقال الآخر : ابداً لا يمكنني ذلك . فقال الاول : وكيف ؟ أولم يبلع مدبّر القصر مركباً بكامله محملاً بضائع ؟ فأدرك الفيلفس معنى التلميح واستدعى المدعى عليه وقابله بالمدعين . وظهر له الحق . فأمر بحرق الجاني ببزته الرسمية في الهيبوذروم .

واشتدت عناية الفيلفس والبطريرك وغيرهما بالمرضى والمصابين والعجز . فكثرت المآوى والمياتم ولاسيما المستشفيات . فانشأ الكسيوس كومنينوس (١٠٨١–١١١٨) مؤسسة خيرية اشتملت على ميتم ومأوى للعميان، ومستشفيات متنقلة للجيش ، وآوت في وقت من اوقاتها سبعة آلاف شخص . وأشهر هذه المؤسسات دير الاله القوي Pantocrator الذي انشأه يوحنا كومنينوس (١١١٨ – ١١٤٣) في عاصمة ملكه ، وفيه مستشفى للرجال ، وآخر للنساء ، وثالث للأمراض المعدية . وقد خص كل مريض بغرفة مؤثثة بسرير نظيف وفراش ووسادة ولحاف ومشط واسفنجة ومغطس وسطل ومناشف اربع وقميص ، ومبلغ من المال يوم عيد الفصح يتمكن به المريض من شراء ما يلزمه من الصابون . وكان يمرّ المفتشون في كل صباح على المرضى يصغون لتذمراتهم ويسألونهم عن الطعام . وكان بين وسائل الراحة طريقة خاصة للتدفئة . وكان يؤم المستشفى لمعالجة المرضى طبيب استاذ ورهط من طلبة الطب وعقاقيري . وكان يفاخر الاستاذ الطبيب بطريقته الخاصة في تنظيف ادوات الجراحة وتطهيرها[١].

١ *Oeconomus, L., Les Oeuvres d'Assistance et les Hopitaux Byzantins*; *Codellas, S., The Pantocrator, Bull. of Hist. of Medicine, 1942, 392-410.*

وساوت نصرانية الدولة بين الرجل والمرأة فكان للنساء شأن كبير في الحياة الاجتماعية ولاسيما بعد الزواج. وشاطرن ازواجهن السلطة في كثير من الاحيان. ولم يتناول الطعام ذيجانس اكريتاس قبل حضور والدته. وقاسى تورمارخوس بزية نقداً شديداً وأعتبرَ مسيحياً مقصراً لانه حبس زوجته في خِدْر الحريم يوم الاستقبال. وتكنى الاولاد في بعض الاحيان بامهاتهم فعائلة دلسانة تحدرت من اب اسمه شارون. ولكن والدتهم حنة دلسانة فاقت زوجها شهرة واحتراماً. ومن هنا هذه الصعوبة التي يعانيها العلماء عندما يعنون بالانساب البيزنطية. وقضى العرف بان يتظاهر الوالد بمشاركة الام باوجاع الولادة ان هو رغب في ان يسيطر على المولود فيما بعد[1]!

واهم من هذا وذاك في التدليل على تحرر المرأة عند الروم حقوق الفسيلسة زوجة الفسيلفس. فانها شاركت زوجها حق السيادة والسلطة ونيابة المسيح على الارض، وسبقته الى تقبل طاعة الشعب وولائه. فالسجود وتعفير الرؤوس بالتراب وتقديم الاعلام كانت لها وحدها قبل ان تكون للفسيلفس. وكان الشعب لدى خروجها من الكنيسة يهتف لها وحدها: «اهلاً بالاوغسطة المنتقاة من الله، اهلاً بالاوغسطة المحمية من الله، اهلاً بلابسة الارجوان، اهلاً بمحبوبة الكل». وقضى العرف بان تشترك في جميع المآدب وجميع الحفلات في القصر، وان تطل على الشعب في الحفلات العمومية. وكانت لها موازنة خاصة تتصرف بها كيف تشاء ودون استئذان الفسيلفس. ومما يروى من هذا القبيل ان ثيوفيلوس الفسيلفس رأى يوماً من نافذة القصر مركباً تجارياً فخماً يدخل الميناء. فهب لساعته الى المرفأ ليتفرج على السفينة. ولدى وصوله اليها سأل عن صاحبها فقيل له

[1] Guerdan, R., op. cit, 23.

هي الفسيلسة ! وكانت هذه السفينة محملة بضائع ثمينة استقدمتها الفسيلسة للاتجار بها . وأبهج وأغرب وأدل على مكانة الفسيلسة وحريتها واستقلالها ان ثيودورة زوجه يوستنيانوس الكبير كانت تميل الى القول بالطبيعة الواحدة فأجلست على كرسي القسطنطينية انثيميوس الشهير. ثم قضت الظروف السياسية بعزله ونفيه فاختفى . وبعد التفتيش الدقيق عنه ظُنّ انه توفي . وبعد اثني عشرة سنة توفيت ثيودورة . ودخل يوستنيانوس الى خدرها فالتقى البطريرك المعزول في خدر زوجته حياً صحيحاً[1]. وتوفي زينون الفسيلفس ، فلم تبكه ارملته في خدرها بل انتقلت فوراً الى القصر ثم الى الهيبوذروم وقامت تخطب في الشعب . فقالت ان مجلس الشيوخ والمجلس الملكي الاعلى سيجتمعان برئاستها للنظر في الولاية وسيتعاونان مع الجيش لانتقاء خلف صالح . ثم عادت الى الخطابة فقالت انها ستعنى هي بذلك ! فهتف الشعب موافقاً مؤكداً انها هي صاحبة السيادة والامبراطورية[2].

والواقع هو ان هذه الديموقراطية البيزنطية لم تكن في اي وقت من الاوقات وليدة نضج سياسي او فلسفي ، ولكنها تأتت بطبيعة الحال عن تقبل الانجيل واتخاذه دستوراً للدولة . فالدافع نفسه الذي جعل من الفسيلفس نائباً للمسيح على الارض أدى الى السعي لجعل المجتمع الارضي مماثلاً بقدر المستطاع للمجتمع الرباني . ومن هنا ايضاً هذه القسوة في العقوبات : في قطع يدي التاجر المزوّر ، وزج الخباز الذي تقاضى اكثر مما سمح به القانون في الفرن نفسه الذي كان يخبز فيه عجينه ، وحرق المدبّر المرتشي حياً في الهيبوذروم . فالقانون الهي في مصدره والخروج عليه خطيئة تستوجب نار جهنم !

١ *Guerdan, R , op. cit., 27- 28.*

٢ *Bury, J. B., Later Rom. Emp., I, 429-432.*

الدولة ومن لا يدينون بالنصرانية : وهؤلاء واحد من اثنين اما يهودي يصر على تهوده فيستحق الاذلال والتضييق او غير يهودي يجب اجتذابه وهديه . وكان اليهود قلةً لا يتجاوز عددهم الخمسة عشر الفاً . ولم يكونوا من طبقة الاغنياء . ولكنهم كانوا مصرين على تهودهم مستمسكين به . فاعتبرهم الروم احفاد اولئك الذين صلبوا السيد واضطهدوا الرسل والآباء والشهداء ، فحجبوا عنهم الثقة وانزلوا بهم الواناً من الذل والهوان. فلم تسمع لهم دعوى او شهادة على مسيحي ، ولم يقبلوا في وظائف الدولة . وحرّم عليهم الاتجار بالرقيق ، وتملك الاراضي المقدسة ، ودخول الحمامات العمومية . ووجبت عليهم ضريبة خاصة دفعوها صاغرين . وحرّم على اطبائهم ركوب الخيل وختن الاطفال النصارى ، واستحقوا الموت ان فعلوا . ومن تنصّر منهم ثم ارتد ارتكب جرماً كبيراً[1].

واما التجار والاسرى من المسلمين المقيمين في هذه الدولة المسيحية فانهم كانوا احراراً طلقاء يتمتعون بقسط وافر من الحقوق المدنية والاجتماعية . وكان لهم في عاصمة الدولة مسجد يقيمون فيه الصلاة كأنهم في بلادهم . وكان شغل الروم الشاغل اقناع هؤلاء بتقبل الدين المسيحي . فالسلطات صارحت امير اقريطش الاسير انه اذا تنصر أصبح فور تنصره عضواً في مجلس الشيوخ . ولكنه لم يفعل . وقبل ابنه النصرانية فرقي المراتب العسكرية بسرعة وقاد الروم الى النصر اكثر من مرة .

الادارة : وبقيت الادارة المركزية رومانية لاتينية في جوهرها والقابها حتى نهاية القرن السادس . فكان يحيط بالامبراطور الشرقي عدد قليل من كبار الموظفين يحملون القاب الرومانيين القدماء . ثم تشرقت الدولة فكثرت الوظائف وكثر عدد الكبار في الدولة وقلت صلاحياتهم

[1] *Guerdan, R., op. cit., 29-31.*

وصغرت ادوارهم وأمست القابهم يونانية .

وأصبح عظماء الدولة في القرنين العاشر والحادي عشر القيصر والشريف Nobilissimus ، ومارشال القصر Curopalates . وجاءَ بعد هؤلاء افراد الامرة المالكة كلٌ بلقبه ، ثم ثمانية من كبار الخصيان يتزعمهم الحاجب الاعظم Parakoimumenos . وأدار دفة الحكم خارج القصر اربعة وزراء حمل كل منهم لقب لوغوثيت Logothetes . وكان أعظم هؤلاء لوغوثيت الدروموس وبيده الامور الداخلية والخارجية وكان يدعى اللوغوثيت الاعظمَ . وجاءَ بعده لوغوثيت المالية ، ولوغوثيت الجيش ، فلوغوثيت الخاصة الملكية . وكان هنالك محاسب عام يدعى السكيلاريوس Sakillarios ووزير عدل يحمل اللقب اللاتيني القديم الكوايستور Quaestor . وخضع الجنود للدومستيكوس الاعظم Domesticus ، والبحارة للدرونغار الاعظم Drungarius . وكان يرئس حكومة العاصمة اباوخوس Eparchus ، ويدير كل ثيمة من الثيمات الثلاثين استراتيجوس عسكري Strategos [1].

الاحزاب السياسية : واختلفت الآراء في لاهوت السيد وناسوته وفي العذراء وتباينت ، فانقسم رجال الدين والشعب احزاباً وتخاصموا . فمنهم من قال بخلق الابن في الثالوث ، ومنهم من قال بمساواته للآب في الجوهر ، ومنهم من قال بالطبيعة الواحدة ، ومنهم من قال بالطبيعتين ، ومنهم من قال بالمشيئة الواحدة ، ومنهم من قال بالمشيئتين ، ومنهم من كرَّم الايقونات ، ومنهم من حرَّمها ، وما الى ذلك من اختلافات لاهوتية نشأت عن هذه المحاولة الاساسية لجعل الدولة تتفق قدر المستطاع والوضع الذي يريده لها السيد المخلص ملكها وراعيها . وهكذا فانك

١ *Bury, J.B., The Emperial Adm. System; Benesevic, Die Byz. Ranglisten Nach dem Kletorologion Philothei; Bréhier, L., Institutions, 89-165.*

كنت ترى وتسمع الجدل في اللاهوت أنى وجدت ، ان في الحانات والخمارات ، او في الملاهي والملاعب ، او في المشاغل والمصانع ، او في القصور والمجالس ، او في الاديرة والكنائس . فالبيزنطي لم يكن ذاك التقي الضجور الذي لا يرى في هذه الدنيا الا حياة فانية يتبرم بطولها وينتظر نهايتها للتخلص من متاعبها ومشكلاتها ، وانما كان تقياً متحمساً مندفعاً في سبيل تطبيق الدين القويم قدر المستطاع ليرث ملكوت السموات .

نزاع الطبقات : والغريب المستغرب الا يكون هذا الاستمساك الشديد بالانجيل قد اثر في نفوس الافراد . فهذه الدولة المسيحية المتطرفة في مسيحيتها عانت نزاعاً شديداً وغيظاً متطايراً وحقداً ضغوناً بين الفقراء والاغنياء . ولم يدر هذا النزاع ، كما هي الحالة بيننا اليوم ، على مثال اعلى يعترف بصحته الطرفان ويحاول كل منهما ان يقنع الآخر بان الوصول اليه هو عن هذه الطريق لا تلك . وانما كان نزاعاً فجّاً حاول فيه القوي ان يبتلع الضعيف ابتلاعاً . ولم يقم هذا النزاع في المصانع وبين المداخن ، وانما دارت رحاه في الحقول الباسمة والمراعي الضاحكة في الريف لا في المدن . فالمزارع الصغير كان يقاسي الامرّين من الحروب الطاحنة والغزوات الخاربة والضرائب الفادحة والوسائل الزراعية الغاشمة . وكان جاره الكبير الطامع كبيراً في المال والجاه والنفوذ . ومما زاد في الطين بلة ان العرف السياسي في الدولة قضى بان يتربع المزارع الكبير على كراسي الحكم وان يسعى كل موظف كبير الى استملاك الاراضي .

وأدى هذا التكالب على المراعي والمزارع الى الغش والخداع . فقد يعرض مزارع كبير على جار فقير استكراء ارضه لقاء مبلغ معين من المال يغريه به . فيقبل الفقير وتتم الصفقة ثم يمتنع المزارع الكبير عن الدفع فيلجأ الفقير الى القضاء . فيمتطي الكبير جواده ويهدد ويعربد ويستخف بادعاء جاره ويؤكد ان الملك له وان مثله لا يلجأ الى فقير يستكري

ارضه . واذا اضطر ابتاع ضمير القاضي . وقد تمحل المواسم فيدسُّ هذا الطامع الكبير عمـلاءَه بين جيرانه الفقراء يزيّنون لهم بيع املاكهم ، فيبيعونها بابخس الاثمان . وقد يشرف فقير ضعيف على الموت ولا وريث له ، فيطل عليه احد اخصاء جاره الكبير يسأل عنـه ويقدم له المعونة والهدايا ثم ينصح له ان يتبنى جاره الغني العظيم . فتأخذ الفقير العاطفة وتعتريه موجة من الكبرياء فيرضى . وقد يلجأ الكبير القوي الى الاحتيال ، فيحيط هذا المريض المحتضر برجاله فيشهدون لدى وفـاته بانه اوصى بممتلكاته الى جاره الكبير . وكان القانون البيزنطي يجيز الوصية امام شهود ثلاثة . وقد يستهوي الكبير الطامع جابي الضرائب فينقده شيئاً من النقد ليتطلب من فريسة اخرى اكثر بكثير مما يجب فيقضي على معنويات هذا المزارع الفقير ويمهد الطريق لجاره الغني القوي كي يستولي على املاكه .

ولا نجد كبار الرهبان أقل جشعاً من هؤلاء المزارعين الاقوياء . فانهم رغبوا في الدنيا بقدر ما كان يجب عليهم ان يزهدوا فيها . وتعدوا على حقوق الجيران الفقراء فوسعوا حدود الاوقاف على حسابهم واستولوا في بعض الاحيان على المواشي وعلى الخيل والجمال . وعاشوا عيشة هناء ورخاء . ودعوا لرهبانياتهم فتزايد عدد الرهبان تزايداً مخيفاً . فافرغوا الحقول من اليد العاملة وقطعوا عن صندوق الخزينة العامة دخلاً كبيراً .

وتضاءلت الطبقة المتوسطة في الارياف ، وازداد الاقوياء قوة والضعفاء ضعفاً ، وقلت الثقة بالحكومة . وافظع ما هنالك ان نجاح الاقوياء في ابتلاع الضعفاء المدنيين شجع اولئك على مد الايدي الى مزارع العسكريين الذين كانوا قد أقطعوا الاراضي ليعيشوا منها ويتسلحوا بدخولها .

وهبت الحكومة المركزية تعالج هذه المشكلات ، فمنعت الكبار بادىء ذي بدء من الاستفادة من ديون هي موضع جدل وخصام بينهم وبين الصغار . ومنعت هؤلاء عن وضع شعائر الكبار على ابواب بيوتهم ما دامت

هذه البيوت او الحقول موضع خصام بينهم وبين كبير قوي . وأصدرت الحكومة في القرن التاسع ، كما سبق وأشرنا في حينه ، قوانين ثلاثة منعت بموجبها انتقال الملكية من ضعيف الى قوي بالتبني او الهبة او الوصية ، كما حرّمت بيع املاك الضعفاء وتأجيرها . وألغت كذلك مفعول مرور الزمن في جميع هذه الحالات ، فجمّدت بذلك كل علاقة من هذا النوع بين الفريقين[١] .

وعلى الرغم من هذا كله فان هؤلاء الكبار Dunatoi ما فتئوا يطاردون الصغار Penes حتى فسّخوا الدولة تفسيخاً وقضوا على معنوياتها ودفاعها .

الدولة ورجال الصناعة : وفي الوقت الذي كان فيه الفلاح الصغير يعاني هذه المتاعب والمصاعب كان الصانع في المدن منهمكاً في اشغاله ميسوراً . فدولة الروم لم تعرف عهداً في تاريخها زهت فيه الصناعة والتجارة زهوهما في هذين القرنين . ولم تكن القسطنطينية في اي وقت من اوقاتها اكثر نتاجاً وأوفر ربحاً . وأصبحت بوفرة مالها وحذق صناعها امّ المال والذهب والفن والعجائب للعالم اجمع . وقصدها أمهر الصنّاع وأطمع التجار من سواحل البلطيق حتى الاسود والادرياتيكي ، ومن ارمينية والقوقاس حتى اسبانية والبرتغال . وتغنى بذخها وثروتها امراء الاقطاع في الغرب المسيحي وأسياد السياسة في الشرق الاسلامي .

ويستدل من وثيقة ترقى الى عهد لاوون السادس سمّاها رجال الاختصاص « كتاب البرايفكتوس » (حاكم العاصمة) انه علاوة على البقالين واللحامين والخبازين والبنائين والنحاتين والرخامين والنجارين والحدادين والخياطين

١ *Vasiliev, A.A., On The Question of Byzantine, Feudalism, Byzantione, 1933, 584-604; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 523-531.*

والرسامين ، كان هنالك طبقة من التجار والصنّاع يعنون بنسج الحرير وصبغه وتزيينه بالرسوم وبالفضة والذهب ، وان هؤلاء أدهشوا العالم بدقة صنعهم ومهارتهم ، فجمعوا اموالاً طـائلة ، وجعلوا من القسطنطينية ، ومن ثيسالونيكية وثيبة وكورونثوس وبتراس ، قبلةَ انظـار أهل البذخ والترف في الشرق وفي الغرب معاً . ويستدل من هذه الوثيقة ايضاً ان صناعة الروائح الطيبة لم تقل شأناً عن صناعة الحرير ، وان رجالها توصلوا الى درجة من الرقي مكنتهم من بسط بضاعتهم في كنف القصر نفسه « وان روائحهم الطيبة التي تصاعدت كالبخور الى ايقونة المسيح فوق باب خلقة عطرت جو هذا المدخل الفخم[١] » .

ولمست الحكومة اهمية هذه الصناعات فضبطت احوالها وأخفت اسرارها وراقبتها مراقبة شديدة . فحددت مدى اختصاص كل حرفة ، وعينت شروط الانتماء اليها ، وحددت عدد الصناع فيها ، ونوع النتاج وكميته ، ومقدار الاجور . ودققت في قيودها وحساباتها وموازينها . ونهت عن الغش في الصنع وأنزلت بالمرتكب عقاباً صارماً . ثم حمت هذه الصناعات من مزاحمة الاجانب فحددت الاستيراد او منعته كما جاءَ في كتاب البرايفكتوس عن صابون مرسيلية .

١ *Andreades, Byzance, Paradis du Monopole et du Privilège, Byzantion, 1934.*

الفصل السابع والعشرون

الآداب والفنون في عهد الاسرة المقدونية

مميزات آداب هذا العصر : وكان قد انسلخ عن الدولة عدد من العناصر غير اليونانية ومعظم من خرج على تعاليم المجامع المسكونية فطغت اليونانية بعنصرها ولغتها وفكرها وبدت الدولة متجانسة اكثر بكثير من ذي قبل . ونزع القوم الى لغة الاجداد وعلومها وآدابها ، فتميز هذا العصر بالعودة الى المخلفات الهلينية الكلاسيكية . فكانت يقظة في عالم الفكر والفن ادت بنتائجها الى عصر اليقظة والنهضة في ايطالية فسائر انحاء اوروبة. وفاخر ادباء القسطنطينية بمجموعاتهم الادبية واستنسخوا المراجع الكلاسيكية اليونانية الكبرى وتباحثوا فيها كما يستدل من مصنف البطريرك فوطيوس العظيم الـ Myriobiblion وقد سبقت الاشارة اليه فلتراجع في محلها . وعرف جميع المثقفين هوميروس وبنذار وارستوفانس وافلاطون وارسطو وبلوتارخوس وليبانيوس وثوقيذيذس وبوليبيوس وغيرهم . واصبحت الآداب اليونانية الكلاسيكية ، نحوها وبيانها ونصوصها ، اساس التهذيب البيزنطي . واعيدت جامعة القسطنطينية الى سابق عهدها وزهت مدرسة الحقوق فيها ، وقام عدد من كبار الاطباء يبحثون كسلفائهم من قبل .

ومن مميزات هذه النهضة الفكرية الادبية ان رجالها آثروا الاحاطة في المقام الاول فمالوا نحو التوسع والموسوعات . وهي خطوة لازمة لكل

نهضة في بدء عهدها . ومن هنا مجموعات القرن العاشر في القانون ، ومن هنا ايضاً مجموعة الاكسربتة Excerpta التي أشار بتصنيفها قسطنطين السابع خدمة للتاريخ والمؤرخين ، فجاءت في ثلاثة وخمسين كتاباً . واعيد النظر في كل ما سبق تأليفه في العصور الغابرة لاستخلاص النافع منه في الحياة العملية فظهرت رسالة السفراء ، ورسالة الفضائل والرذائل ، ورسالة التآمر ، ورسالة الفتوحات . وصنفت رسالة في الزراعة Geoponica ، وفي الطب Iatrica [١]. ومما تجب ملاحظته في هذا الباب انه قام في هذا العهد ، بالاضافة الى هؤلاء المنقبين عن الماضي الناقلين عن غيرهم ، عددٌ من العلماء الباحثين المجددين وفي طليعة هؤلاء البطريرك فوطيوس ، والاستاذ المربي ميخائيل بسلوس . فالاول اضاف الى ما تحلى به من سعة اطلاع وتفوق في الانشاء جرأة لا بل جسارةً في التفكير الحر المستقل يغبطه عليها كل من أطلع على رسائله . والثاني كان ألمع أهل زمانه وأشدهم رغبة في الاطلاع واكثرهم تجدداً [٢].

ومما تجب اعادته هنا هو عطف لاوون السادس « الحكيم » على معلمه البطريرك فوطيوس وحمايته لعلمه وتفكيره واستعداده لتشجيع جميع العلماء . وقد قيل ان القصر في عهده تحول الى معهد علمي [٣]. وجاء قسطنطين السابع فألف وشجع غيره على التأليف .

المؤلفون والمؤلفات : وأهم مؤلفات قسطنطين السابع سيرة جده باسيليوس الاول وارشاداته في ادارة الدولة وقد دونها خصيصاً لابنه ووريثه ، ورسالته في الثيات ، وكتابه في التشريفات ، ووصفه لكيفية

١ *Rambaud, A , Empire Grec au Dixième Siècle, 50 ff.*

٢ *Rambaud, A., Etudes, 108-171 ; Diehl, C., Figures Byzantines, I, 291-316.*

٣ *Popov, N., Leo VI, 232.*

نقل المنديل المقدس من الرها الى القسطنطينية .

وبين المؤلفين الذين كتبوا في ظل قسطنطين السابع يوسف غناسيوس Genesius الذي دوّن اخبار لاوون الخامس ولاوون السادس (٨١٣ – ٨٨٦) . وبين الموسوعات التي اعدت في كنف هذا الفيلفس اخبار القديسين لسمعان متافراستس Metaphrastes ، وقاموس سويداس Suidas . وهو مؤلف نفيس كثير الفائدة يبين معاني المفردات واسماء الاشخاص والاشياء[١].

وفي طليعة رجال العلم في القرن العاشر البطريرك نيقولاووس ميستيكوس. فقد خلف مئة وخمسين رسالة وجهها الى امير اقريطش العربي ، وسمعان البلغاري ، وروманوس ليكابينوس، وعدد من الباباوات والاساقفة والرهبان . ومما جاءَ في رسالته الى امير اقريطش قوله : « الروم والعرب أعظم قوتين في العالم يعلوان ويتألقان كالشمس والقمر في السماء . ولذا يجب ان نعيش إخوة على الرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين » .

وعاصر باسيليوس الثاني لاوون الشماس وشاهد حوادث الحرب البلغارية ، فكتب عشرة كتب في حوادث السنوات (٩٥٩ – ٩٧٥) ، وذكر اشياء عن الحرب العربية . وآثاره مفيدة جداً لتاريخ نيقيفوروس فوقاس ويوحنا جيمسكي لانه المرجع اليوناني المعاصر الوحيد . ومن أشهر مؤرخي القرن العاشر مؤلفان مجهولان احدهما أكمل تاريخ ثيوفانس والآخر ذيّل تاريخ هامارتولوس[٢]. وبين هؤلاء ايضاً لاوون النحوي وسمعان المايستر واللوغوثيت[٣].

وقارب القرن العاشر النهاية وتعددت الحروب ورافقها نصر مبين ،

١ *Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Litt., 568.*

٢ *Shestakov, S. P., Continuation of Theophanes, (Congrès International des Etudes Byzantines, 1929).*

٣ *Leo the Grammarian, Symeon Magister, (Corpus Script. Hist. Byz.)*

فتعنى الناس بالحرب وتضاءلت عنايتهم بالعلم . ومن هنا قول حنة كومنينة في القرن الثاني عشر ان معظم الناس أعرضوا عن العلم في الفترة بين عهد باسيليوس الثـــاني وعهد قسطنطين مونوماخوس ، وانه لم يبقَ من يعنى به سوى افراد قلائل سهروا الليالي في طلب المعرفة على ضوء القناديل[1].

وفي منتصف القرن الحادي عشر عاد بعض كبار العلماء وفي طليعتهم ميخائيل بسلوس الى المطالبة بتشجيع العلم والعطف عليه ، فكان لكلامهم وقع في نفس الفسيلفس قسطنطين مونوماخوس فوعد خيراً ، فانقسموا فئتين ، فئة تطالب بانشاء مدرسة للفلسفة بزعامة بسلوس نفسه ، وفئة تطالب بمدرسة للحقوق . واشتد الجدل في هـــذا الموضوع ووصل الى الشارع . فحقق الفسيلفس طلبتهم في السنة ١٠٤٥ بانشاء مدرسة للحقوق ومدرسة للفلسفة[2].

واشتهر ميخائيل بسلوس برسائله وبمؤلفاته في اللاهوت والفلسفة ولاسيما فلسفة افلاطون ، وفي العلوم الطبيعية ، وفقه اللغة ، والتاريخ . ويعتبر تاريخه افضل المراجع لتاريخ القرن الحادي عشر[3].

ويرى رجال الاختصاص ان القصائد الحماسية والاهازيج الشعبية تطورت تطوراً سريعاً في العصر المقدوني فتألقت بانتصارات الاسرة المقدونيـــة واعتزت بعزها . وهم يرون ايضاً ان القتال المتواصل في الجبهات الشرقية الجنوبية فسح في المجال للمغامرات الحربية وللبسالة الفردية ، فهزّ الشعراء ورجال الزجل هزاً ودفع بهم الى النظم والمفاخرة . وأشهر ما ينسب الى هذه الفترة ملحمة باسيليوس ديجينس اكريتس . وديجينس digenes لفظ يوناني معناه المولود من شعبين . فوالد باسيليوس كان عربياً مسلماً وامه

١ Anna Comnena, Alexias, V, 8; Buckler, G., Anna Comnena, 262.

٢ Fuchs, F., Hohern Schulen von Konstantinopel, 24-25.

٣ Psellus, Michael, Chronographia, Bibliotheca Graeca Medii Aevi, IV; French Translation by E. Renaud, in 2 vols., Paris, 1926-1927.

رومية مسيحية. وأكريتس akrites لفظ يوناني ايضاً معناه الذي ينتسب الى حدود الدولة. وباسيليوس هذا قضى معظم حياته في منـاطق الحدود محارباً العرب مغامراً منتصراً. وقد حفظت لنا ملحمته دوافع القتال والاستماتة (فهي في نظره الدفاع عن الارثوذكسية وعن الروم) كما خلدت صوراً رائعة لقلاع أسياد البر وقصورهم في آسية الصغرى[١]. ولا يزال ابناء قبرص يتغنون بامجاد باسيليوس حتى يومنا هذا، كما لا يزال ابناء طرابزون يشيرون الى مثواه ويؤكدون ان زيارة قبره تحمي الصغار من الارواح الشريرة. ولا يزال بعض رجال الاختصاص يتابعون البحث في تاريخ هذه الملحمة. وهم يميلون الى الاعتقاد بانها نشأت اولاً حول مغامرات ديجينس في الحروب العربية في اواخر القرن الثامن، ثم تطورت فازدهرت بامجاد الاسرة المقدونية. ويرون علاقة متينة بينها وبين قصة بطّال غازي التركية وبعض نواحي الف ليلة وليلة العربيـة[٢]. ويلمس المؤرخ الروسي كرمزين صلة وثيقة بين هذه الملحمة وبعض اساطير الروس القديمة[٣].

بقي علينا ان نشير الى مؤلَّفين مفيدين خلفهما ميخائيل أتالياتس Attaliates اولهما يتضمن حوادث السنوات ١٠٣٤ حتى ١٠٧٩، وفيـه وصف دقيق لما جرى في اواخر عهد المقدونيين، وهو مبني الى حـد كبير على الخبرة الشخصية. والثـاني موجز في الحقوق وضعه أتالياتس للمحامين وغيرهم ممن يرغب في الاطلاع[٤].

الفن وآثاره: ويرى رجـال الفن ان العصر المقدوني هو العصر

١ Bury, J. B., *Romances Chivalry on Greek Soil*, 18-19.

٢ Grégoire, H., *Autour Digenes Akritas*, *Byzantion*, 1931, 481-508, 1932, 287-320.

٣ Pascal, P., *Le Digenis Slave*, *Byzantion*, 1935, 301-334.

٤ Vasiliev, A.A., *Byz. Emp.*, 371.

الذهبي الثاني في تاريخ الفن عند الروم . والعصر الذهبي الاول في عرفهم هو عصر يوستنيانوس الكبير . ويقولون انه بعد ان حرر محاربو الايقونات الفن البيزنطي من قيود رجال الاكليروس والرهبان تطور تطوراً سريعاً في انتقاء مواضيعه من خارج الكنائس والاديار ، فعاد الى الطبيعة والى مخلفات العصر الهليني والى فن الزخرف العربي . وجاء العصر المقدوني بتعلقه بالمخلفات الكلاسيكية والهلينية ، فازداد رجال الفن فيه اكباراً للماضي البعيد واستيحاءً منه[١]. ولم يكتفوا بهذا الوحي ولم ينقلوا نقلاً بل اضافوا الى جمال المظهر الهليني ولطفه شيئاً كثيراً من قوة العصر الكلاسيكي السابق وجدّه . واسبغوا عليه شيئاً من الهيبة والتركيز والتوازن والنقاء والصفاء فأصبح بيزنطياً بكل معنى الكلمة[٢].

وذهب الفنان المؤرخ النمساوي استرجيكوفسكي مذهباً خاصاً لا يقره عليه معظم زملائه . فهو يرى ان وصول الاسرة المقدونية الارمنية الاصل الى الحكم جرّ وراءه اقبالاً على الفن الارمني وتأثراً به . ويرى بعبارة اخرى ان العلاقة الظاهرة بين الفن البيزنطي والفن الارمني التي عزاها المؤرخون الى اثر بيزنطة في ارمينية هي في الحقيقة اثر ارمينية في بيزنطة[٣].

وقام في القسطنطينية في عهد هذه الاسرة المقدونية من برّز في تصوير الايقونات وتزيين جدران الكنائس ، فأخرج عدداً كبيراً جداً من الايقونات وصدّرها الى سائر انحاء الامبراطورية . وعني رجال الفن ايضاً بتزيين المخطوطات بالصور الملونة المذهبة .

١ **Diehl**, C., *Monde Oriental*, 516-517.

٢ **Dalton**, O. M., *East Christian Art*, 17-18.

٣ **Strzygowski**, J., *Die Baukunst der Armenier und Europa*; **Diehl**, C., *Art Byzantin*, I, 476-478.

الباب التاسع

تأخر الدولة وانحطاطها

(١٠٥٧ – ١٢٠٤)

•

الفصل الثامن والعشرون

الفوضى والفتن الداخلية

(١٠٥٧ – ١٠٨١)

وتوفيت ثيودورة وانقطعت سلالة باسيليوس الاول مؤسس الامرة المقدونية . وكان خلفها ميخائيل السادس قد أصبح هرماً كبير السن . وكان لا يزال في صفوف الجيش وخارجها عدد من القادة الطامعين . فنشبت مشادة عنيفة بين كبار المدنيين في القصر وبين هؤلاء العسكريين . وقبل ان تنتهي السنة الاولى من حكم ميخائيل السادس دبّر العسكريون مؤامرة لخلع ميخائيل . فوصل الى عرش رومة الجديدة اسحق كومنينوس زعيم العسكريين .

اسحق كومنينوس : (١٠٥٧ – ١٠٥٩) وانتسب الكومنينيون الى قرية كومنة في ضواحي ادرنة . واشتهر والد اسحق ايروتيكوس في

دفاعه عن نيقية ضد هجمات برداس اسكليروس في السنة ٩٧٨ وذلك في عهد باسيليوس الثاني ، فاكتسب ارضين واسعة في آسية الصغرى مكنته من الدخول في عداد الاوستوقراطيين العسكريين[١]. وانتصر العسكريون بوصول اسحق الى العرش واستوائه عليه . ووزع الفسيلفس الجديد المكافآت على من عاونه في الوصول ، وأمر بتمثيله ممتشقاً حسامه على العملة التي سُكت باسمه دلالة على انتصار العسكريين[٢]. ولكنه لم يتمكن من الاحتفاظ بالسلطة اكثر من سنتين .

وأصيب اسحق في السنة الاولى من حكمه بالمرض . وجوبه بخزينة خاوية فلجأ الى الاقتصاد ولم يستثن منه احداً ، فأغضب الشيوخ والشعب والجيش والرهبان . وكان في بداية عهده قد كافأ البطريرك المسكوني ميخائيل لاشتراكه في ازاحة الفسيلفس السابق ميخائيل السادس استراتيوتيكوس عن العرش فمنحه الحق في ان ينتقي ويعين ايكونوموس كنيسة الحكمة الالهية (اي مدبر املاكها) ، وامين الاواني الكنائسية فيها (اسكيفوفيلاكس) . وكان البطريرك قد طلب ذلك من ثيودورة وميخائيل السادس فلم يفلح[٣]. وظن البطريرك انه سيتمكن من ارشاد الفسيلفس وتوجيهه . ولكن اسحق تقبل هذا الارشاد بشيء من الفتور في اول الامر ثم ردَّ ما جاءَ من نوعه بعدئذٍ . فنشأ شيء من البغض بين الاثنين ما لبث ان تحوَّل الى عداء . وسرعان ما أخذ البطريرك يهدد الفسيلفس ثم احتذى الحذاء الارجواني ، وادعى ان الاحتذاء بالارجواني حق قديم من حقوق السدة

١ *Cedrenus, G., Synopsis Historion, II, 353.*

٢ *Sabatier, Monnaies Byzantines, II, 162; Ostrogorski, G., Gesch. des Byz. Staates, 238-239.*

٣ *Dolger, F., Regesten, 938, Sept., 1, 1057; Cedrenus, G., Synopsis Historion, II, 353.*

البطريركية[1]. وكان الاقدام على الاحتذاء بالارجواني في عرف الروم آنئذٍ اول دليل على الطمع في السلطة العليا[2]. وفي الثامن من تشرين الثاني حين كان البطريرك متوجهاً مع اخصائه ليخدم القداس في دير الملائكة ألقى الفسيلفس القبض عليه ونفاه مع اولاد اخيه الى جزيرة ايمبرس. وهاج الشعب وطلب ارجاع البطريرك. فاستحضره الفسيلفس وجمع مجمعاً وطلب محاكمته لانه عطف على راهبين كانا يتعاطيان الشعوذة، ولانه كان يقرأ أشعار الشعراء وقت الخدمة، ولانه ايضاً ثار على الفسيلفس السابق. ولم يحر البطريرك جواباً عن شيء من هذا. وقام في النهاية وسامح الفسيلفس والقضاة، ودعا للشعب ولاعدائه، وسقط ميتاً وهو يقول: «السلام لجميعكم» مشيراً بيده اليمنى اشارة البركة. فأمر الفسيلفس بدفنه بحفاوة فائقة في دير الملائكة واشترك بنفسه في تشييع الجثمان[2]. ورقي الكرمي المسكوني بعده قسطنطين الثالث (ليخوذي). ومرض الفسيلفس فاستقال فبدل الارجوان بثوب الرهبنة وأقام في الدير الاستودي[3].

قسطنطين العاشر (دوكه): (١٠٥٩ - ١٠٦٧) وتحدَّر هذا ايضاً من اسرة عريقة في الشرف. ولكن شرفها لم يكن عسكرياً ريفياً بقدر ما كان ارستقراطياً مدينياً. وهذا سبب التفاهم بينه وبين أقطاب رجال السياسة والادارة في العاصمة. ومن هنا نفوذ ميخائيل بسلوس في عهده وتوليه تربية الامير ميخائيل ابن الفسيلفس، ووصول قسطنطين الثالث الى السدة البطريركية، واكراه يوحنا الثامن على قبول العكاز البطريركي بعد

١ *Cedrenus, G., op. cit., II, 372; Bréhier, L., Schisme Oriental, 276-277.*

٢ *Bréhier, L., Byzance, 273-274; Cedrenus, G., op. cit., II, 372-373.*

٣ *Psellus, M., Chronographia, II, 129-138.*

وفاة قسطنطين الثالث (١٠٦٤)[١]. ومن هنا ايضاً عطف الفسيلفس على العلم واكرامه للعلماء واكراه ولي العهد ميخائيل على الدرس والمطالعة واجتياز امتحان في الحقوق العمومية قبل اشراكه في الحكم[٢]. ولهذا ايضاً منح عضوية مجلس الشيوخ الى عدد من كبار رجال الطبقة المتوسطة مما اغضب طبقة الاراكنة Archontes [٣]. واضطر قسطنطين العاشر الى ان يعنى بالخزينة عناية سلفه اسحق، فاقتصد في كل شيء. وأدى به اقتصاده الى الاقدام على عمل جنوني اذ سرّح عدداً غير يسير من الجنود، وأنقص مرتبات الباقين، بينما كان خطر الحرب يهدد الدولة في اكثر من جبهة واحدة[٤].

وفي عهد قسطنطين العاشر، وعهد البطريرك المسكوني يوحنا الثامن، وعهد البابا الكسندروس الثاني (١٠٦١ – ١٠٧٣)، وفي السنة ١٠٦٤ توجه عدد من اساقفة الغرب يتقدمهم سيغفريد رئيس اساقفة ماينتز، وعدد كبير من الاشراف وغيرهم، الى زيارة الاماكن المقدسة. ومرّوا بالقسطنطينية فأكرمهم الفسيلفس اكراماً جزيلاً وزاروا كنيسة الحكمة الالهية. ولدى وصولهم الى المدينة المقدسة خرج صفرونيوس البطريرك الاوروشليمي بنفسه لملاقاتهم ومعه الاكليروس والشعب بالمباخر والشموع وأدخلهم باحتفاء عظيم كنيسة القبر المقدس[٥]! وهو أمر ذو بال في موقف رجال الدين في الغرب والشرق معاً من حرم البابا لاوون التاسع،

١ *Bréhier, L., Byzance, 274-275; Dolger, F., Regesten, 954.*

٢ *Psellus, M., Chron., II, 144.*

٣ *Psellus, M., op cit., II, 146-147.*

٤ *Psellus, M., op. cit., II, 139.*

٥ *Annales Altahenses Majores (M. B. SS., XX); Lambert de Hersfeld (M. G. SS., V, 168-169).*

وحرم البطريرك المسكوني ميخائيل الاول ، اللذين صدرا قبل ذلك بعشر سنوات فقط! وحسّن قسطنطين العاشر علاقاته مع الخليفة الفاطمي فتحسنت بذلك حالة المسيحيين في المدينة المقدسة اذ منح الخليفة الفاطمي بطريرك هذه المدينة حق السلطة المدنية على ابناء رعيته في القدس[1].

وفي شهر ايار من السنة ١٠٦٧ اقترب أجل قسطنطين العاشر فأوصى بالملك لاولاده الثلاثة بوصاية امهم افذوكية على ان لا تتزوج[2]. وكانت افذوكية من افذاذ عصرها في العلم ، وكانت تجيد النظم ايضاً . ولكنها بعد وفاة زوجها لم تستطع القيام باعباء الحكم وحدها نظراً لتحرج الموقف الحربي الدولي . وأخذ سكان العاصمة يتهامسون عن مستقبل المملكة ، ثم قالوا بضرورة اقامة ملك قدير . وخشيت افذوكية سوء العاقبة فأخذت صك قسم اليمين من البطريرك وتزوجت بعد سبعة أشهر من وفاة قسطنطين بالقائد رومانوس ديوجانس قائد الجيش في بلغارية[3].

رومانوس الرابع (ديوجانس) : (١٠٦٨ - ١٠٧١) وكان رومانوس من كبار رجال الجيش واصحاب الاملاك الواسعة في قبدوقية . وكان محبوباً محترماً من الجند شجاعاً قوياً . ولكنه كان يحب السلطة ، فاستأثر بها . فاغضب افذوكية بعد مرور شهرين فقط على زواجهما . فخرج من القصر وأقام في آسية عبر البوسفور بعد حملة عسكرية شنها على الاتراك السلاجقة[4].

وكانت احوال الروم قد ساءت في البلقان وفي ايطالية . فالمجر عبروا

١ *Guillaume de Tyr, Historia Rerum, IX, 17-18.*

٢ *Psellus, M., op. cit., II, 147-148.*

٣ *Psellus, M., op. cit., II, 154-157 ; Cedrenus, G., Synopsis, II, 391-396.*

٤ *Psellus, M., Discours, II, 159.*

الدانوب وحاصروا بلغراد ثلاثة أشهر في السنة ١٠٦٤ . وكان الغز ابناء عم السلاجقة قد نزحوا من شمالي قزوين الى جنوبي روسية ، فأجلوا البتشناغ عن مراعيهم ودفعوا بهم الى مصب الدانوب . فعبر هؤلاء الدانوب في السنة ١٠٦٥ وأوغلوا في البلقان حتى ثيسالونيكية وثيسالية . ولم تقوَ الجيوش على صدهم . فسمح قسطنطين العاشر ببقائهم في مقدونية على ان ينخرطوا في خدمة الدولة[١]. وأدى النزاع في ايطالية بين البابا نيقولاووس الثاني والبابا بندكتوس العاشر في السنة ١٠٥٩ الى تفاهم وتحالف بين نيقولاوُوس الثاني والنورمنديين . فأقر البابا نيقولاووس شرعية مطالبة هؤلاء بكابوة وكلابرية . وانطلق روبر غيسكار واخوه روجه فأخضعا كلابرية . فأنفذ قسطنطين العاشر حملة الى ايطالية الجنوبية . فعاد روبر من صقلية حيث كان يعاون اخاه روجه في اخضاع هذه الجزيرة ليحافظ على ممتلكاته الجديدة في جنوبي ايطالية . وبدأت بذلك حرب بين الروم والنورمنديين انتهت بسقوط باري في السادس عشر من نيسان ١٠٧١ وخروج الروم من ايطالية الجنوبية بعد حكم دام ثلاثة قرون متتالية . ولم يجدِ قسطنطين العاشر نفعاً تدخله في سياسة الكنيسة الرومانية وتأييده للبابا اونوريوس الثاني مناظر الكسندروس الثاني[٢].

وكان طغرل بك زعيم الاتراك السلاجقة قد توفي في السنة ١٠٦٢ فخلفه السلطان ألب ارسلان واستولى على آني Ani الارمنية في السنة ١٠٦٤ فذبح ونفى . ثم قام الى الرها فصده عنها دوق انطاكية في السنة ١٠٦٥[٣]. وفي ربيع السنة ١٠٦٧ هاجم ألب ارسلان الروم من الشرق

١ *Cedrenus, G., Synopsis, II, 384-385 ; Dolger, F., Regesten, 955.*

٢ *Bréhier, L , Byzance, 278-279.*

٣ *Matthieu d'Edesse, Chronique, 91.*

والجنوب في آن واحد ، فدخلت جيوشه البونط وقيليقية . ووصل الى قيصرية قبدوقية فخرّبها[1].

واستوى رومانوس على العرش فتولى مهمة صد الاتراك السلاجقة ، وقاد الى الميدان كل رجل استطاع ان يجنده في اوروبة وآسية . فطردهم من البونط اولاً وأنزل بهم هزيمة كبيرة عند تفريقية . ثم قام الى سورية الشمالية فأحرز نصراً مبيناً في العشرين من تشرين الثاني سنة ١٠٦٩ عند هيرابوليس (منبج) . وكان السلاجقة قد توغلوا في غلاطية فعاد رومانوس اليها وحررها . وفي السنة ١٠٧٠ حاصر ألب ارسلان مدينة الرها دون جدوى . وجاءَت السنة ١٠٧١ فأعاد رومانوس تنظيم جيشه وقام في منتصف آذار الى الجبهة الشرقية الجنوبية فوصل الى منزيكرت (ملاذكرد) على الفرات الاعلى فوجد نفسه وجهاً لوجه ، ليس امام جيش واحد من جيوش السلاجقة فحسب ، بل امام قوة السلطنة السلجوقية كلها ، وامام ألب ارسلان نفسه . وكان قد حلّ بجيش الروم شيء من الارتباك بسبب السير الطويل . وكان الفسيلفس قد ارسل فرقة كاملة الى روسل دي بابول القائد النورمندي الذي كان قد اتجه نحو بحيرة وان . وعلى الرغم من هذا كله بقي الفسيلفس متلهفاً الى القتال ، شاعراً ان السلاجقة لم يتيحوا له من قبل ميداناً صالحاً للقتال مثل هذا ، متيقناً من ان جنوده المدرعين سيقضون قضاءً مبرماً على الفرسان السلاجقة مهما بلغ عددهم . وكان ألب ارسلان قد زاد خصمه وثوقاً من نفسه بان ارسل اليه تقارير كاذبة تفيد ان السلاجقة عازمون على الرحيل متجهين الى بغداد . وفي السادس والعشرين من آب سنة ١٠٧١ انبرى ألب ارسلان لقتال الروم .

١ *Michel d'Attalie*, 94; *Cedrenus, G., Synopsis, II*, 389; *Laurent, J., Byzance et les Turcs Seljoucides*, 25.

فأبلى فرسان الروم المدرعون بلاءً حسناً وظلوا يوماً كاملاً يخترقون خطوط اعدائهم . ولكن هؤلاء كانوا دائماً يسدون الثلمات بسرعة وبجموع جديدة كانت تفد باستمرار . وفي المساء كان القتال لا يزال مائعاً . وفي اثناء الليل رأى رومانوس ان يسحب جنوده الى المعسكر . فأساءَ بعضهم فهم الاوامر فانقلب التراجع المنظم الى فرار مستعجل . وأصبح القسم الذي قاده الفيلفس محاطاً بالعدو من جميع النواحي . وجرح رومانوس نفسه وسقط عن حصانه ووقع اسيراً[١].

وسيق رومانوس الى خيمة عدوه واستقبل بجفاوة . ثم تفاوض الكبيران في الصلح فاتفقا على ان يدوم خمسين سنة ، وعلى ان يدفع الروم في كل سنة ثلاث مئة وستين الف قطعة ذهبية ، وعلى ان يفدي رومانوس نفسه بمليون ونصف مليون من هذه القطع عينها . وتصدعت جبهة الروم واختل نظامهم الدفاعي في هذا القطاع . ثم اندلعت نيران حرب اهلية مكنت السلاجقة من الدخول الى آسية الصغرى والاستقرار فيها[٢].

ميخائيل السابع : (١٠٧١ – ١٠٧٨) وما ان علمت افذوكية بما حلّ برومانوس حتى استقدمت الى العاصمة القيصر يوحنا دوكاس اخا قسطنطين العاشر وأعلنت نزول رومانوس الرابع عن العرش . وترك ألب ارسلان الفيلفس رومانوس دون ان يدفع له شيئاً معتمداً في ذلك على وعده فقط . واتجه رومانوس نحو العاصمة على رأس من تمكن من جمعهم من الرجال . فصده قسطنطين دوكاس ابن القيصر يوحنا . والتجأ رومانوس الى قلعة تيروبويون Tyropoion . وكاد يخسر كل شيء ولكن دوق

١ اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٨ .

٢ *Psellus, M., Chron., II, 161-162 ; Michel d'Attalie, 159 ff: Laurent, J., op. cit., 1-44 ; Dolger, F., Regesten, 972 ; Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Staates, 243-244.*

انطاكية مده بالمساعدة فأنقذه وقام به الى قيليقية ليستعدا معاً للمقاومة. وفي بدء السنة ١٠٧٢ أكره رومانوس على الدخول الى ادنه والاعتصام بها. ثم سلّم شرط ابقائه في قيد الحياة. ولكن القيصر يوحنا أمر بقص شعره وسمل عينيه ثم نفاه الى دير في جزيرة بروتي حيث مات بعد قليل[١].

وكان ميخائيل السابع مهذباً متثقفاً، يحب العلم ويكرم العلماء، ولكنه كان خوّاراً متردداً بعيداً عن الجيش لا يرغب في الحرب والقتال. وتمكن الخصي نيقيفوريتزس دوق انطاكية من الوصول الى القصر والسيطرة على ميخائيل، فأبعد بسلوس عن القصر، وأزال الحظوة عن القيصر يوحنا. ثم انصرف الى جمع المال فاستحوذ على تجارة القمح واحتكرها. ثم رفع الاسعار فضايق العباد، فنال سيده ميخائيل لقب Parapinakes ومعناه ابو الربعة. والسبب في هذا ان الناس اصبحوا نتيجة لاحتكار الحنطة يبتاعون ربع المد بالقيمة نفسها التي كانوا يدفعونها من قبل لشراء مد كامل[٢].

الاتراك السلاجقة: وتدل المصادر العربية والاسلامية على ان يوم منزيكرت أقر السلاجقة في ارمينية نهائياً، وأملهم في الاستيلاء على مناطق الرها وانطاكية. وفيا سوى هذا اعترف ألب ارسلان بالوضع الراهن، وبالغ في احترام الفسيلفس الاسير واطلق سراحه محملاً بالهدايا[٣]. وبدلاً من ان يتبع النصر بالنصر في آسية الصغرى، قام ألب ارسلان

١ *Psellus, M., Chron., II, 168-172 ; Bréhier, L. Byzance, 281- 282.*

٢ *Laurent, J., Byzance et Antioche, (Revue des Etudes Arméniennes, 1929) , 64-65 ; Cedrenus, G., Synopsis, II, 444-445.*

٣ *Laurent, J., Byzance et les Seljoucides 95 ; Cahen, Claude, La Campagne de Menzikert, (Byzantion, 1934) , 636-639*

الى حدوده الشرقية وتوفي عندها (١٠٧٢) . فتولى الحكم بعده ابنه جلال الدولة ملكشاه . ويستفاد من هذه المراجع الاولية وغيرها ان الروم انفسهم تشاغلوا عن حماية حدودهم الشرقية والجنوبية ، ولهوا بمطامع قادتهم وامرائهم ، وان الجنود تركوا الحدود والثغور ليؤيدوا هذا او ذاك في حروب داخلية ، مما أتاح للسلاجقة ان يتدفقوا عصابات للنهب والسلب[١].

وطمع روسل دي باليول النورمندي في السنة ١٠٧٣ بالاستقلال في مناطق قونية وانقرة . فاستعان ميخائيل السابع بالسلاجقة . فدخل مئة الف من هؤلاء بقيادة سليمان قطلمش فغشوا البلاد حتى ضفة البوسفور (١٠٧٤) . ووقع روسل النورمندي في الاسر ثم افتدى نفسه وجمع حوله عصاباته من جديد وحارب الاتراك والروم في منطقة سيواس. فهرع اليه اليكسيوس كومنينوس باسم الفسيلفس لاخضاعه . وظهر في هذه اللحظة قائد تركي جديد تتخ (طوطاخ) بجموع سلجوقية جديدة فاستعان به اليكسيوس وقضى على روسل وعلى حركته النورمندية . ولكن هذا النصر جاء على حساب الروم لان طوطاخ وجماعاته استقروا في قبدوقية[٢].

نيقيفوروس الثالث (بوتانياتس) : (١٠٧٨ - ١٠٨١) وبينما كان السلاجقة يزدادون قوة وتقدماً في اراضي الروم كاد كل قائد من قواد هؤلاء ينادي بنفسه فسيلفاً . وأهم هؤلاء القادة الطامعين نيقيفوروس بريانيوس Bryennius في البلقان ، ونيقيفوروس بوتانياتس Botaniates في آسية الصغرى . وقبل هذا في صفوفه عدداً كبيراً من الاتراك السلاجقة ، فاستولوا باسمه على قيزيقة ونيقية ونيقوميذية وخريسوبوليس واستقروا

١ *Laurent, J. op.cit., 63 ; Cahen, op cit., 641.*

٢ *Chalandon, F., Alexis Comnène, 30-31.*

فيها[1]، وكانوا لا يزالون جيوشاً مرتزقة في خدمة الروم . وتدخل الشعب في العاصمة لوضع حد لهذه الفوضى . واهتم رجال الدين للامر نفسه . فنادى اميليانوس بطريرك انطاكية ، الذي كان آنئذٍ في العاصمة ، بنيقيفوروس بوتانياتس فسيلفساً . ونزل ميخائيل السابع عن العرش ولبس ثوب الرهبنة[2]. وكان نيقيفوروس الثالث عسكرياً لامعاً فطناً متبصراً في الامور ولكنه لم يتمكن من اعادة النظام الى صفوف الجيش . وطمع نيقيفوروس ميليسانوس في الحكم وثار على نيقيفوروس الثالث . فحالف سليمان ابن قطلمش على شروط اهمها ان يقدم سليمان الرجال للزحف على القسطنطينية « فيستولي » على نصف المدن والمقاطعات التي تستخلص من يد نيقيفوروس[3]. فرحب بهؤلاء من سبقهم من اخوانهم الى ضفة مرمرة والبوسفور ممن تربع في المدن المشار اليها اعلاه باسم نيقيفوروس الثالث نفسه . فأرسل هذا قسطنطين اخا ميخائيل السابع بجيش لمحاربة السلاجقة واخراجهم من المدن التي امتنعوا فيها ، فعصا قسطنطين بدوره وطالب بالعرش .

البابا غريغوريوس السابع : (١٠٧٣ — ١٠٨٥) وعلى الرغم من الانشقاق الذي وقع في السنة ١٠٥٤ بين فرعي الكنيسة الرئيسين ، فان العلاقات بين الفسيلفس والبابا لم تنقطع . ولذا فان ميخائيل السابع كتب الى غريغوريوس السابع يطلب المعونة ضد الاتراك السلاجقة واعداً بالسعي لاعادة العلاقات بين الكنيستين الى ما كانت عليه قبل الانشقاق . فقبل البابا اقتراح الفسيلفس وارسل الى القسطنطينية رئيس اساقفة البندقية يمثله فيها (١٠٧٣) . وقام هو في الغرب يدعو الى حملة عسكرية يكون هدفها تحرير الكنائس الشرقية من تسلط المسلمين . ولكن دعوة البابا

١ *Attaliates, 241, 266-269, 276-278*

٢ *Bréhier, L., Byzance, 275-287.*

٣ *Laurent, J., op cit., 98.*

لم تلقَ آذاناً صاغية ، فعدل الحبر الروماني عن مشروعه العظيم[١].

واتصل ميخائيل السابع في الوقت نفسه بروبر غيسكار النورمندي خاطباً احدى بناته لاخيه قسطنطين . فرفض غيسكار هذا التحالف العائلي . ثم رزق ميخائيل ولداً ذكراً وريثاً فأعاد الكرة وخطب احدى بنات غيسكار لولي العهد . فوافق غيسكار ، وقامت الاميرة الصغيرة الى القسطنطينية حيث دعيت هيلانة . ثم جاءَ انقلاب السنة ١٠٧٨ فقضى على هذا التحالف . وأمر نيقيفوروس الثالث باقامة الاميرة النورمندية في دير من الاديار . فغضب لميخائيل السابع كلٌ من البابا وغيسكار . فحرم البابا غريغوريوس السابع نيقيفوروس الثالث ، وأعلن غيسكار نفسه مدافعاً عن حقوق الفسيلفس المخلوع[٢].

ارمينية الصغرى : وكان الروم قد استولوا على ارمينية الكبرى واكرهوا الاسرة الازرونية على التخلي عن الحكم في السنة ١٠٢٢ ، كما أكرهوا الاسرة البغراتية على الامر نفسه في السنة ١٠٤٥ والسنة ١٠٦٤ . وكانوا قد أخفقوا في الدفاع عن الارمن ضد الاتراك السلاجقة . وجاءَت موقعة منزيكرت في السنة ١٠٧١ فاحتفظ احد قادة الروم براخاميوس فيلاريتوس Brakhamios Philaretos الارمني الاصل بجنوده المرتزقة . وكان عدد هؤلاء لا يقل عن ثمانية آلاف جلهم من الفرنجة . وامتنع فيلرتة هذا عن الاعتراف بميخائيل السابع واعتصم بجبال مرعش . وأراد في السنة ١٠٧٣ ان يفرض سلطته على طورنيق ابن موشيل Thornik Mouchel زعيم ساسون ولكنه خسر المعركة وفقد احد كبار زعماء جنوده الافرنج .

١ Dolger, F., Regesten, 988 ; Mansi, Amplissima Collectio, XX, 74-75. 100, 153 ; Chalandon, F., Domination Normande, I, 235-236.

٢ Dolger, F., Regesten, 939, 1003 ; Anne Comnène, Alexiade, I, 10-12 ; Grégoire VII, Registre, I, 330.

فاستعان بالاتراك السلاجقة وقضى على طورنيق واقتسم امواله مع أمير ميافارقين (١٠٧٤) . وتقطعت اوصال دولة الروم في هذه الفترة فأصبح فيلرتة ، بقوته العسكرية وبصفته المسلكية العسكرية العالية ، الممثل الوحيد الفعّال لسلطــة الفسيلفس الشرعية في مناطق الحدود الجنوبية . وكثر قصاده ، وعلت مكانته في أعين الموالين للروم في هذه المناطق ، فانقــاد الناس اليه وتعاونوا معه وشدوا ازره ، فبلغت قواته العسكرية ثلاثين الفاً ، وامتد سلطانه من خربوط شرقاً حتى طرسوس غرباً . وفي السنة ١٠٧٧ أرسل احد ضباطه باسيليوس ابن ابي خاب الى الرها ليحكمهــا ويدبّر شؤونها ، فصده حاكمها عن ذلك ولكن اهلها ثاروا عــلى هذا وذبحوه وسلموا المدينة لممثل فيلرتة . وجرى مثل هذا تماماً في انطاكيــة ، ففي شتاء السنة ١٠٧٨ – ١٠٧٩ قام سكانها الروم عــلى حاكمها الارمني فاساك باهلافوني Vassak Pahlavouni فقتــلوه وطلبوا الى فيلرتة ان يتولى امرهم ففعل[١]. اما شيزر حصن الروم على العاصي بالقرب من حماة فانها سقطت في يد علي ابن منقذ في التاسع عشر من كانون الاول سنة ١٠٨١ . واعترف نيقيفوروس بالواقع فحكم فيلرتــة باسم الفسيلفس جميع هذه المناطق واسس بذلك ارمينية الصغرى[٢].

ثورة اليكسيوس كومنينوس: (١٠٨١) ولم يوفق نيقيفوروس الثالث في مساعيه . وتطورت احوال الدولة من سيء الى اسوأ . وتزوج الفسيلفس للمرة الثالثة واتخذ مريم زوجة ميخائيل السابع زوجة له . وكان ميخائيل لا يزال في قيد الحياة ، فلم يرضَ الشعب . ثم ثار ثائره عندما

١ *Mathieu d'Edesse, ch. 107, 175-176 ; ch. 116, 180-181 ; ch. 111, 178-179.*

٢ *Laurent, J., Byzance et Antioche, (Rev. des Etudes Arméniennes), 1929, 69-07 ; Grousset, R., Emp. du Levant, 176-181.*

علم ان نيقيفوروس سيجعل ابن عمـــه وريثاً له بدلاً من قسطنطين ابن ميخائيل السابع . وخشيت امرة كومنينوس ما كان يدبره لها وزراء نيقيفوروس من دسائس ومكائد ، فانتهزت هذا الظرف وخرج اليكسيوس واخوه من العاصمة في منتصف شباط من السنـة ١٠٨١ الى تشرلو حيث

امرة كومنينوس

(١٠٨١ - ١١٨٥)

عمانوئيل

- اسحق الاول ١٠٥٧ - ١٠٥٩
- يوحنا
  - اليكسيوس الاول ١٠٨١ - ١١١٨
    - حنة
    - يوحنا الثاني ١١١٨ - ١١٤٣
      - عمانوئيل الاول ١١٤٣ - ١١٨٠
        - اليكسيوس الثاني ١١٨٠ - ١١٨٣
    - اسحق
      - اندرونيكوس الاول ١١٨٣ - ١١٨٥

كانت تتجمع قوى الجيش لمحاربة السلاجقة . ولدى وصولها نادى الجند بالكسيوس فسيلفساً . وفي اواخر اذار ظهر الفسيلفس الجديد بجنوده امام اسوار العاصمة ، فانحاز اليه القائد ميليسينوس ، وخان المرتزقة الالمانيون نيقيفوروس ، فدخل الكسيوس كومنينوس العاصمة في اول نيسان سنة ١٠٨١ وتنازل نيقيفوروس ودخل الدير وعاش راهباً باقي عمره[١].

١ *Anne Comnène, op. cit., II, 6-12; Bréhier, L., Byzance, 288-289.*

الفصل التاسع والعشرون

اليكسيوس الاول كومنينوس

(١٠٨١ - ١١١٨)

شخصه : وجاء في كتاب الاليكسياذة لحنّة ابنة اليكسيوس كومنينوس ان والدها الفسيلفس تبوأ العرش في الثالثة والثلاثين من عمره ، وانه كان قصيراً ، ممتلىء الجسم ، قاسي الوجه ، أسود اللحية ، برّاق العينين ، ثاقب النظر . وتعترف حنّة بانه كان ينقص والدها شيء من الهيبة والوقار حين يخالط القوم ويمتزج معهم ، ولكنه كان جليلاً عظيماً عندما يستوي على عرشه ويتولى السلطة ويحكم بين الناس[١].

ويستدل من هذه الاليكسياذة ايضاً ومن غيرها من المراجع الاولية ان اليكسيوس الاول كان مهذباً مثقفاً ، متضلعاً من الفلسفة واللاهوت ، مريع الخاطر ، فصيح اللسان خطيباً ، وانه كان دمث الاخلاق سلساً حلو المعشر عطوفاً رؤوفاً رحيماً سموحاً في كل شيء ما عدا العقيدة الدينية . فانه كان فيما يظهر شديد التمسك « بالعبادة الحسنة الارثوذكسية » ، مندفعاً في سبيلها ، محارباً الهرطقة والخروج على مقررات المجامع المسكونية . وظل اليكسيوس يتعشق الحرب ويحن اليها ، وبقي طوال عهده يعطف

١ *Anne Comnène, Alexiade, I, 110.*

على الجنود ويرعاهم بعنايته . وظل هؤلاء بدورهم متعلقين به متفانين في سبيله . وكان الفسيلفس الجديد مفاوضاً من الطبقة الاولى ، يخاطب كلاً باللغة التي يفهم ، كما كان سياسياً محنكاً يجيد فن التفرقة ويحسن اساليب التقريب والجمع . وكان لبقاً للغاية ، لا كذوباً كما اتهمه بعض المتطفلين على التاريخ من كتّاب الفرنجة الذين لا يدرون ، ولا يدرون انهم لا يدرون[1].

مطامع النورمنديين الايطاليين : وكان ميخائيل السابع ، كما سبق ان أشرنا ، شديد الرغبة في التحالف مع البابا والنورمنديين الايطاليين للصمود في وجه الاتراك السلاجقة . وكان قبيل نزوله عن العرش قد خطب ابنة روبر غيسكار النورمندي الايطالي لابنه وولي عهده قسطنطين واستقدمها الى القسطنطينية . وكان روبر غيسكار يطمع في توسيع دولته الايطالية عبر الادرياتيك . فلما أنزل ميخائيل عن العرش أعلن روبر غيسكار نفسه مدافعاً عن حقوق هذا الفسيلفس . وكان ما كان من أمر نيقيفوروس الثالث ومن أمر الفوضى التي عمّت جميع انحاء دولة الروم . فعمد روبر في ربيع السنة ١٠٨١ الى تحقيق مطامعه عبر الادرياتيك ، فأنفذ ابنه بوهيموند بطلائع الجيش الى أفلونية Avlona وقام هو بنفسه على رأس الجيش الى إبيروس[2].

وكان الكسيوس الاول يخشى الاتراك السلاجقة في آسية الصغرى ، وينظر بعين الحذر الى مطامع البتشناغ عبر الدانوب . ولم تكن نفسه مطمئنة لموقف السكان في شاطىء الادرياتيك الشرقي . أما خزينته فقد كانت خالية ، وجيشه كان مضطرباً ضعيفاً لا يعتمد عليه . وكان يعلم

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 7-8.*

٢ *Anne Comnène, op. cit., I, 53.*

ان امبراطور الغرب هنريكوس الرابع كان لا يزال معوزاً فأرسل وفداً يقدم اليه مبالغ من المال كبيرة ووعوداً سياسية عظيمة ، ويطلب في الوقت نفسه تدخلاً في ايطالية ضد العدو المشترك روبر غيسكار[1]. ثم اتصل بالبنادقة وأبان لهم الخطر المحدق بهم وبتجارتهم من احتلال النورمنديين لشاطئ الادرياتيك عند مداخله ، ووعدهم بفتح جميع مرافىء الدولة لمراكبهم وتجارتهم ما عدا البحر الاسود ، وأعفى جميع بضاعتهم الداخلة الى هذه المرافىء والخارجة منها من جميع الضرائب . فدخل البنادقة معه في حلف عسكري شامل ضد النورمنديين[2].

وكان روبر قد احتل جزيرة كورفو وفرض الحصار على مدينة ديراتزو وذلك في حزيران من السنة ١٠٨١ . فعزم اليكسيوس على ان يقوم بنفسه الى منطقة القتال لفك هذا الحصار . فأسند الحكم الى والدته حنة دلسانة وعين لوغوثيتاً قديراً يعاونها في ذلك[3]، وقام الى جبهة القتال . ورأى كبار القادة ان يحصر النورمنديون المحاصرون بين اسوار ديراتزو والبحر وان يضيّق عليهم هذا الحصار فتضطرهم قلة المؤن الى طلب الصلح . ورأى غيرهم ممن كانوا دونهم سناً وخبرة ان يصار الى القتال حالاً . فأصغى اليكسيوس الى هؤلاء فأخفق اخفاقاً ذريعاً وسقطت ديراتزو في يد النورمنديين في الحادي والعشرين من شباط سنة ١٠٨٢ . وكان من الطبيعي ان يتجه روبر بجيشه نحو القسطنطينية . وما ان وصل الى كستورية حتى تسلم رسالة من البابا غريغوريوس السابع ينبئه فيها بقدوم الامبراطور هنريكوس الرابع الى ايطالية ويرجو معونته . وعلم روبر

١ *Anne Comnène, op. cit., I, 133-136.*

٢ *Dolger, F., Regesten, 1081.*

٣ *Diehl, C., Un Haut Fonctionnaire Byzantin, (Mélanges Jorga, 1933), 217 ff.*

ايضاً ان بعض زعماء النورمنديين في ايطالية شقوا عصا الطـاعة ، فوكل أمر القيـادة الى ابنه بوهيموند وعاد الى ايطالية . ولم يتابع بوهيموند الزحف على القسطنطينية بل اتجه جنوباً وحاصر يَنينة . وجيّش اليكسيوس جيشاً جديداً وقام الى الجبهة يعيـد الكرة في ايار السنة ١٠٨٢ ولكنه أخفق مرة ثانية . فاحتل بوهيموند منطقة البحيرات وسيطر عـلى جميع مقدونية الغربية ثم نزل الى ثيسالية وحاصر لاريسّة . فجاءه اليكسيوس في ربيع السنة ١٠٨٣ وأتاه بالحيلة فألبس ميليسنوس احد رجاله ثياب الفسيلفس واحاطه بالهيبة والوقار وجعله ينازل بوهيموند . وتخاذل ميليسنوس امام بوهيموند ، فلحق به القائد النورمندي ، فابتعد عن قاعدته ، فسطا عليها اليكسيوس وأتلف ما فيها . فاضطر بوهيموند الى ان يتراجع نحو الشاطىء . وكانت مراكب البنادقة قد اوقعت بمراكب النورمنديين خسارة كبيرة في بحر الادرياتيك ، وتأخرت جمـاكية العساكر والضباط ، فاستغل اليكسيوس هذا الموقف وأوغر صدور هؤلاء الضباط كما اغدق على بعضهم المال ليعودوا الى ايطالية . فاضطر بوهيمونـد الى ان يذهب الى ايطالية بنفسه لتأمين أعطيات الجند وضباطهم . فاضطربت احوال الجيش النورمندي واستعاد اليكسيوس كستورية في خريف السنة ١٠٨٣ . وعاد روبر الى القتال في السنة ١٠٨٤ وأنزل بالبنادقة خسائر كبيرة واحتـل كورفو ثانية . ولكن وباء حـلّ في صفوف الجيش فشلّ كل حركة عسكرية . وأعاد روبر الكرة في صيف السنة ١٠٨٥ ولكنـه توفي في الجبهة . وكان روبر قد خص ابنه الاصغر روبر بالملك بعده فنشبت حرب اهلية اوقفت كل عمل عدائي ضد الروم[1].

[1] Anne Comnène, *Alexiade*, II, 7-57 ; Chalandon, F., *Alexis Comnène*, 83-91.

ثورة مانوية بتشناغية : (١٠٨٤ — ١٠٩١) وكان يوحنا جيمسكي قد سبا جماعات من المانويين من حدود الدولة الشرقية الجنوبية الى منطقة فيلبي في البلقان . وحافظ هؤلاء على عقيدتهم الخاصة فلم ينسجموا مع الروم واصبحوا مشكلة سياسية داخلية . وفي الحرب النورمندية اقترفوا خيانة ضد الدولة وانسحبوا من ساحة القتال في أحرج الاوقات . فاغتاظ اليكسيوس واستدعى زعماء المانويين اليه وأنزل بهم أشد الوان العذاب . فغضب قومهم لهم واعلنوها ثورة على الحكم (١٠٨٤) واستعانوا بالبتشناغ . فعبر هؤلاء الدانوب مخربين محرقين ، وما فتئوا كذلك حتى مداخل ادرنة والى مسافة قصيرة من شاطىء مرمرة . وقُدر للروم ان يصمدوا في وجههم في السنة ١٠٨٦ والسنة ١٠٨٧ فارتدوا على أعقابهم الى ما وراء الدانوب . ورأى اليكسيوس ان يستغل هذين النصرين فأعد حملة كبيرة . وقطعت جيوشه البلقان الى الدانوب ، وقام اسطوله عبر البحر الاسود الى مداخل هذا النهر . وكانت موقعة كبيرة امام دريسترة في صيف السنة ١٠٨٦ . فانكسر الروم وخسروا رداء العذراء العجائبي . واضطر البتشناغ الى ان يحاربوا من جاورهم من القبائل عبر الدانوب فلم يعودوا الى الحرب مع الروم قبل السنة ١٠٨٩ ، وفيها وصلوا ثانية الى مداخل ادرنة ، فاضطر الفسيلفس الى ان يشتري السلم شراءً . ولكن البتشناغ عادوا الى الحرب في السنة ١٠٩٠ وهددوا العاصمة نفسها . واشتد القتال وطال أمده فاستعان الروم باعداء البتشناغ : قبيلة البولوف Polovtzes . وكانت موقعة حاسمة في التاسع والعشرين من نيسان سنة ١٠٩١ عند نهر اللابورنيون Leburnion فانهزم البتشناغ وتراجعوا ليقعوا في قبضة البولوف ، فكانت مجزرة كبيرة[١].

١ *Anne Comnène, op. cit., II, 43, 87-101, 143; Chalandon, F., op. cit., 104, 113-116, 129 ff.*

ازدياد نفوذ الاتراك السلاجقة : وفي اثناء هذا كله ، بينما كان اليكسيوس يحارب النورمنديين في الغرب ، والبتشناغ في الشمال ، كان الاتراك السلاجقة يزدادون نفوذاً وسلطاناً في آسية الصغرى وفي شمالي سورية . فأصبح حق الفيلفس في السيادة على سليمان ابن قطلمش حقاً نظرياً لا فاعلية له . واتخذ هذا لقب سلطان وشرع يوسع حدود منطقته ويعمل وكأنه دولة مستقلة . فاحتل انطاكية في كانون الاول من السنة ١٠٨٤ دون ان يبدي اليكسيوس اية حركة . ثم تطاول على فيلرتة وبسط سلطته على جميع امارته[١]. وعبثاً حاول فيلرتة ان يحتفظ بسلطته بتقبل الدين الاسلامي[٢]. وما ان طالب امير حلب سليمان بالمال الذي كان يدفعه فيلرتة له حتى قام اليه بجيشه وفرض سلطته عليه . فدب الذعر في نفوس سائر امراء سورية . وجيّش تتش امير دمشق وقام الى حلب فنازل سليمان بالقرب منها في شهر تموز من السنة ١٠٨٥ وقضى عليه . وما ان توفي سليمان ابن قطلمش حتى رفض معظم الامراء الذين كانوا قد دخلوا في حكمه ان يقروا بالطاعة لابنه وولي عهده قلج أرسلان . فسادت الفوضى جميع ارجاء سلطنة سليمان (سلطنة الروم فيما بعد) . وأنفذ ملكشاه قوة الى سورية وأعاد توزيع الاقطاع والسلطة فيها . وغضب جلال الدولة ملكشاه على وزيره الكبير نظام الملك ودسّ اليه من قتله ، ثم توفي هو في التاسعة والثلاثين من عمره (١٠٩٢) . فاضمحلت عظمة الدولة السلجوقية وتفككت اواصرها . وكان الخليفة المستظهر قد أقر ابن ملكشاه الرضيع في السلطنة فطلبها اخوه بركياروق فقام عليه عمه تتش . فبذر التشويش وعمّت الفوضى سورية والعراق . وأحب

١ *Anne Comnène, op. cit., II, 64; Laurent, J., Byzance et Antioche, Rev. Etudes Arm., 1829, 71-72.*

٢ *Laurent, J., Byzance et les Turcs Seljoucides, 85-86.*

اليكسيوس الفسيلفس ان يستغل الموقف لصالحه وصالح الروم ، ولكن الغرب كان قد بدأ يتمخض بالحروب الصليبية .

الروم والصليبيون : ولم يكن امر الجهاد في سبيل الدين امراً مستحدثاً جديداً . فمنذ ان تنصرت الدولة الرومانية أصبح رئيسها حامي الدين مجاهداً ومبشراً ايضاً . ولم تنطبع حروب النصارى وحدهم بهذا الطابع الديني . فحروب الفرس ضد الروم كانت تحمل ايضاً طابعاً دينياً خاصاً . وحروب العرب كانت في اساسها حروباً دينية لا قومية كما سبق ان أشرنا . ولكن الجديد في الحروب الصليبية كان اشتراك جميع الطبقات فيها لغرض ديني معين . ولا يختلف اثنان فيما نعلم في ان بعض الصليبيين اندفع بدوافع مادية غير دينية ، ولكن التيار الجارف ظل دينياً في الدرجة الاولى[1].

والحروب الصليبية كانت حروباً غربية قبل ان تكون حروباً شرقية . والمحرك الاكبر فيها كان البابا اوربانوس الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩) . فانه خشي فيما يظهر تجدد النشاط الاسلامي بظهور الاتراك السلاجقة وبانتصاراتهم المتواترة ، وآلمه ضغطهم المتزايد على الكنائس الشرقية ، فأحب ان يتحد جميع ملوك النصارى وامرائهم وشعوبهم في حملة واحدة لتحرير هذه الكنائس الشرقية ولحماية القبر المقدس وتأمين سبلَ الحجاج . فسعى منذ ان تبوأ السدة الرومانية لتقريب القلوب بين فرعي الكنيسة الام . ورفع الحرم الذي كان قد وضعه سلفه غريغوريوس السابع على اليكسيوس فسيلفس الروم . وأرسل وفداً الى القسطنطينية يعلن هذه السياسة الجديدة ويرجو السماح باستعمال الفطير في كنائس القسطنطينية اللاتينية واعادة اسمه

١ Grousset, R, Empire du Levant; Alphandery, P., La Chrétienté et l'Idée de Croisade; Bréhier, L., Byzance, 310.

الى الذبيحة[1]. وتقبل اليكسيوس القسيلفس والبطريرك المسكوني هذه البادرة الطيبة بحرارة وأرسلا وفداً الى رومة يرجو حبرها العظيم ان يشرّف القسطنطينية ويرئس مجمعاً مسكونياً يعيد المياه الى مجاريها . وهب اكليريكي أمالفي اللاتيني ورئيس اساقفة اخريدة الارثوذكسي يبيّنان خسة التخاصم حول « الطقوس » عندما تكون العقيدة « واحدة »[2]. وعلم مناوىء اوربانوس الثاني وخصمه اقليمس الثالث بهذا كله فعرض على القسيلفس ان يوقع هو صك الاتحاد بين الكنيستين . ولكن اليكسيوس آثر الامانة لاوربانوس لان الفضل في ذلك عائد اليه . فشاغب البابا المناوىء ، فلم يتمكن اوربانوس من القيام الى القسطنطينية[3]. وهكذا يكون الواقع التاريخي ان اليكسيوس لم يتلمس حرباً صليبية ولم يحث الغرب عليها « ليقلب لها ظهر المجن » كما جاءَ في بعض المؤلفات الحديثة .

وفي اوائل تموز من السنة ١٠٩٦ وصلت الى البلقان جموع بطرس الناسك ناهبة مقتلة مخرّبة . وتقدمت هذه الجموع نحو القسطنطينية فرحّب بها القسيلفس واكرمها ، واستقبل بطرس الناسك واوضح له وجوب الانضباط واحترام حقوق السكان . وكان اتباع بطرس قد أقاموا خارج اسوار المدينة ، فعاثوا في الضواحي فساداً وخرقوا حرمة الكنائس . فرأى اليكسيوس ان يجابههم بجيرانه الاتراك السلاجقة عبر البوسفور لعلهم يفقهون . وما ان حطت رحالهم في آسية حتى هاجوا الاتراك ، فبدد هؤلاء شملهم . فارعووا وكفوا عن القبيح ورضوا ان يعودوا الى ضواحي القسطنطينية عزلاً .

١ *Malaterra, G., Historia Sicula, P. L., 149; Bréhier, L., Byzance, 307.*

٢ *Michel, A., Amalfi und Jerusalem, 34-37; Holtzmann, Kaiser Alexios und Papst Urban II, Byz. Zeit., 1928, 38 ff.*

٣ *Bréhier, L., Byzance, 310.*

وفي صيف هذه السنة نفسها قذف البحر الى شاطىء إبيروس اخا ملك فرنسة هوغ دي فارمندوى Hugues de Vermandois ، فوقع في ايدي الروم ونقل الى القسطنطينية . فاحاطه الكسيوس بشيء كثير من الاكرام والاحترام ، ورأى فيه خير وسيط بينه وبين زعماء الصليبيين القادمين . وزاد في اكرامه فتعلق الامير الافرنسي بالفسيلفس وبايعه على الطاعة والولاء .

ثم جاءَ في كانون الاول من هذه السنة نفسها غودفروى دي بويون Godefroy de Bouillon بجموعه . وكان الكسيوس قد سمع بشجاعته وثرائه وكرمه فأكرمه . ولكن غودفروى رفض مبايعة الفسيلفس . فتوترت العلاقات بين الاثنين . وقلت المؤونة لدى اتباع غودفروى خارج اسوار العاصمة ، فلجأوا الى العنف وارادوا اقتحام احد مداخل القسطنطينية . فصدهم الروم بالقوة وتغلبوا عليهم . فأخلدوا الى السكينة . ودعا الفسيلفس الزعيم الصليبي الى مأدبة اقيمت في القصر المقدس على شرفه ، فبايع غودفروى الفسيلفس على الطاعة والولاء ، ومضى في نيسان سنة ١٠٩٧ بجموعه الى آسية .

وفي ربيع السنة ١٠٩٧ أطلّ بوهيموند النورمندي الايطالي ، فأعلن فور وصوله استعداده لمبايعة الفسيلفس على الطاعة والولاء ورغبته الاكيدة في التعاون مع الروم الى اقصى الحدود . وكان بوهيموند قد حارب الكسيوس في ألبانية وفي اليونان ، كما سبق ان أشرنا ، فاعتور علاقاته مع الروم في بادىء الامر شيء من الحذر والبرودة . ولكن شخصيته الجذابة ومواهبه الكبيرة ونجاحه في التظاهر بالصدق والاخلاص عاونت على ازالة هذا الحذر وذلك الفتور . فقد قالت ابنة الفسيلفس صاحبة الاليكسياذة ان بوهيموند فاق جميع رجال عصره في جميع انحاء الامبراطورية جسماً وروحاً ومقدرة . وأعجبت على الرغم من كرهها للعنصر اللاتيني بلينه

ومرونته ولباقته ومقدرته في التعبير وفصاحته . ولم ترَ أفضل منه سوى والدها العظيم . وزال الشك وتفاهم الكبيران ، واستقبل الفسيلفس ضيفه واهدى اليه شيئاً كثيراً من الذهب والدراهم والاقمشة النفيسة ، ثم ارسل اكثر منها الى محل اقامته . فاغتبط بوهيموند بما أوتي من نعمة وطلب الى الفسيلفس ان يدخل في خدمته ويتولى قيادة جيوشه . فاجابه اليكسيوس ان كل آتٍ قريب وانه بانتظار ذلك سيقطعه اراضي فسيحة في منطقة انطاكية . ولم يتردد بوهيموند في دخوله في طاعة الفسيلفس فاقسم يمين الولاء[1]. ثم جاءَ روبر دي فلاندر Robert de Flandre فدخل في طاعة الفسيلفس . اما ريموند دي سان جيل Raymond de Saint - Gilles فانه وصل مُكدّراً مستاءً غير مستعد لمبايعة اليكسيوس . فأقنعه بوهيموند النورمندي بوجوب الدخول في طاعة الفسيلفس ففعل وأصبح من أخلص اصدقاء اليكسيوس وأشدهم وفاءً له . وأعجب اليكسيوس بحكمة هذا القومس واتزانه وصدقه واخلاصه واستقامته . أما تنكريد الصقلي Tancrede نسيب بوهيموند فانه لم يرضَ ان يمر بالقسطنطينية او ان يقسم يمين الولاء والطاعة لفسيلفس الروم ، وأعلن ان هذا القسم لا يفرض عليه الا نحو سيده بوهيموند[2].

وكان ينقص هؤلاء جميعاً فيما يظهر الشيء الكثير من آداب السلوك وحسن المعاشرة ، فكانوا يدخلون على الفسيلفس في الصباح الباكر ولا يفارقونه الا في نهاية المساء متطلبين متطاولين او مسترشدين او متحدثين مسامرين . وكانوا في كثير من الاحيان متهتكين سفهاء خالعين برقع الحياء ضعفاء

١ *Anne Comnène, Alexiade, II, 224-226, 234.*

٢ *Diehl, C., Europe Orientale, 19-21.*

الارادة لا يمتنعون عن شيء مما يرغبون فيه ، متكلمين بما لا ينبغي متشدقين[1]. وكان اليكسيوس مثال الدماثة واللطف والصبر . فأحبوه واعجبوا به . وتمكن بصبره ودهائه ولطفه وكرمه من التوصل الى تفاهم تام معهم . ففي شهر ايار من السنة ١٠٩٧ وقع الطرفان معاهدة قضت بان يرفع الفسيلفس علم الصليب ، وان يضع تحت تصرف الزعماء فرقة محاربة ، وان يحمي طريقهم في اثناء مرورهم في اراضي الدولة البيزنطية ، مقابل دخول هؤلاء في طاعته ومبايعته[2].

وقام الزعماء الصليبيون من القسطنطينية بما لديهم من رجال وعبروا البوسفور وانضموا الى جموع غودفروي دي بويون ، وحاصروا نيقية فسقطت في يدهم ، فاستولوا على الغنائم وأعادوا المدينة الى الفسيلفس . ثم اتجهوا جنوباً مذللين الصعاب في قلب دولة السلاجقة ، متعاونين في ذلك مع فرقة بيزنطية بقيادة تتيكيوس Tatikios أحد كبار قادة الروم . وجهّز اليكسيوس حملة برية بحرية بقيادة يوحنا دوقاس فاستولى على افسس وساردس وازمير واضالية . وقام الفسيلفس بنفسه على رأس قوة ثانية فاخضع جميع بيثينية . وغُلب قلج ارسلان وتقوضت اركان سلطته . واستعاد اليكسيوس قلب آسية الصغرى وشواطئها الغربية[3].

مشكلة انطاكية : ونفّذ كل من الطرفين المتعاقدين ما نصت عليه المعاهدة وساد الحب والوئام . وقام اليكسيوس من القسطنطينية على رأس جيش قوي ليلتحق بالصليبيين . ولكن بودوان استأثر بالرها وجهاتها ولم يعدها الى الفسيلفس . وطغى بوهيموند وتجبر وطمع بانطاكية وملحقاتها ،

١ *Diehl, C., Figures Byzantines, Série II, ch. I, 5 ff.*

٢ *Hagenmeyer, H., Epistulae et Chartae ad Historiam Primi Belli Sacri Spectantes, XII, 154.*

٣ *Anne Comnène, Alexiade, III, 3-27.*

وكذب على تتيكيوس القائد الرومي فقال له ان زعماء الصليبين لا يضمرون الا السوء له ولسيده وحرّضه على الخروج ثم وصمه بالجبن. وقام كربوقا امير الموصل لصد الصليبيين. فخشي اليكسيوس هجوماً تركياً جديداً على فتوحاته في آسية الصغرى فعاد الى عاصمته[١].

وما ان تربع بوهيموند في انطاكية حتى بدأ يطمع في توسيع امارته. فحاول في حزيران السنة ١٠٩٩ ان يخرج الروم من اللاذقية. وفي السنة ١١٠٠ هجم على ابامية وحلب ثم مرعش. وكانت هذه قد اعيدت الى الروم بموجب شروط المعاهدة. وعلى الرغم من وقوع بوهيموند في يد الاتراك اسيراً في تموز السنة ١١٠٠ فان نسيبه تنكريد الذي تولى الحكم في انطاكية في غيابه استولى على طرسوس وادنة. ثم حاصر اللاذقية ثمانية عشر شهراً واستولى عليها في السنة ١١٠٢ وأخرج الروم منها[٢]. وأفسد هذا الطمع السياسي مرة اخرى العلاقة بين الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة اللاتينية. فانه على الرغم مما كان قد حدث في السنة ١٠٥٤ بين البطريرك المسكوني وبابا رومة ظل البطريرك الانطاكي يذكر بابا رومة في الذبتيخة[٣]. ولكن طمع بوهيموند دفعه الى طرد البطريرك الانطاكي يوحنا السابع من انطاكية لانه كان يونانياً والى اسناد هذا الكرسي الرسولي الى القس برناردوس فلانسية اللاتيني. ولا صحة في القول بان يوحنا السابع استقال استقالة فشغر كرسيه فنُصب برناردوس، لان يوحنا لم يستقل قبل وصوله الى القسطنطينية، ولان استقالته هذه ارتبطت منذ لحظتها الاولى بانتخاب خلف ارثوذكسي له يوحنا الثامن (?) وذلك بالطريقة القانونية المرعية

١ *Grousset, R., Hist. des Croisades, I, 100 ; Dolger, F., Regesten, 1210.*

٢ *Grousset, R., Croisades, I, 382-386.*

٣ *Runciman, S., First Crusade, 237.*

الاجراء آنئذ[1].

وعاد بوهيموند من الاسر في صيف السنة ١١٠٢ واستقر في انطاكية. فطلب اليه اليكسيوس الفسيلفس ان ينفذ شروط المعاهدة المعهودة ويعترف بسلطته على انطاكية، فرفض بوهيموند. فلجأ اليكسيوس الى العنف والحرب. واحتل الروم طوسوس وادنة وممِسترة، وحاصروا اللاذقية وأنزلوا قواتهم في نقاط متعددة على الشاطىء السوري. وهبّ السلاجقة للاخذ بالثأر وأوقعوا بالصليبيين هزيمة شنعاء عند الرقة ثم حاصروا الرها. وخشي بوهيموند سوء العاقبة فانسلّ من بين قوات الروم البحرية ووصل الى كورفو وكتب منها رسالته الشهيرة الى اليكسيوس الفسيلفس: «وسأصل الى القارة الاوروبية وسأجمع اللومبارديين واللاتينيين والالمان ومواطني الافرنج فأعود اليك مالئاً مدنك بجثث القتلى وبالدم، ولن اتوقف الا بعد ان اكون قد غرزت رمحي في أرض بيزنطة[2]». ووصل بوهيموند الى ايطالية في اوائل السنة ١١٠٥ واتصل بحبر رومة، فرحب به وعين ممثلاً يطوف معه ليستنهض الهمم. ثم زار فرنسة فاستقبله مليكها فيليب الاول بالاكرام والاحترام وأصهر اليه. وكان بوهيموند حيثما حلّ يطعن بفسيلفس الروم ويلقي على عاتقه مسؤولية اخفاق الصليبيين في سورية الشمالية. فاوغر الصدور ضد الروم في عواصم اوروبة وامهات مدنها. ونشأ كره لاليكسيوس دام قروناً طوالاً. وما فتئت اوروبة تلوم هذا البطل الشرقي حتى قام علماؤها يبحثون ويدققون في النصف الثاني من القرن الماضي. وفي خريف السنة ١١٠٧ أنزل بوهيموند اربعة وثلاثين الفاً في أفلونة، ثم قام الى ديراتزو وبدأ بحصارها. وما ان فعل حتى هبّ اليكسيوس

١ *Grummel, Les Patriarches d'Antioche du nom de Jean, Echos d'Orient, XXXII, 286-298; Runciman, S., First Crusade, 320-321.*

٢ *Anne Comnène, Alexiade, II, 129-130.*

لقتاله براً وبحراً. فقطع اسطول الروم كل علاقة بين بوهيموند واوروبة الغربية، وحصر الفسيلفس بنفسه بوهيموند في البر. فقلت المؤن لدى بوهيموند واضطربت جموعه، فاضطر الى ان يفاوض في الصلح. فأملى عليه الفسيلفس شروطاً أهمها ان يعتبر بوهيموند نفسه احد رجال الاقطاع في خدمة الفسيلفس، وان يقسم يمين الولاء والطاعة للفسيلفس ولولي عهده من بعده، وان يمتنع عن حمل السلاح في وجهه، وان يحارب في صفوف الفسيلفس كلما قضت الحاجة بذلك، وألا يطمع في توسيع سلطته على حساب دولة الروم، وان يعيد الى الروم جميع الاراضي التي كان قد اقتطعها من جسم الدولة، وان يعيد اليها اللاذقية وغيرها من شاطىء سورية، وان يحكم انطاكية باسم الفسيلفس، وان يكون بطريركها ارثوذكسياً من رجال كنيسة الحكمة الالهية. ثم انعم اليكسيوس على بوهيموند بالهدايا وبلقب سفاستوس[1].

وعاد بوهيموند الى ايطالية وتوفي فيها بعد قليل فلم يحصر انطاكية ثانية. ورفض تنكريد ان ينفذ شروط هذه المعاهدة، وعاد الى التوسع على حساب الروم فاحتل ابامية في السنة ١١٠٦ فاللاذقية ومميسترة وجزءاً من قيليقية في السنة ١١٠٨ فجبلة في السنة ١١٠٩. وجرت مفاوضات حول هذه الامور في طرابلس وفي مدينة القدس فلم تسفر عن شيء. وتوفي تنكريد في السنة ١١١٢ وبقيت مشكلة انطاكية تنتظر الحل طوال القرن الثاني عشر[2].

ملكشاه الثاني والحروب التركية: وتوفي قلج أرسلان في السنة ١١٠٦ فخلفه ابنه ملكشاه الثاني وتوحدت صفوف السلاجقة وعادوا الى الاغارة.

١ *Anne Comnène, Alexiade, III, 228-248.*

٢ *Diehl, C., Europe Orientale, 26-27.*

وهاجموا فيلادلفية في السنة ١١١١ وحاصروا نيقية في السنة ١١١٢ وتوغلوا في اراضي الروم في السنة ١١١٥ . فتصدى لهم اليكسيوس بنفسه في السنة ١١١٦ محاولاً اقتحام قونية . فأحرز نصراً كبيراً عند فيلوميليون وأملى على ملكشاه الثاني معاهدة وطدت اقدام الروم في آسية الصغرى لاول مرة بعد منزيكرت . فاستحوذ اليكسيوس على دوقية طرابزون وقسم من ثيمة ارمينية ، وعلى كل ما وقع غربي خط امتد من سينوب حتى فيلوميليون، وعلى شواطىء الاناضول الجنوبية[١].

اليكسيوس والغرب : وخلا الجو لاليكسيوس في ايطالية الجنوبية اذ اصبحت هذه المناطق وليس فيها سيد كبير يدبر شؤونها . واشتد النزاع بين هنريكوس الخامس والبابا باسكال الثاني (١٠٩٩ - ١١١٨) وطلب حبر رومة معونة الفسيلفس . فأرسل اليكسيوس وفداً مفاوضاً الى رومة في صيف السنة ١١١٢ . وكانت محادثات ووعود حول اتحاد الكنيستين وتوحيد التاج الامبراطوري بين الشرق والغرب ولكنها لم تثمر . فالاكليروس الشرقي أظهر استعداداً تاماً للعودة الى ما كانت عليه الحال قبل الانشقاق ، اي الى التمشي بموجب قرارات المجامع المسكونية ، ولكن حبر رومة لم يرضَ بالتقدم بالكرامة فقط بل طالب بالسلطة[٢].

السياسة الداخلية : وكانت الفوضى قد عمّت جميع دوائر الدولة ، فعمل اليكسيوس الاول على اعادة النظام وتوطيد الامن وتوزيع العدل . ورأى ان شيئاً من هذا لن يكون الا اذا استعاد هو السلطة كل السلطة الى يديه . ولم يرضَ بمجرد تسيير دفة الحكم ، بل رغب في السيطرة كي يصبح سيد الموقف فيعيد الهيبة والوقار اللازمين للحكم .

١ *Dolger, F., Regesten, 1269; Anne Comnène, Alexiade, III, 208-209.*

٢ *Patrologia Latina, 127 (Chrysoloras), 911 ff; Chalandon, F., Alexis Comnène, 263; Bréhier, L., Byzance, 318.*

وبدا بالجيش . ولمس نقصاً مخيفاً في عدد الخيالة ونوعهم . فأدخل تعديلاً على نظام الاقطاع العسكري وانشأ البرونية . فاقطع الرجال عدداً من القرى وسمح لهم بجباية الضرائب فيها شرط ان يقدموا للجيش عدداً معيناً من الفرسان بخيولهم وأسلحتهم . وكان النظام القديم يقضي باقطاع الجنود ارضاً معينة يستغلونها للقيام بالخدمة العسكرية في زمن الحرب . وأضاف الى هؤلاء الخيالة الجدد عدداً من الفرسان المرتزقة . وجاء هؤلاء من شعوب اوروبة ولاسيما السكسون[١]. فاستعاض بذلك عن النقص الذي حلّ بفرق الخيالة من جراء تقلص الدولة في آسية الصغرى . ثم التفت الفسيلفس الى الاسطول فرأى ان معونة البندقية لم تكن كافية وانه لا يجوز الاعتماد عليها وحدها فعاد الى انشاء اسطول رومي جديد . ثم رأى ان يعهد بقيادة قواته البرية والبحرية الى انسبائه الاقرباء ليضمن بذلك ولاءَ القادة للعرش .

وكانت طبقة الاشراف قد خسرت شطراً كبيراً من نفوذها واحترامها في القرن الحادي عشر وكان عدد اعضائها قد قلّ . فأنشأ اليكسيوس طبقة جديدة بالقاب افخم وأعظم كانت مخصصة من قبل لافراد الاسرة المالكة . فمنح هذه الالقاب لعدد كبير من انسبائه واقربائه . فأحاط نفسه بطبقة جديدة من الاشراف موالية له . وقلّ اكتراث الفسيلفس بمن بقي من اعضاء مجلس الشيوخ وانشأ مجلساً خاصاً من الاشراف ذوي النسب العالي ومن كبار الموظفين المدنيين والعسكريين . وامتعض بعض الشيوخ وبعض القادة وبعض افراد الطبقة الارستوقراطية القديمة ، وكثر التآمر فصادر الفسيلفس اموال المتآمرين المنقولة وغير المنقولة وزاد

١ *Vasiliev, A. A., Anglo-Saxon Immigration to Byzantium, (Annales Kondakov), 1937, 58.*

هؤلاء ضعفاً على ضعف .

وكان دخل الخزينة قد نقص نقصاً فاضحاً لاسباب اهمها : كثرة الحروب الداخلية والخارجية ، وتقلص مساحة الدولة ، وقلة النتاج في الارياف . فأمر اليكسيوس بمسح جديد وضمّ الى املاك الدولة جميع الاراضي التي احتلها الكبار دون حق شرعي[1]. ثم لجأ الى تزييف النقد فسكّ نقوداً لا تحمل القيمة نفسها من معدنها التي كانت تحملها قطع العملة السابقة . وفرض الضرائب على اساس العملة الجديدة ولكنه جباها بقيمة العملة الصحيحة . فأحدث عمله هذا اضطراباً في الاسواق وهياجاً في النفوس مما حمله على اعادة النظر في الضرائب بين السنة ١١٠٦ والسنة ١١٠٩ وطرق جبايتها . وعدل اليكسيوس في فرض الضرائب وجبايتها فقلّ الاعفاء وتساوى القوم[2]. وكثر دخل الخزينة فأورث الفسيلفس ابنه جيشاً منظماً مدرباً ومالاً وافراً[3].

اليكسيوس والدين والكنيسة : وكان اليكسيوس شديد الورع والتقوى وكان يحب علم اللاهوت ويناقش فيه ويؤلف في بعض مسائله . وكانت ابنته حنّة صاحبة الاليكسياذة تعجب بسعة اطلاعه في هذا العلم وبتقواه فجعلته « ثالث عشر الرسل[4] » . ومما يروى عنه في هذا الشأن ان جنوده في ابان الثورة التي اوصلته الى العرش نهبوا العاصمة وسلبوا وسبوا . فهبّ اليكسيوس بعد ان استوى على عرشه يحمّل نفسه وافراد اسرته صوماً وتقشفاً وغير ذلك ليكفر عما جرى .

١ *Boullare, G., Un Ouvrage Recent sur l'Etat Byzantin, Rev. de Philologie, 1942.*

٢ *Chalandon, F., Alexis Comnène, 302.*

٣ *Diehl, C., Europe Orientale, 31-33.*

٤ *Anne Comnène, Alexiade, II, 300.*

وفي السنة الاولى من ملكه استقال البطريرك المسكوني قزما الاوروشليمي لانه كان قد قضى حياته كلها في الزهد بعيداً عن العالم ومشاكله فلم يرق له البقاء في سياسة الكرسي . ففي الثامن من شهر ايار ١٠٨١ أكمل خدمة القداس ثم قال لخادمه «هات المزامير واتبعني»، وترك الكنيسة وذهب الى ديره ولم يعد . فتولى السدة المسكونية بعده افستراتيوس . وكان قليل الثقافة ضعيف الارادة فسقط في بدعة يوحنا الايطالي وقال بتقمص الارواح ، فأنزله المجمع القسطنطيني عن كرسي الرئاسة وأقام بعده البطريرك نيقولاووس الثالث الملقب بالغراماتيكوس . وكان عالماً كبيراً وراهباً باراً وديعاً تقياً . فساس السدة القسطنطينية سبعة وعشرين عاماً . وتوفي شيخاً طاعناً في السن في السنة ١١١١ . وكان يوحنا الايطالي الاستاذ الاول و «قنصل الفلاسفة» في جامعة القسطنطينية . وكان افلاطونياً في فلسفته يكبر رجال الفكر الكلاسيكي فيقدمهم على بعض آباء الكنيسة . وكان يقول فيما يظهر بأزلية المادة وازلية الافكار ، وبتناسخ الارواح وتقمصها . وفي السنة ١٠٨٢ شكاه البعض الى الفسيلفس ، فأمر بالتحقيق معه ، ثم بمثوله امام المجمع المقدس . فاعترف يوحنا بركوبه متن الشطط في بعض النقاط ولكنه أصرّ على غيرها وامتنع عن التراجع عما اعتقده حقاً ، فحرمه المجمع . ولكنه لم يضايق تلامذته واتباعه فبقيت هذه الافكار الافلاطونية شائعة في الاوساط العلمية العالية في القسطنطينية وظل اللقب «محب افلاطون» لقباً مشرفاً في عاصمة الروم[١] . وقام بعد ذلك الراهب المصري نيلوس تلميذ يوحنا الايطالي يعلم في القسطنطينية ان جسد المخلص تأله حالما اتحد باللاهوت فحرمه المجمع القسطنطيني في السنة

١ *Uspenski, T., Jean Italos, Bull. Inst. Russe de Constantinople, 1897 ; Oeconomus, L., Vie Réligieuse au Temps des Comnènes, 18 ff ; Bréhier. E., Hist. de la Phil., I, 627 ff.*

١٠٩٤ وحرم اتباعه[١].

وكان قد رغب بعض اسلاف اليكسيوس من اباطرة القرن الحادي عشر في اصلاح الرهبنات ، فأقطعوا بعض العلمانيين الاكفاء اديرة معينة واوقافها ووكلوا اليهم أمر ادارتها وذلك لكي ينقطع الرهبان والراهبات فيها للتعبد وعمل الخير . وعُرف هذا النوع من الاقطاع بالخريستيخة . فعممه اليكسيوس ليرضي به بعض كبار الرجال من أهل السياسة وليزيد دخل الخزينة . ولكن هذا التعميم ادى الى امتعاض شديد في بعض الاوساط الدينية . فقد جاءَ في ذكريات يوحنا الانطاكي ان هؤلاء الملتزمين العلمانيين اكلوا الاخضر واليابس ومنعوا عمل الخير وقتّروا على الرهبان فيما يأكلون ويشربون وتصرفوا بالاوقاف كأنها املاكهم الخاصة . وجاؤوا بذويهم واصدقائهم الى الاديرة واكلوا وشربوا وغنّوا مـا لا يليق ، وافسدوا حياة الرهبان وسلوكهم[٢].

وسمع اليكسيوس هذا واكثر منه ولكنه أبقى على نظام الخريستيخة لانه اوقف توسع اوقاف الاديار وزاد في دخل الخزينة . وحاول ان يصلح الرهبان ، وعلم باندفاع احدهم الراهب خريستوذيلوس في هذا السبيل ، فقربه اليه وشمله بعطفه وشجعه على انشاء دير نموذجي في جزيرة باتموس . وفي السنة ١٠٨٨ وهب هذا الدير الجديد جميع مـا في الجزيرة وأعفى جميع اوقافه من الضرائب ورفع عنه سلطة البطريرك[٣]. وأظهر الفسيلفس اهتماماً مماثلاً في شؤون الكهنة خدام الرعية ، فأمر بوجوب تقيدهم بقواعد

١ *Draeseke, Zu Eustratios, Byz. Zeit., 1896, 323 ff.*

٢ *Patrologia Graeca, Vol. 132, cols. 1117-1149.*

٣ *Miklosich et Muller, Acta et Diplomata Graeca, VI, 44-48 ; Dolger, F., Regesten, 1147 ; Oeconomus, L., op. cit., ch. VIII.*

السلوك وبانتقاء الصالحين من العامة للقيام بهذه الخدمة الشريفة وبوجوب تثقيفهم وتنوير عقولهم .

اقتراب الاجل : وكبرت حنّة الفسيلسة الوالدة (حنّة دلسانة) وتنحت عن السياسة (١١٠٩) فجاءَ دور كنتها ايرينة الفسيلسة . وكان اليكسيوس قد بدأ يشكو من داء المفاصل . فعنيت به ايرينة عناية فائقة فاعترف بجميلها . وراقبت سير السياسة في القصر مراقبـــة مجدية ونقلت اخبارها بامانة الى الفسيلفس . فشكر لها هذه الامانة ايضاً . ولكنه شعر في الوقت نفسه بميلها نحو ابنتهما حنة وصهرهما نيقيفوروس بريانوس وتأييدها لهما في سعيهما للوصول الى العرش بعده ، فأمر بوجوب بقائها معه . فكانت تنتقل معه حيثما توجه في خارج العاصمة . وفي السنة ١١١٨ أحس باقتراب الاجل فاستدعى ابنه يوحنا اليه وألبسه خاتم الملك وأمر بتتويجه فسيلفساً . فكان له ذلك . ثم توفي بعد قليل في السادس عشر من آب سنة ١١١٨[١] .

١ *Zonaras, Epitome, III, 761 ff; Chalandon, F.,op. cit., 273-274.*

الفصل الثلاثون

خلفاء اليكسيوس كومنينوس

(١١١٨ - ١١٨٥)

يوحنا الثاني: (١١١٨ - ١١٤٣) وكان يوحنا في الثلاثين من عمره عندما تبوأ عرش والده. وجاءَ في الاليكسياذة لشقيقته حنّة انه كان قصيراً، صغيراً، اسمر اللون، عريض الجبهة، أسود العينين، ضامر الوجه. ومن هنا لقبه «المغربي». وأجمع شعبه على حبه واحترامه للطفه ودماثة اخلاقه ورحابة صدره وكرمه وتأدبه واستقامته فأطلقوا عليه لقباً آخر وعرفوه به هو «يوحنا الصالح» Caloyan. وكان كسائر افراد اسرته جندياً كاملاً حازماً عادلاً جريئاً شجاعاً يشارك جنوده المشقة ويسهر على راحتهم. وكان يشعر بمسؤولية الحكم ويحافظ على وقاره ويسعى سعياً حثيثاً للدفاع عن كرامة الدولة[١].

وليس لدينا لتاريخ الروم في عهد هـذا الرجل الصالح من المراجع الاولية ما يمكننا من التوسع في اخبـاره وفهمه فهماً كافياً. فحنّة صاحبة الاليكسياذة وقفت فيما يظهر في روايتها عنـد وفاة والدها.

١ *Nicetas Choniates, Historia, 45, 63, 64; Anne Comnène, Alexiade, II,63; Vasiliev, A. A., Byz. Emp, 375-376.*

وقناموس Cinnamus ونيقيتاس مؤرخا القرن الثاني عشر عُنيا باخبـــار عمانوئيل الاول ابن يوحنا . وما جاء في كتابيهما عن يوحنا انما ورد مقدمة" لاخبار عمانوئيل . ويجوز القول ان يوحنا الثاني سعى لاعمار الدولة فاستقدم بعض العناصر الجديدة وانشأ لهذه الغاية بعض القرى والدساكر . ويستدل من الخريسوبولة التي أصدرها لانشاء دير البانتوقراتور Pantocrator انه سعى ايضاً لتخفيف البؤس والشقاء والعَوَز . ولكن همه الاول كان فيما يظهر اعلاءَ شأن الدولة وتدعيم كرامتها[١].

اخباره في اووربة : وفي السنة الثالثة من حكمه عبر البتشناغ الدانوب وانتشروا في البلقان مخربين ناهبين . ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف في وجه جيش منظم مـدرب . فخسروا معركة بيرودة وانقطعت اخبارهم . وتدخل يوحنا في امور الصرب تدخلاً فعلياً فأقام عـلى هؤلاء امراء موالين له مخلصين للروم كل الاخلاص .

وعـــلى الرغم من ان زوجته الفسيلسة كانت اميرة مجرية فان طمع بعض الزعماء المجريين في الوصول الى ساحل الادرياتيك عن طريق البلقان والتقارب بين هؤلاء وبعض الزعمـــاء الصربيين أوجب اللجوء الى القوة لابقاء المجريين ما وراء الدانوب . وتفوق الجيش البيزنطي المدرب عـــلى العشائر المجرية وأنزل بهم خسائر جمة ولكن هذا كله لم يحل المشكلة المجرية حلاً دائماً[٢].

وكبُر على يوحنا الثاني ان يدفع للبنادقة المال السنوي الذي كان قد أقره والده في اثناء محنته ، وأعلن البنادقة الحرب وأنفذوا اسطولهم الى مداخل الادرياتيك والى بحر ايجه فاحتلوا كورفو ورودوس وخيوس

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 40-41.*

٢ *Regel, W., Fontes Rerum Byzantinarum, II, 334.*

في السنة ١١٢٤ وساموس ولسبوس واندروس ومودونة في المورة سنة ١١٢٥ وقيفالونية في السنة ١١٢٦ . فاضطر يوحنا الى ان يعترف بمعاهدة السنة ١٠٨٢ وان ينفذ شروطها . ورأى يوحنا ان يوثق علاقـــاته مع بعض المدن الايطالية الاخرى ليحد من نفوذ البنادقة ، فأقر لتجار بيزة امتيازاتهم في السنة ١١٣٦ ودخل في تعاون مماثل مع تجار جنوى في السنة ١١٤٢ . ومن هنا ما جاءَ في تاريخ نيقيتاس من ان مراكب ايطاليـة سارت مبسوطة القلوع نحو ام المدن[١].

حروبه في آسية : وكان يحيط بملكه في آسية إمارات تركيـــة سلجوقية ثلاث : مسعود في قونية وما جاورها ، وملك غازي في سيواس وجهاتها ، وطغرل أرسلان ابن قلج أرسلان في ملاطية وتوابعها . وكان السلطان مسعود يهدد وادي المياندر وسهل دوريلة لايجاد المراعي اللازمة لجموعـه الرحل . اما ملك غازي فانه كان يطمع في مرافىء البحر الاسود . وكان طغرل لا ينفك عن الاغارة على سواحل ادنة وسائر قيليقية . فهبّ يوحنا في السنة ١١١٩ الى قلب آسية الصغرى ، الى حدود سلطنة مسعود ، فاحتل لاذقية الاناضول وانشأ فيها حصناً منيعاً يسيطر به على وادي المياندر[٢]. وفي السنة ١١٢٠ استولى على سوزوبوليس Sozopolis فتيسر له تأمين المواصلات مع اضاليـة في الجنوب[٣]. وفي كانون الاول من السنة ١١٢٤ هجم كل من السلطان مسعود وملك غازي على امارة طغرل في ملاطية فاكرهاه على الالتجاء الى يوحنا[٤]. ثم دب الشقاق في سلطنة قونية فثار عرب على

١ *Nicetas Choniates, Historia, 25; Dolger, F., Regesten, 1304.*

٢ *Chalandon, F., Les Comnènes, II, 45-47.*

٣ *Cinnamus, J, Historia, I, 2.*

٤ *Historiens des Croisades, (Arm.), I, 142*

اخيه مسعود فالتجأ هذا الى القسطنطينية . ثم تعاون مسعود وغازي على عرب ، فاكرهاه على اللجوء الى القسطنطينية[١]. فعظم أمر ملك غازي واتسع سلطانه واشتدت مطامعه في ساحل البحر الاسود وفي وادي الفرات . فحاربه الفسيلفس اكثر من مرة بين السنة ١١٣٢ والسنة ١١٣٥ واستولى على قسطموني وعلى جميع شاطىء البحر الاسود . وبعد وفاة ملك غازي في السنة ١١٣٤ صادق الفسيلفس السلطان مسعود واتجهت انظاره نحو قيليقية[٢]. وفي السنة ١١٣٧ حشد يوحنا قوة كبيرة في اضالية . وبعد ان وصل اليها بحراً قام على رأسها الى قيليقية فأبعد عنها اميرها لاوون الارمني واولاده واحتل مدنها وسهولها . وفي السنة التالية التي القبض على لاوون واولاده وارسلوا مخفورين الى القسطنطينية[٣].

وكانت مشكلة انطاكية لا تزال قائمة تنتظر حلاً لائقاً . وكان قد توفي بوهيموند الاول في ايطالية كما سبق ان أشرنا . وكان قد قتل في الميدان كل من تنكريد الصقلي (١١١٢) وبوهيموند الثاني (١١٣٠) وتولى الوصاية على قسطندية ابنة بوهيموند الثاني روجه السالرنوي Roger de Salerne . فارتأى يوحنا الثاني ان يُزوج ابنــه عمانوئيل من قسطندية . ووافقت والدة الاميرة الوريثة . ولكن فولك دانجو ملك القدس ازوج الاميرة من ريمون قومس بواتييه . فغضب يوحنا الثاني لكرامته . وكان عمــاد الدين زنكي حاكم الموصل احد اتابكة السلاجقة يتأهب للاغارة عــلى دول الافرنج . فما كاد يستولي عــلى Montferrand في بعرين في تلال النصيرية المطلة في حماه ويحصر فيهــا ملك القدس وقومس طرابلس حتى

١ *Michel le Syrien, III, 223-224.*

٢ *Michel le Syrien, III, 227, 232-237.*

٣ *Nicetas, Choniates, Historia, 6-7 ; Chalandon, F., Les Comnènes, II, 107-118.*

ظهر يوحنا امام اسوار انطاكية (آب ١١٣٧) . فحاصرها فسقطت في يده فرفع علمه على قلعتها وأكره اميرها ريمون على يمين الولاء والطاعة[١]. وفي السنة ١١٣٨ زحف على حلب بجموعه وجموع الافرنج الموالين له فلم يتمكن من دخولها . وحاصر شيزر على العاصي ثلاثة اسابيع (٢٦ نيسان – ٢١ ايار) فلم يقوَ عليها[٢]. فعاد الى انطاكية ليجابه ثورة دبرها له امير الرها جوسلان Jocelin . فقام الى القسطنطينية ممتعضاً[٣].

ولم يتمكن يوحنا من العودة الى ميدان القتال في سورية لان محمداً ابن ملك غازي أغار على حدود الدولة الشرقية . فصده يوحنا في السنة ١١٣٩ ثم تأثره داخل حدوده محاولاً الاستيلاء على حصن قيصرية الجديدة الذي انشأه محمد فلم يفلح واضطر الى ان يعود الى عاصمته في اواخر السنة ١١٤٠ .

وتوفي محمد وتنازع الحكم بعده ابناؤه وغيرهم . فأعد يوحنا حملة جديدة قام بها الى انطاكية ليؤسس امارة لابنه عمانوئيل تشمل قبرص واضالية وما جاورها حتى انطاكية[٤]. وفي شتاء السنة ١١٤٢ تقبل خضوع جوسلان Jocelin قومس تل باشر وتقدم نحو انطاكية واضطر الى ان يحاصرها . وكتب الى فولك ملك القدس انه ينوي زيارة الاماكن المقدسة بجمعه . فأجاب فولك انه يتعذر عليه ايجاد المؤن اللازمة لجيش صديقه الكريم . فكتب يوحنا ثانية مبيناً انه لا يمكنه القيام الى القدس

١ *Dolger, F., Regesten, 1314.*

٢ *Cinnamus, J., Historia, I, 8; Grousset, R., Hist. des Crois., II, 100- 111.*

٣ *Chalandon, F., op. cit., II, 151-152 ; Grousset, R., op. cit., II, 121-123.*

٤ *Cinnamus, J., Historia, I, 10 ; Chalandon, F., op. cit., II, 184.*

دون حرس لائق برتبته ومكانته . ثم عدل عن هذه الزيارة[١]. وقام من انطاكية الى قيليقية لتمضية الشتاء . وفي اثناء اقامته فيهـا أصابه سهم مسموم في اثناء الصيد ، فشعر باقتراب الاجل . فنظر في ولاية العرش . وكان ابناه الاكبران قد توفيا ولم يبقَ من اولاده الذكور الاربعة سوى اسحق وعمانوئيل ، فولى الاصغر عمانوئيل وقام الى القسطنطينية وتوفي فيها في الثامن من نيسان سنة ١١٤٣[٢].

عمانوئيل الاول : (١١٤٢ – ١١٨٠) وخشي عمانوئيل مطامع عمه اسحق الذي كان قد تآمر مراراً على اخيه يوحنا واضطر الى ان يلجأ الى الاتراك . وكان لا يزال آنئذٍ منفياً في هرقلية . وخشي ايضاً اخاه اسحق الذي كان اكبر منه سناً وأحق في الملك . ولكن ولاءَ الشعب لوالده يوحنا ومقدرة وزيره الاول يوحنا اخوخ[٣] ضمنا له الوصول الى العرش سالماً ساكناً . وكان قد بقي في اضالية حتى منتصف السنة ١١٤٣ فقـام الى القسطنطينية وتقبل التاج من يد البطريرك المسكوني في كنيسة الحكمة الالهية كالعادة .

وكان عمانوئيل طويل القامة قوياً جميل الطلعة طلق المحيا أسمر اللون فاتن العينين . وكان مُعجباً بقوته وفروسيته يستغل كل ظرف لاظهار ما أوتي منها . فذاع صيته في الآفاق وبلغت شهرته الداني والقـاصي . ومما يروى من هذا القبيل انه تقلد أثقل الاسلحة وان امراءَ الصليبيين سمعوا بذلك فلم يصدقوه . وأتيح لامير انطاكية ان يمثل امام الفسيلفس الجبار . وشاهد هذا السلاح الثقيل فأراد ان يتثبت من نوعه ووزنه ، فطلب

١ *Dolger, F., Regesten, 1324; Grousset, R., op. cit., II, 150-152.*

٢ *Cinnamus, J., Hist., I, 10; Grousset, R., op. cit., II, 152-154.*

٣ *Chalandon, F., Les Comnènes, II, 19.*

الى الفسيلفس ان يسمح له بحمل رمحه وترسه . وما ان فعل حتى أعجب بما أوتي الفسيلفس من قوة وعظمة . فاعاد السلاح مؤكداً ان صاحبه كان في الواقع جباراً ، واعتذر عن تطفله[1]. وكان الفسيلفس الجديد جندياً رائعاً مدهشاً يجيد ركوب الخيل ويشاطر جنوده التعب وشظف العيش ويجوع لمعونتهم غير مبالٍ بالتعب او الخطر . ومما جاءَ من هذا القبيل انه رمى بنفسه مرة في نهر الدانوب لينقذ مركباً أشرف على الخطر وفيه عدد من الجنود . وقد جاءَ ايضاً انه كان يهرع الى حصانه احياناً فيمتطيه ويسرع به لمطاردة العدو قبل ان يستكمل سلاحه . بيد ان توقد عاطفته الذي ألهب فيه هذا النوع من الشجاعة غضى من قيمته كقائد عسكري . فقد كانت الصعوبات في ميدان القتال توهن عزائمه وتثبط همته فتؤدي به الى التضعضع والتراجع .

وأعجب عمانوئيل بالفرسان الصليبيين وبصلابتهم وبأسهم ، فجاراهم في عاداتهم وتقاليدهم الحربية . ووكل الى بعضهم ادارة شؤون الدولة ، وأدخل غيرهم في الجيش وقلدهم مناصب هامة . وأكبروا هم فيه مواهبه الحربية ومقدرته الجسدية وثقته بهم . وتدرب هو على اساليبهم الحربية . وراقته مبارياتهم في الفروسية ، فأقامها كما كانوا يقيمونها ، وباراهم فيها في انطاكية ، فقلب الكثيرين منهم عن سروج خيولهم[2].

وخالف عمانوئيل اباه يوحنا في بذخه ومرحه . وأصبح البلاط في عصره كثير الحفلات زاهياً رائعاً ، تؤمه الظريفات الجميلات من جميع انحاء الدولة ، وتكثر فيه المغازلات والمغامرات . وكان الفسيلفس يحب الجمال والاناقة والرشاقة فعني بهن بغير حساب . وضاقت نفسه بزوجته

١ *Cinnamus, J., Hist. I, 125.*
٢ *Diehl, C., Europe Orientale, 51-52.*

برتة الالمانية التي لم تتزين ولم تتدلس ولم تتغنج ، فمال نحو ثيودورة احدى قريباته . ثم تزوج من مريم الانطاكية الافرنجية التي فاقت افروديتة «بعينيها الساحرتين وشعرها الذهبي وابتسامتها العذبة وجسمها الفتان[1]» . وألمّ بالفسيلفس مرض واشتدت وطأته عليه وفقد الاطباء كل أمل في شفائه ، فطلب اليه وزراؤه تعيين خلفه وأشار عليه البطريرك المسكوني بالندامة والصلاة . ولكن عمانوئيل أكد لهؤلاء جميعاً ان المنجمين كشفوا له بخته وقالوا انه سيعيش اربع عشرة سنة وانه سيعود اليه نشاطه وسابق حبه ومغامراته[2]!

وتميز عمانوئيل بين زملائه في الشرق والغرب معاً بعلمه وادبه وسعة اطلاعه . فانه كان يقرأ كثيراً ويكتب جيداً ويجد لذة خاصة في الفلسفة فيجادل فيها بنجاح . وكان مولعاً بالطب يجالس رجاله ويباحثهم فيه ويمارسه . فهو الذي عالج كونراد الثالث في اثناء الحرب الصليبية الثانية. وهو الذي قدم الاسعاف الاولي لبودوان ملك القدس عندما وقع عن ظهر حصانه في اثناء الصيد فكسر ذراعه . وكان موقفه من الدين وعلومه موقف كل فسيلفس ارثوذكسي قبله وبعده . فانه أظهر رغبة في بحث المشاكل العقائدية وقام بجميع الفروض الطقسية . وانشأ الكنائس والاديرة. واهتم بنوع خاص بكنيسة دير البانتوقراطور الجميلة وأحب ان يدفن فيها هو وسائر افراد اسرته[3].

واتسعت آفاق عمانوئيل السياسية وطمع في ايطالية وصقلية وفي امارات الشرق اللاتينية، فكثر عدد دعاته وجواسيسه. وتدخل في امور وامور فأصبحت

١ *Nicetas Chaniates, Hist., 151.*

٢ *Nicetas, op. cit., 286.*

٣ *Cinnamus, J., Hist., 190, 291.*

القسطنطينية مركزاً هاماً جداً للسياسة الدولية في القرن الثاني عشر. وأثارت مطامعه هذه مخاوف شديدة في بلاط فريديريكوس بارباروسة وابنه هنريكوس السادس كما ايقظت روح العداء بين الروم والصليبيين. ولم يرضَ الروم عن عطفه على الغربيين وادخالهم في ملاك الادارة وتقليدهم المناصب الهامة فقاموا عند وفاته بثورة واسعة النطاق ادت الى تواري زوجته مريم اللاتينية وابنه والى ذبح الايطاليين في العاصمة.

مشكلة انطاكية: وانتهز ريمون دي بواتييه امير انطاكية فرصة وفاة يوحنا الثاني فاحتل بعض الاماكن داخل حدود الروم في سورية الشمالية وأغار على قيليقية. فاضطر الفسيلفس عمانوئيل ان ينفذ حملة عسكرية الى انطاكية نفسها، واضطر ريمون بدوره ان يقوم بنفسه الى القسطنطينية ليطلب العفو عما صدر عنه كما اضطر ان يزور قبر يوحنا الثاني ويركع امامه تكفيراً وتعظيماً (١١٤٥)[١].

سلطنة قونية: وضعفت امارة ملك غازي في شرقي آسية الصغرى وطمع سلطان قونية مسعود فيها فالتجأ اميرها الى الفسيلفس طالباً المعونة. فقام عمانوئيل في السنة ١١٤٦ الى قونية مخرباً مدمراً. فأكره سلطانها على شروط معينة مرضية. وعاد الى القسطنطينية يتدبر أمر الحملة الصليبية الثانية التي كانت قد بدأت تتحرك متجهة نحو الشرق[٢].

الحملة الصليبية الثانية: (١١٤٧ – ١١٤٩) وهال الغرب سقوط الرها في يد عماد الدين زنكي في السنة ١١٤٤ وهبَّ القديس برناردوس يطوف اوروبة الغربية مستنهضاً مستثيراً الهمم، فلبى النداء ملوك اوروبة هذه المرة لا أمراؤها كما في الحملة الاولى. وتزعّم القيادة كونراد الثالث

١ *Cinnemus, J., Hist., II, 3; Groussel, R., Croisades, II, 172-173.*

٢ *Cinnemus, J., op. cit., II, 4-10; Dolger, F., Regesten, 1343-1346, 1352.*

امبراطور المانية (١١٣٨ — ١١٥٢). وكتب البابا اوجانيوس الثالث الى عمانوئيل يدعوه الى الاشتراك في الجهاد. وأرسل لويس السابع ملك فرنسة وفداً خاصاً لهذه الغاية نفسها. فاجاب عمانوئيل مرحباً واعداً بتقديم المؤن والمراكب والمعونة العسكرية اذا سمحت الظروف بذلك. وكثر القيل والقال في عاصمة الروم حول عدد المجاهدين. واجمعت الآراء على ان الحملة الصليبية الثانية ستشتمل على مئة واربعين الف فارس وعددٍ لا يحصى من المشاة وان مجموع القوى قد يقارب المليون. واضطرب عمانوئيل في قرارة نفسه وحسب الف حساب. ولم يخشَ طمع الالمان لان والده كان قد وطّد العلاقات معهم ووقع تحالفاً أصبح ركن سياسة القسطنطينية في علاقاتها الدولية، ولانه هو كان قد تزوج في السنة ١١٤٦ من اميرة المانية تمت الى الامبراطور بصلة النسب. ولكنه خشي جموع الفرنسيس لان لويس السابع كان يعطف كثيراً على النورمنديين الايطاليين اعداء الروم ولأن امراء انطاكية والقدس كانوا فرنسويين.

ووصل الالمان اولاً وكانوا قد نهبوا ذات اليمين وذات الشمال في اثناء مرورهم في اراضي الروم، فطلب عمانوئيل الى كونراد ان يعبر جنوده الدردنيل لا البوسفور في طريقهم الى آسية. ولكن كونراد رفض وتابع سيره نحو القسطنطينية. وحطت رحال جنوده خارج اسوارها وسلبوا ونهبوا وأحرقوا. ولم يرضَ كونراد عن التقاليد المتبعة في التشريفات في القصر المقدس، فساءت العلاقات بين الكبيرين. ولكن عمانوئيل تمكن من اقناع ضيفه الكبير بوجوب الانتقال الى آسية ومتابعة السير نحو الاراضي المقدسة[١]. وبعد هذا بقليل في خريف السنة ١١٤٧ أطلّ لويس

١ *Chalandon, F., Comnènes, II, 271-281 ; Grousset, Croisades, II, 230-232.*

السابع بجموعه فحلّ ضيفاً مكرماً على القسيلفس . واشترك الضيف والمضيف في عيد القديس دنيس في التاسع من تشرين الاول . وساد الحب والتفاهم الاحاديث والعلاقات كلها . ثم طلب عمانوئيل الى لويس السابع وامرائه وأشرافه ان يقسموا يمين الطاعة والولاء كما فعل امراءُ الحملة الاولى . فلم يرضَ الملك الافرنسي بذلك وشاركه في الرفض جميع حاشيته من كبار الرجال . وارتأى احد الاساقفة الافرنسيين ان يصار الى احتلال القسطنطينية ، ولكن لويس أبى مذكراً الاسقف وغيره بالنذر الصليبي[1].

واصطدم كونراد بالاتراك السلاجقة عند دوريلة ولم يتمكن من مجابهتهم . فجعل عمانوئيل انكساره نصراً . وما ان سمع الافرنسيون بهذا « النصر » حتى هموا بالرحيل ليتسنى لهم الاشتراك بالنصر . وعبروا البوسفور واتجهوا جنوباً حتى اضالية فانهكهم التعب وقل انتظامهم . فقام لويس على رأس قسم من جموعه الى الاراضي المقدسة على متن مراكب رومية واتجه الباقون براً بدون انتظام . وكان عماد الدين زنكي قد خرّ صريعاً بضربة خنجر في السنة ١١٤٦ فتمكن الامير جوسلان الصليبي من الاستيلاء على الرها . ولكنه لم يتمكن من صد غارات نور الدين على اراضيه . فلما وصل ملوك الفرنجة الى سورية الشمالية رأى ملك القدس بودوان الثالث ان يتجه الملوك المجاهدون نحو دمشق . فوصلوا اليها في تموز السنة ١١٤٨ وأحاطوا بها وخرّبوا غوطتها ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على المدينة . وأخفقت الحملة الصليبية الثانية وعزا امراؤها هذا الاخفاق الى عمانوئيل وحكومته . وعادوا الى الغرب يعدون العدة لحملة ثالثة توجه ضد الروم انفسهم[2].

١ *Etudes de Deuil, Ludovici VII, 1220-1227.*

٢ *Groussel, R., Croisades, II, 250-268.*

الحرب النورمندية : (١١٤٧ – ١١٥٨) وكان روجه الثاني قد خلف روبر غيسكار في صقلية وجنوبي ايطالية . وكان يحلم منذ تتويجه في بالرمو في السنة ١١٣٠ بتوسع كبير عبر الادرياتيك . وما ان ابتلي عمانوئيل بمشاكل الحملة الصليبية الثانية في صيف السنة ١١٤٧ حتى أعلن روجه الحرب عليه واحتل كورفو . ثم قام منها الى المورة وما فتىء حتى احتل كورونثوس . وكثرت غنائمه ونقل فضة وذهباً كثيراً . ولكن افضل ما وقعت يده عليه صناعة الحرير التي كانت لا تزال سراً من الاسرار خارج لبنان والمورة . فنقل الى صقلية عدداً كبيراً من سكان مناطق التوت ودود الحرير الى صقلية ، فانهى بذلك احتكاراً كبيراً كانت القسطنطينية قد تمتعت به زمناً طويلاً .

ولم يتمكن عمانوئيل من صد روجه فور نزوله في كورفو والمورة لانشغاله بمشاكل الحملة الصليبية الثانية . واول ما فعل انه اتصل بالبنادقة وعقد معهم تحالفاً جديداً ضد روجه وذلك في خريف السنة ١١٤٧ ، ثم أعقبه بتحالف آخر في آذار السنة التالية . وقضى هذا التحالف بان يشترك البنادقة في صد روجه عن مطامعه مقابل امتيازات تجارية جديدة يمنحهم اياها الفسيلفس . وأهم هذه الامتيازات فتح مرافىء قبرص وردوس لتجارتهم وتوسيع منطقة اقامتهم في عاصمة الدولة[١] . وفي اواخر السنة ١١٤٨ ضرب الروم والبنادقة الحصار على كورفو واستولوا عليها في صيف السنة ١١٤٩ وأنزل اسطول الروم باسطول النورمنديين هزيمة كبيرة عند رأس مالي . فنزعت نفس عمانوئيل الى صقلية وايطالية الجنوبية لا بل الى جميع ايطالية . وتمكن الفسيلفس من احتلال انكونة في السنة ١١٥١ . فهب روجه

١ Dolger, F., *Regesten*, 1365, 1373.

يفتش عن حلفاء يعاونونه في الدفاع عن ملكه . فلقي استعداداً كبيراً لذلك لدى حبر رومة اوجانيوس الثالث وترحيباً حاراً في عاصمة الفرنسيس . وأثار الصربَ على الروم . وتراءى لبعض رجال السياسة ان الحرب الرومية النورمندية ستصبح حرباً اوروبية عامة لان الامبراطور الغربي كونراد الثالث كان لا يزال يؤيد الروم تأييداً شديداً .

وتوفي كونراد الثالث في السنة ١١٥٢ وتولى العرش بعده فريديريكوس الاول بارباروسه (١١٥٢ - ١١٩٠) . وكان يطمع في الاستيلاء على ايطالية فلم يندفع في تأييد الروم اندفاع سلفه كونراد الثالث بل تقرب من البابا اوجانيوس الثالث فتفاهما . ولم ترضَ البندقية عن احتلال انكونة ورأت في مطامع عمانوئيل في ايطالية خطراً على مصالحها في الادرياتيك ووقعت صلحاً منفرداً مع النورمنديين في السنة ١١٥٤ . وتوفي روجه في هذه السنة نفسها وخلفه على العرش وليم الاول . وخشي وليم مناوأة كبار النورمنديين له فأرسل يفاوض عمانوئيل في الصلح . فلم يقبل الفسيلفس ولم يعترف بالملك الجديد . ثم وقع حلفاً مع جنوى في خريف السنة ١١٥٥ وأنزل جيشاً في ايطالية الجنوبية واستولى على باري وتراني وحاصر برنديزي . ثم غُلب على أمره فيها ووقع قائد جيوشه في الاسر . وتغلب النورمنديون عليه في موقعة بحرية في بحر ايجه بالقرب من شبه جزيرة إفوبية . وخشي البابا ادريانوس الرابع مطامع فريديريكوس الاول في ايطالية فتدخل في النزاع الناشب بين الروم والنورمنديين وألح بوجوب انهاء الحرب في ايطالية . وكان الفسيلفس يرغب في استمالة البابا ويخشى في الوقت ذاته تطور الموقف في البلقان وفي سورية الشمالية فقبل بالصلح ووقع مع وليم الاول معاهدة لهذه الغاية في السنة ١١٥٨ . ولا نعلم تفاصيل هذه المعاهدة . وجل ما نعلمه عنها انها شملت تحالفاً بين الروم والنورمنديين لمدة ثلاثين عاماً . ولعل هذا التحالف كان موجهاً

ضد فريدريكوس ومطامعه في ايطالية .

الفسيلفس سيد سورية وفلسطين ولبنان : وفشل الصليبيون في حملتهم الثانية . وقتل ريمون امير انطاكية في الحرب ضد المسلمين في السنة ١١٤٩ فشمل الفسيلفس ارملته قسطنسة بعطفه وحمايته . وعلى الرغم من عدم انصياعها له في أمر زواجها واقدامها على التزوج من رينو دي شاتيون فانه ظل يعتبر نفسه سيد انطاكية وتوابعها . وفي السنة ١١٥٠ اندثرت قومسية الرها . فشمل الفسيلفس اميرتها بعطفه وعرض عليها ابتياع حقوقها فيها[١]. وفي السنة ١١٥٢ ثار طوروس ابن لاوون الارمني على عمانوئيل Thoros واعتصم بتلال قيليقية واستولى على طرسوس وغيرها . فاستعان عمانوئيل برينو امير انطاكية ووعده بمكافأة مالية جزيلة . فجرد رينو حملة على طوروس وكاد يضايقه ، ولكنه شعر ان مكافأة الروم قد تكون غير كافية فانضم الى طوروس وتعاون معه في اغارة كبيرة على قبرص (١١٥٦)[٢]. فاستشاط الفسيلفس غيظاً . وجاءت معاهدة السنة ١١٥٨ تنهي الحرب في ايطالية فنهض عمانوئيل بنفسه الى قيليقية فاخضع طوروس ثم أنفذ رجاله الى انطاكية . فخشي رينو عاقبة خيانته والتجأ الى سيده بودوان الثالث ملك القدس طالباً توسطه في الامر . ولكن بودوان كان قد ساءه تصرف رينو وكان قد صاهر الفسيلفس فلم يجب سؤله . فحار رينو في أمره ، ولما لم يجد من يعينه أمّ مصيصة مقر عمانوئيل في قيليقية أعزل ، عاري القدمين ، حاسر الرأس ، ممسكاً بسيفه من طرف نصلته ، وارتمى عند موطىء قدمي الفسيلفس . وما فتىء كذلك حتى أمره عمانوئيل بالنهوض فنهض واعترف بسيادة الفسيلفس ثم رضي بتسليم قلعة انطاكية وبعودة

١ *Schlumberger, G., Renaud de Chatillon, Prince d'Antioche.*

٢ *Chalandon, F., Les Comnènes, II, 435-439.*

البطريرك الارثوذكسي الى مقره فيها[1]. ووفد على الفسيلفس في انطاكية ملك القدس بودوان الثالث فاعترف بسيادة عمانوئيل ايضاً ووعد بتقديم المساعدة العسكرية التي يتطلبها سيده منه[2]. وقام الفسيلفس الى انطاكية فدخلها ممتطياً حصانه يواكبه رينو وغيره من امراء الصليبيين مشياً على الاقدام . ثم دخلها بعده ملك القدس ممتطياً جواده ولكن دون اية شارة من شارات الملك والسيادة . وفي اثناء اقامته في انطاكية فاوض عمانوئيل نور الدين امير حلب في أمر الاسرى الافرنج فأخلى سبيل ستة آلاف منهم . وتعهد نور الدين بتأمين سير الحجاج داخل منطقته[3]. وعاد عمانوئيل في السنة ١١٥٩ مكللاً بالظفر والمجد .

وظلت علاقات الروم مع الصليبيين حسنة طيبة حتى نهاية عهد عمانوئيل . وظل هو محافظاً على احترامه لامراء الفرنجة مكبراً فيهم مثلهم العليا في الفروسية طوال ايامه . وبعد وفاة زوجته الاولى برتة الالمانية اتجه نحو قصور هؤلاء الامراء يفتش عن فسيلسة جديدة . وكاد يجدها في طرابلس في شخص شقيقة اميرها الصليبي . ثم آثر الاقتران بمريم ابنة قسطنسة وريثة انطاكية فتزوج منها في السنة ١١٦١[4]. وفي السنة ١١٦٤ وقع بوهيموند الثالث في يد المسلمين اسيراً فتدخل عمانوئيل واطلق سراحه . فقام هذا الامير الصليبي الى القسطنطينية بشكر للفسيلفس صنيعه وتزوج من اميرة رومية . وفي السنة ١١٦٢ توفي بودوان الثالث ملك القدس فتسنم العرش بعده اخوه أموري . فتزوج هذا ايضاً من اميرة رومية

١ *Dolger, F., Regesten, 1430-1431.*
٢ *Dolger, F., Regesten, 1428-1429.*
٣ *Dolger, F., Regesten, 1432.*
٤ *Chalandon, F., op. cit., II, 517-524 ; Grousset, R., Croisades, II, 428-433.*

واعترف بسيادة عمانوئيل . وأنفق الفسيلفس على كنائس الاماكن المقدسة وآثارها واعترف الملك أموري بذلك وأقام النقوش تخليداً لاهتمام سيده . ولا تزال هنالك كتابة باليونانية تحفظ ذكر عمانوئيـــل في كنيسة بيت لحم حتى يومنا هذا . وقد جاءَ في مطلعها ما يدل على سيادة الفسيلفس . فان هذا النقش التاريخي يبدأ بالعبارة : « في عهد عمانوئيل ولما كان أموري ملك اورشليم[١] » . وتعاون الاثنان في حملة على دمياط في السنتين ١١٦٧ و١١٦٩ ولكن دون جدوى . ثم تحالفا لهذه الغـــاية[٢]. ولكن وجه صلاح الدين كان بدأ يتألق في سماء مصر اذ اصبح وزير الخليفة الفاطمي في السنة ١١٦٩ ، ثم خلفه على العرش في السنة ١١٧١ . ولما توفي نور الدين في السنة ١١٧٤ جمع صلاح الدين في شخصه امارة الموصل ومصر . وعلى الرغم من وصول اسطول رومي الى مياه عكة في السنة ١١٧٧ فان موقعة عسقلان كانت آخر نصر احرزه الصليبيون على صلاح الدين[٣].

المشكلة الايطالية : وعظم سلطـان هذا الفسيلفس في الشرق وكاد ان يكون صاحب القول الفصل في جميع ارجائه . ولكن مطـامعه في اوروبة أضاعت عليه النفوذ والعز والمجـد وأتاحت لصلاح الدين فرصة عسكرية ثمينة ظهرت نتائجها بعد وفاة عمانوئيل بمدة وجيزة .

وطمع عمانوئيل في ايطالية ونزعت نفسه الى مجد الاباطرة المؤسسين واعتبر كارلوس الكبير وخلفـاءَه في الغرب مغتصبين[٤]. فنشب نزاع بين عمانوئيل وبين فريديريكوس دام عشرين عاماً (١١٥٨ – ١١٧٨) . ففي السنة ١١٥٥ فاتح عمانوئيل البابا ادريانوس الرابع بأمر اتحاد الكنيستين

١ *Corpus Inscript. Graecarum, 8736; Vincent et Abel, Bethlehem, 156-161.*

٢ *Dolger, F., Regesten, 1481 : Bréhier, L., Byzance, 338-340.*

٣ *Grousset, R., Croisades, II. 636 ff.*

٤ *Cinnamus, J., Hist., 218-220.*

فوطد بذلك علاقته مع رومة . وأصبح الفسيلفس والبابا حليفين متحابين ضد فريديريكوس الامبراطور . وتوفي ادريانوس الرابع في السنة ١١٥٩ فرقي السدة الباباوية الكسندروس الثالث . فخشي فريديريكوس متابعة التعاون بين رومة والقسطنطينية . فأقام رأساً للكنيسة مناوئاً : فيكتوريوس الرابع . فانقسمت كنائس اوروبة الغربية شطرين بين هذين الرأسين . ووقفت كنيسة فرنسة وانكلترة والمجر والبندقية الى جانب الكسندروس الثالث . وراسل هذا الحبر عمانوئيل ووافقه فيما يظهر في نظرية الاغتصاب. فأكرم الفسيلفس الوفد الباباوي ووعده خيراً . وفي السنة ١١٦٣ أرسل عمانوئيل وفداً مفاوضاً الى عاصمة الفرنسيس ولكن لويس السابع آثر التريث . ولم تظهر البندقية اهتماماً مشجعاً ولكن عمانوئيل لم ييأس . فانه عندما نزل فريديريكوس الى ايطالية في السنة ١١٦٦ واضطر الكسندروس الثالث الى ان يخرج من رومة (١١٦٧) فاوض عمانوئيل هذا البابا في أمر التاج الغربي وأظهر استعداداً كبيراً لازالة الحواجز التي تفصل بين فرعي الكنيسة الام في حقل العقيدة شرط ان يضع هذا البابا التاج الغربي على رأس الفسيلفس . ورضي البابا بذلك ولكن الاكليروس الشرقي عارض معارضة شديدة فتردد البابا ثم امتنع[١].

عمانوئيل والكنيسة : وفي السنة ١١٥١ استعفى البطريرك المسكوني نيقولاووس الرابع فخلفه البطريرك ثيوذيتوس . ثم استعفى هذا ايضاً في السنة ١١٥٣ فانتخب بعده نيوفيطوس الاول . وتوفي هذا في السنة ١١٥٤ فرقي السدة المسكونية البطريرك قسطنطين الرابع الملقب بليخوذاس. وتوفي قسطنطين الرابع في السنة ١١٥٦ فخلفه البطريرك لوقا . وتوفي هذا في السنة ١١٦٩ فخلفه « مقدام الفلاسفة » البطريرك ميخائيل الثالث . ثم

١ *Norden, W., Papstum and Byzanz, 92-93.*

جاءَ بعده البطريرك خاريطون في السنة ١١٧٧ فالبطريرك ثيوذوسيوس الثاني سنة ١١٧٨ .

وكان لعمانوئيل مواقف تشهد له باندفاعه في سبيل العقيدة الارثوذكسية ، فانه ضايق البوليسيين كل المضايقة وأمر بمحاكمة زعيمهم نيفون الراهب (١١٤٧) . ثم اهتم لشذوذ ديمتريوس لامبه (١١٦٦) وعاقب الاساقفة الثلاثة الذين كانوا لا يزالون يقولون قول يوحنا الايطالي (١١٤٦ — ١١٥٧) وحاول محاولة جديدة للتوفيق بين كنيستي الارمن والسريان من الجهة الواحدة والكنيسة الارثوذكسية من الجهة الاخرى . ورأى قسوة جارحة في النص الذي كان يُفرض على المسلمين لقبولهم في الكنيسة فأمر بتعديله ضناً بحسن العلاقة بين المسلمين والنصارى[١].

سلطنة قونية : وكان يوحنا الثاني قد استفاد من انقسام الاتراك السلاجقة ومن مناظراتهم ومشاحناتهم . وكان هذا الانقسام قد دفع مسعوداً سلطان قونية الى الالتجاء الى القسطنطينية . وبعد السنة ١١٤٢ استفاد مسعود نفسه من الانقسامات التي نشبت في امارة سيواس فاضطر عمانوئيل الى ان يقوم بنفسه الى قونية في حملة حربية سنة ١١٤٦ . وفرَّ مسعود من وجهه واتجه شرقاً يستنفر عشائر التركمان . فخشي عمانوئيل اطالة الحرب . وعلم بتجمع الصليبيين في حملة ثانية فعاد الى القسطنطينية قبل ان يستولي على قونية . واراد عمانوئيل ان يدفع الصليبيين الى اخضاع قونية وصاحبها ، ولكن المشادة التي نشأت بينه وبين كونراد الثاني جعلته يستعين بقونية على الصليبيين (كانون الثاني ١١٤٨) . واستتب الامر بعد مسعود لابنه قلج أرسلان الثاني (١١٥٥ — ١١٩٢) . وهو اول سلجوقي اناضولي اتخذ لنفسه لقب سلطان في المسكوكات . والمراجع العربية المعاصرة تحتفظ بهذا

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 82-83.*

اللقب لامراء السلاجقة الكبار في فارس ولا تذكر لامراء الاناضول سوى لقب ملك . واذا اخذنا بشهادة المؤرخين النصارى كان قلج أرسلان الاول اول سلطان سلجوقي في الاناضول[1]. وعاون عمانوئيل أمراء سيواس على قلج أرسلان الثاني وحرّك ضده نور الدين امير حلب (١١٥٩ – ١١٦٠) فاضطر سلطان قونية في السنة ١١٦١ الى ان يرتمي في حضن عمانوئيل واعداً بتقديم المعونة العسكرية كلما طلبها الفسيلفس ، وبمحاربة اعدائه ، وباعادة المدن اليونانية التي كانت قد وقعت في يد المسلمين . وأمّ قلج أرسلان القسطنطينية في السنة ١١٦٢ فاستقبل فيها بحفاوة فأكد ولاءه واخلاصه للفسيلفس ، وجعل رجال البلاط يعتقدون ان قونية أصبحت في عهده محمية من محميات الروم[2].

وعاد قلج أرسلان الى قونية يوطد دعائم ملكه وينتظر انحلال الحلف الذي كان عمانوئيل قد أحاطه به . وبين السنة ١١٧٠ والسنة ١١٧٧ تمكن قلج أرسلان بشتى الوسائل من القضاء على امارة سيواس وضم معظمها الى سلطنته . واضطر صاحبها ذو النون الى ان يلجأ بدوره الى القسطنطينية . وأحس عمانوئيل بقصر نظره وتقصيره في حقل سياسة الاناضول اذ انه أتاح لصاحب قونية ان يوحد الاتراك السلاجقة بعد ان تفرّقوا وتخاصموا . وبدأت عصابات الترك تهاجم تخوم الروم ولاسيا وادي المندر فتنزل بأهل الريف خسارات متتالية . وطالب عمانوئيل سلطان قونية بذلك فأجاب متأسفاً مؤكداً ان لا علم له بما جرى !

فعمد عمانوئيل الى القوة . وفي ربيع السنة ١١٧٦ أنفذ أحد كبار القادة بثلاثين الفاً الى شرقي الاناضول الى قيصرية الجديدة لاعادة ذي النون

١ Kramers, art. « Sultan », Enc. of Islam.

٢ Chalandon, F, Les Comnènes, II, 460-465.

الى ملكه . وقام هو بمعظم الجيش الى قونية ليحطمها تحطيماً . وجاءها من الغرب متبعاً اعالي نهر الميندر . واستصغر مقدرة خصمه ولم يتخذ الاحتياطات العسكرية اللازمة من حيث الاستكشاف وغيره . فدخل ممراً جبلياً ضيقاً بعد حصن ميريو كيفالون Myriokephalon . وما ان تم دخول الجيش باكمله في هذا المضيق حتى انقض الاتراك من اعالي التلال على مؤخرته فأبادوها . ولم تتمكن طلائع الجيش من اعانة المؤخرة لازدحام الطريق الضيق بالمركبات الحربية وببغال النقل . ولم يكن عمانوئيل ممن يصبر عند الشدة فضاقت حيلته وضاق خلقه ايضاً وصاح الفرار الفرار . وطلب النجاة بنفسه فقُدّر له ذلك فاخترق صفوف الاعداء وخرج مثقّب الترس ، مكسّر الخوذة ، لا يطن في اذنه سوى صوت سنابك خيل الاتراك[١]. وصباح اليوم التالي فوجىء عمانوئيل بالمفاوضة بصلح دائم بين الدولتين وبشروط مشرّفة . فاشترط قلج أرسلان الثاني لقاءَ تراجع منظم وعودة سالمة الى الحدود ان يرضى الفسيلفس بدك حصني دوريلة وسوبليون[٢]. ومما جاءَ في تاريخ نيقيتاس ان عمانوئيل لم يضحك بعد ذاك ابداً وانه عاش اربع سنوات ، وانه اذ رأى قواه تنحط لبس ثوب الرهبنة الخشن الى ان وافته منيته سنة ١١٨٠ . وقبل وفاته خطب لابنه اليكسيوس وهو في الثانية عشرة من عمره آغني ابنة لويس السابع ملك فرنسة وهي ابنة ثماني سنين . واحضرها لتتربى في قصره وسماها حنة . ولم يكن له من امرأته الاولى سوى بنت واحدة اسمها مريم ازوجها سنة ١١٧٨ .

وصاية مويم الانطاكية : (ايلول ١١٨٠ – نيسان ١١٨٢) وبعد

١ Nicetas Chaniates, Hist., 231-245 ; Chalandon, F., op. cit., II, 507-513.

٢ Nicetas Chaniates, Hist. 246 ; Dolger, F., Regesten, 1522, 1524.

وفاة عمانوئيل نفّذت زوجتـــه مريم الانطاكية الفرنسية وصيته فتردّت بثوب الرهبنة وتولّت الوصاية على ابنها القاصر . وطلبت الى اليكسيوس ابن اخي زوجها ان يساعدها في الحكم نظراً لما كان قد عرف عنه من عطف على الافرنج وتأييدٍ لسياسة التعاون معهم . وطمعت مريم اخت الفسيلفس الصغير وزوجها رينه دي مونتي‌فرات Renier de Montferrat في الحكم . ولم يرضَ جمهور من الاشراف ومن رجـــال القصر عن ادارة اليكسيوس المساعد واتهموا الفسيلسة الجميلة باشياء واشياء . فتآمروا جميعاً على نزع السلطة من يد الفسيلسة الوالدة . واندلعت ثورة داخلية في الثاني من ايار سنة ١١٨١ . ولجأت الفسيلسة الى كنيسة الحكمة الالهية . وتدخل البطريرك المسكوني ثيودوسيوس وصالح الحزبين المتنازعين ووبخ مريم الفسيلسة واليكسيوس مساعدها على سلوكهما . فاتهمه اليكسيوس بالخيانة والاشتراك مع الثائرين ونفاه . ولكنه اضطر الى ان يرجعه نظراً لتعلق الشعب به[١].

اندرونيكوس الاول : (١١٨٢ – ١١٨٥) وكان لعمانوئيل الاول ابن عم اسمه اندرونيكوس . وكان هذا الامير طويل القامة جميل الطلعة قوياً . وقد اشتهر بانه فارس مجرب مغوار . وكان ايضاً ذكياً معلّماً فصيحاً ، يجيد المناظرة ، ويحسن الدفاع عن جميع وجهـــات النظر في المشاكل القائمة ، فعُرف « بالحرباء » . وقد عرف بكثرة المغـــامرات ، وبالاسراف في العشق والفسق . وكان قد طمع في الملك وتآمر عـــلى سلامة ابن عمه الفسيلفس ، فاضطر الى ان يفر من وجهه وان يلتجىء الى حماية احد امراء الروس . ثم عاد الى القسطنطينية فاودع السجن في القصر . ثم فرّ فجاءَ انطاكية والقدس فكانت له مغامرات مع ثيودورة ارملة

١ *Bréhier, L., Byzance, 342-343.*

بودوان الثالث . ولم يجرؤ احد في الشرق على ابوائه وحمايته . فعاد الى القسطنطينية تائباً متراميا على قدمي الفسيلفس . فنفاه الى آينايون في البحر الاسود . وظلّ يحلم بالحكم على الرغم من تقدمه في السن[1].

واذ رأى اندرونيكوس الامور على ما كانت عليه في القسطنطينية بعد وفاة عمانوئيل أعلن عصيانه فالتفّ حوله جيش من المحاربين القدماء وقام بهم الى العاصمة . فطلب طرد مريم الفسيلسة وعشيقها وبقاءَ الملك في يد ابنها اليكسيوس . فساعده الشعب على ذلك وقبضوا على اليكسيوس المساعد وأرسلوه الى اندرونيكوس فسمل عينيه . وأيد الافرنج الساكنون في العاصمة مريم الفسيلسة فأعلنها اندرونيكوس حرباً قومية دينية باسم الروم والارثوذكسية وأنفذ قوة برية بحرية فقتل معظم الافرنج في العاصمة ونهب بيوتهم ومتاجرهم وأحرقها . ودخل العاصمة وسجن الفسيلسة مريم وصلى على ضريح عمانوئيل ثم أمر بتتويج اليكسيوس الصغير وشاركه في الملك . وادعى على مريم باشياء واشياء . وسعى بالحكم عليها بالموت ، واجبر ابنها الصبي على ان يوقع على الحكم بشنق والدته . ثم سعى في اوساط القصر بألا يكون فسيلفسان في وقت واحد . وشنق اليكسيوس الصغير وتزوج من خطيبته حنة ابنة لويس السابع . وقتل كثيرين من انصار مريم وابنها وسمل عيون كثيرين منهم . ثم كلف البطريرك المسكوني باقامة اكليل غير مسموح به . فاجابه البطريرك : « كنت اسمع عنك واما الآن فقد رأيتك بعيني » ، واستعفى[2].

وازداد اندرونيكوس طغياناً وتجبراً ففر من وجهه عدد كبير من كبار رجال العاصمة والتجأوا الى الامراء الصليبيين في انطاكية وغيرها

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 84-85.*

٢ *Nicetas Chaniates, Hist., 320-323, 347-349.*

ولاسيما القدس . وقام بعضهم الى صقلية وايطالية والبعض الآخر الى قونية . وكان اندرونيكوس قد نفى اليكسيوس كومنينوس آخر الى بلاد روسية فهرب منها واحتمى بملك صقلية وليم الثاني وطلب مساعدته ضد اندرونيكوس . فاجاب وليم الثاني التماسه وجرّد حملة في السنة ١١٨٥ واستولى على بعض الجزر وعلى قلعة ديراشيون . ثم قام الى تيسالونيكية فدخلها بعد حصار قصير فقتل ونهب وأحرق . ودخل رجاله الكنائس في وقت الخدمة بسيوفهم يشوشون ويطأون حيث لا يجوز ويكسرون ويسلبون . وفي اواسط ايلول زحفوا الى القسطنطينية . وكان اندرونيكوس في جزائر الامراء يتنعم ويتلذذ . فقام اسحق انجيلوس وضم الشعب اليه واستولى على القصر المقدس . ورجع اندرونيكوس الى العاصمة فدفع اسحق به الى الجمهور ليميته كما يشاء . وهبّ اسحق يسعى في قتال النورمنديين[١] .

العاصمة في القرن الثاني عشر : وبقيت القسطنطينية بمجموعها كما كانت في القرنين العاشر والحادي عشر مدينة كبيرة شرقية تجمع بين العظمة والفقر . فهنالك شوارع رئيسة تحيط بها الابنية الفخمة والقصور العظيمة والكنائس الجميلة . وهنالك ايضاً احياء فقيرة مظلمة قذرة . وكانت لا تزال امّ المدن المتمدنة وأغناها وأرقاها ذوقاً وفناً وعلماً . وهو أمر تجمع على صحته جميع المراجع المعاصرة . فقد جاء في اخبار رحلة بنيامين تودله المعاصر ان دَخْلَ الخزينة اليومي من مخازن العاصمة واسواقها وكمارکها لم يقل عن العشرين الف فلس ذهباً[٢] ، وان مظاهر البذخ في الشوارع

١ *Nicetas Choniates, Hist., 453-460 ; Cognasso, F., Polotici, 299-316.*

٢ وكانت البيزة *Bezant* عملة البيزنطيين الذهبية تساوي حوالى اربعة عشر فرنكاً ذهبياً . وكانت تقسم الى اثني عشر ميليارسية كل منها يقسم بدوره الى اثني عشر فلساً *Pholles* .

كانت مدهشة تأخذ بلبّ الزائر . فالخيول المطهمة وثياب فرسانها الحريرية المزركشة المذهبة كانت تبهر الزائر فيخالهم ابناء ملوك . ومما جاءَ في هذه الرحلة ايضاً ان القسطنطينية كانت تجتذب رجال الاعمال من كل حدب وصوب فأضحت تفوق جميع المدن تقدماً وازدهاراً ما عــدا بغداد . والواقع ان ازدهار التجارة في البندقية وبيزة وجنوى وظروف الحروب الصليبية ومطامع عمانوئيل في ايطالية والغرب استدرجت عــدداً كبيراً من رجال الفرنجة الى القسطنطينية فأقاموا فيها وأنشأوا المتاجر والارصفة عند القرن الذهبي ، كما أقاموا المنازل والكنائس، فجعلوا من احيائهم الخاصة بفضل امتيازاتهم مستعمرات لاتينية بكل معنى الكلمة[1].

وابتنى مؤسس الاسرة الكومنينية اليكسيوس الاول قصراً جديداً في محلة القرن الذهبي هيمن على هذا القرن وعلى المدينة وضواحيها . وأنفق عليه بسخاء فجاءَ فخماً عظيماً رائعاً . ومما قاله احد الزائرين المعاصرين : « ولست ادري ما الذي جعله ثميناً جميلاً ! أشدة الاتقان في فن بنـائه ، ام قيمـة المواد الداخلة في تشييده[2]» . وكان سلفاءُ اليكسيوس من قبل قد أقاموا في قصر على شاطىء بحر مرمرة فرأى هو ان ينتقل الى الهضبة المطلة على القرن الذهبي . وأنشأت حنة دلسانة كنيسة المخلص بالقرب من هذا القصر . وحذت حذوها حماة اليكسيوس مريم دوقاس فأنشأت بجوار القصر الجديد ايضاً كنيسة ثانية باسم المخلص . وقامت في هذا الحي ايضاً كنيسة للعذراء « الكلية القداسة » وكنيسة البانتوكراتور الجميلة . وأنشأ يوحنا الثاني كنيسة لضم رفات اسرته بين هذه الكنائس . وعلى الرغم من صغر حجم هــذه الكنائس فانها جاءت جميعها رائعة بتناسب مقاييسها

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 92-93.*

٢ *Eude de Deuil, De Ludovici VII, P. L. 185, col. 1221,*

وجمال رخامها واتقان فسيفسائها[1]. ولا يزال بعض هذه الكنائس قائماً حتى يومنا هذا وقد حول الى جوامع في اثناء الفتح العثماني.

وأدى اهتمام اليكسيوس الاول بالرهبانية وبالاعمال الخيرية الى انشاء ديرين في هذا الحي الجديد احدهما للرجال والآخر للنساء. وكرست الفسيلسة دير الراهبات للعذراء «الممتلئة نعمة». ولا تزال البراءة التي صدرت لتشييد هذا الدير محفوظة حتى يومنا هذا[2]. وهي تنبىء بالغاية التي من اجلها انشىء هذا الدير فتنص على انه دير نموذجي يهدف الى اصلاح الرهبانيات مثل الدير الذي انشأه الفسيلفس في جزيرة باتموس وقد سبقت الاشارة اليه. وتحض الفسيلسة ايرينة الراهبات على عمل الخير وترشدهن الى كل ما من شأنه ان يطهر حياتهن وتوجوهن الا يدعن «الحية» توسوس في اذن راهبة فتجعل منها حواء ثانية.

ومن آثار الفن في القرن الثاني عشر المخطوطات المزوقة كمزامير بربريني ومواعظ الراهب يعقوب واسفار القصر الثمانية الاولى. وقد حوت هذه ما لا يقل عن ثلاث مئة واثنتين وخمسين منمنمة. ولعل بعض هذه الرسوم من صنع يد اسحق اخي الفسيلفس يوحنا الثاني. ومن اثمن ما تحفظه المخطوطات المزوقة التي تعود الى هذا القرن منمنمات غير دينية. فمخطوطتا غريغوريوس النزينزي في القدس وفي جبل آثوس تحمل منمنمات لمشاهد هلينية وكلاسيكية. وفي هذه دليل آخر على ان عصر النهضة الغربية الذي تميز بالعودة الى العصور الكلاسيكية بدأ في القسطنطينية ثم انتقل منها الى ايطالية[3].

١ *Stewart, C., Early Christian Architecture, 73-74.*

٢ *Miklosich et Muller, Acta et Diplomata Graeca, V, 327-391.*

٣ *Diehl, C., Art Byzantin, II, 595-632.*

العلم والادب: وقامت في هذا القرن نفسه في جوار كنيسة الرسل مدرسة كبيرة لتدريس العلوم الابتدائية والمتوسطة والعالية. فغنّى الصغار في أروقتها وحوالى حديقتها كما مشى الاحداث متأبطين دفاترهم مسمعين دروسهم في النحو واللغـة عن ظهر قلب. وانعزل البعض الآخر من الطلبة الكبار ليحلوا بعض المسائل العويصة. وقام الاساتذة في الداخل يحاضرون في خواص الاعداد وفي الهندسة والطب، كما قام كبار الموسيقيين يشرحون فنهم لمن حولهم من الطلبة. وكان بعضهم يتباهى فيؤكد ان علماء العاصمة آنئذٍ فاقوا ذيموستانيس في الفصاحة، وارسطو وافلاطون في الفلسفة، واقليدس في الهندسة، وفيثاغوروس في الفيزياء[1]. وخصت البطريركية المسكونية العلوم الدينية العالية برعايتها فقبلت الطلاب الاكليريكيين في مدرستها ولقنتهم اللاهوت وسواه. وكانت جامعة القسطنطينية لا تزال زاهرة بفرعيها الادبي والفلسفي. وتولى ادارة التعليم الفلسفي فيها «قنصل الفلاسفة» يوحنا الايطالي. فذاع صيته وكثر طلابه ومريدوه وفاخر التلامذة والاصدقاء بانهم من «محبي افلاطون». وممن اشتهر بعده في الفلسفة في هذه الجامعة نفسها افستاثيوس التسالونيكي الذي اظهر مقدرة كبيرة في تدريس هوميروس وبيندار. ومما قيل فيه آنئذٍ ان محاضراته جمعت بين علم ارسطو ووحي الشعراء. والواقع الذي يعترف به رجال الاختصاص من علماء هذا العصر ان قسطنطينية القرن الثاني عشر أبدت الثقافة الكلاسيكية وجعلت منها اساس التهذيب والتثقيف لابنائها[2].

وظل التاريخ واللاهوت يحتلان المكانة الاولى في النتاج الادبي. فقامت حنّة ابنة اليكسيوس الاول تؤرخ حياة والدها فصنفت ملحمتها

١ *Heisenberg, A., Apostelkirche in Konstantinopel, Leipzig, 1908.*

٢ *Diehl, C., Europe Orientale, 106.*

الشهيرة الاليكسياذة وقد سبقت الاشارة اليهـا . وكتب زوجها نيقيفوروس بريانوس في وصول الاسرة الكومنينيـة الى العرش فأرّخ السنوات ١٠٧٠ الى ١٠٧٩ . وكتب اليكسيوس الاول نفسه في اللاهوت ضد الهراطقة فصنّف تأملاته Muses ووجهها الى ابنه وولي عهده يوحنا[1].

ولا نعلم ما اذا كان يوحنا ممن تذوق الادب ولكننا نعلم جيداً ان اخاه اسحق كتب في تطور ملحمة هوميروس في العصور الوسطى . وكتب عمانوئيل الفسيلفس في التنجيم فدافع عن هذا « العلم » ضد تهجمات الاكليروس. وارسل مصنّف بطليموس المجسطي الى ملك صقلية النورمندي فنقل حوالى السنة ١١٦٠ الى اللاتينية[2].

ومن أشهر مؤرخي هذا القرن يوحنا كنّاموس Cinnamus فانه دوّن اخبار الفسيلفسين يوحنا وعمانوئيل فأكمل اليكسياذة حنّة . واتبع هذا المؤرخ هيرودوتوس وبروكوبيوس في طريقة التأريخ ودافع دفاعاً شديداً عن حقوق الامبراطورية الشرقية والكنيسة الارثوذكسية ضد مطامع الامبراطورية الغربية ومطالب الكنيسة البابوية . وأشهر من كنّاموس بكثير نيقيتاس الخونياتي Nicetas Choniates . ولد في خونة من أعمال الاناضول في منتصف القرن الثاني عشر وتلقى علومه في القسطنطينيـة ثم استوظف في اواخر عهد عمانوئيل ولمع في عهد الاسرة الانجيلوسية . ولدى استيلاء الصليبيين على القسطنطينية التجأ الى الفسيلفس ثيودوروس النيقاوي . وأشهر مؤلفاته تاريخه الكبير الذي جاءَ في عشرين مجلداً . وفيـه تاريخ الروم منذ ان تبوأ العرش يوحنا كومنينوس حتى سقوط العاصمة في يد

١ *Maas, Die Musen des Kaisers Alexios, Byz. Zeit., 1913, 348-367.*

٢ *Diehl, C., La Société Byz. à l'Epoque des Comnènes, Rev. Hist. du S.E. Européen, 1929, 198-280.*

الصليبين (١١١٨ - ١٢٠٤) . ويرى ثيودور اوسبنسكي العلامة الروسي ان نيقيتاس فاق جميع زملائه في الشرق والغرب معاً امانة وتدقيقاً[١].

واشتد الاقبال على مطالعة التاريخ في هذه الآونة فنشط للتأليف فيه عدد آخر من الرجال امثال كدرينوس Cedrenus وزوناراس Zonaras ومناسيس Manases وغليقاس Glykas الذين أخرجوا موجزات للتاريخ العالمي على الطريقة الخريقونية القديمة . ويستدل من اسلوبهم في الكتابة ومن بعض الفاظهم انهم لم يكونوا أقل اطلاعاً من سواهم من علماء ذلك العصر على نتاج العهد الكلاسيكي القديم . فساهموا بعملهم هذا في بدء النهضة العلمية الحديثة في اوروبة جمعاء .

وقضت ظروف الكنيسة ، من حيث المشادة التي كانت ناشبة آنئذٍ بين رومة والقسطنطينية ومن حيث ظهور بعض البدع ، بان تهب للدفاع عن الارثوذكسية الحقة . فقام افتيموس زيغابينوس Zigabenos بانوبليته الشهيرة (الدرع الكاملة العدة) لدحض هرطقات ذلك العصر ونقضها بالحجة[٢]. وممن اشتهر في هذا الجدل الديني في القرن الثاني عشر نيقولاووس ميثونيوس Methonius ونيقيتاس الخونياتي المؤرخ الذي ورد ذكره آنفاً .

وقضت ظروف التشريفات في القصر وفي المقر البطريركي المسكوني بان يجتهد عدد من الادباء في فن الخطابة والفصاحة . فعاد هؤلاء ايضاً الى مخلفات العصر الكلاسيكي لاستيحائها والافادة منها . وبين هؤلاء افستاسيوس التسالونيكي وميخائيل الخونياتي اخو نيقيتاس المؤرخ ورئيس اساقفة آثينة وميخائيل الايطالي ونيقيفوروس باسيلاكس Basilakes

١ Uspensky, Th., A Byzantine Writer, See Vasiliev, A. A., Byz. Emp. p. 495.

٢ Patrologia Graeca, CXXX, 9-1362.

وباسيليوس رئيس اساقفة اوخريدة . وفي مكتبة الاسكوريال مجموعة من هذا النوع من التصنيف تعود الى القرن الذي نحن بصدده[1].

ويرى العلامة الافرنسي شارل ديل المتخصص في تاريخ الروم وفنونهم ان ادباءَ الروم في القرن الثاني عشر وعلماءَهم اذا ما قورنوا بزملائهم في الغرب في هذا القرن نفسه ظهروا اساتذة معلمين لا مناظرين . ومن الطف ما جاءَ في تأييد هذا القول تلك المناظرة العلنية التي جرت في عهد يوحنا الثاني في القسطنطينيــة في السنة ١١٣٥ بين أنسيلموس اسقف ابلبرج اللاتيني ونيقيتاس رئيس اساقفة نيقوميذية . فان انسيلموس بعد ان جادل نيقيتاس جدالاً طويلاً في انبثاق الروح القدس وفي استعمال الفطير استند في تأييد آرائه على ان الكنيسة اللاتينية كانت دائماً مستقيمة الرأي ، وطعن في الكنيسة الارثوذكسية واتهمها بان كل الهرطقات قامت فيهـــا . فأجابه نيقيتاس بانه لا ينكر ذلك وانما يعزو هذه الظاهرة لانكباب رجـــال كنائس الشرق على العلوم والفلسفة . ثم قال : وافهم يا صاح انه وان تكن جميع الهرطقات خرجت من اليونان فان هدمها ايضاً تمّ على أيدي طائفة من ابناء اليونان . وخلص الى القول بانه لم يكن ممكناً ان تولد هرطقات في رومة لان العلم وتوقد الذهن وقوة العقـل في رجالها كانت اموراً نادرة . ثم قال اننا لا ننكر على كنيسة رومة تقدمها على اخواتها الكنائس البطريركية الاربع الاخرى ، ونوافق عـــلى ان ترئس المجامع المسكونية ، ولكنها خرجت عن حدود سلطانها وقسمت بين مملكة الشرق والغرب وبين الكنـائس . ونحن وان لم يكن بيننا وبين الكنيسة

[1] Diehl, C., *Europe Orientale*, 107; Vasiliev, A. A, *Byz. Emp.*, 492-494.

الرومانية انقسام في الايمان البتة فكيف يمكننا ان نقبل قوانين مسنونة دون معرفتنا[1]!

١ ولا بد من القول بان ما اورده الاب هنري موسه في المجلد الاول من تاريخه الكنيسة في هذا الموضوع هو ناقص ، فلتراجع مراجعه في محلاتها :
Mussel, H., Hist. du Christianisme Sp. en Orient, I, 467-469.

الباب العاشر

تفكك وانهيار

١١٨٥ – ١٢٦١

•

الفصل الحادي والثلاثون

اسرة انجيلوس

١١٨٥ – ١٢٠٤

اسحق الثاني : وتحدرت هذه الاسرة المالكة الجديدة من قسطنطين انجيلوس الفيلادلفي معاصر الكسيوس كومنينوس الاول وصهره زوج ابنته . ولم يكن اسحق ابن بجدتهـا . وكان اكولاً بطيناً يهوى اللحم والخمر والخبز . فكنت تجد على مائدته « تلالاً من الخبز وغابات من الطيور وبحراً من الاسماك ومحيطاً من الخمر[١] » . وكان يلبس في كل يوم بدلة جديدة . وكان يستحم مرة في كل يومين فيتطيب ويخرج خروج العروس

١ *Nicetas Chon., Hist., 579.*

المنغمس في ملذات عرسه . وكان يحب الخمر والنساء ويحيط نفسه بالمجان والمهرجين والمغنيات .

قسطنطين انجيلوس

اندرونيكوس

- اسحق الثاني ١١٨٥ — ١١٩٥ و ١٢٠٣ — ١٢٠٤
  - ايرنة = فيليب سوابيه
  - اليكسيوس الرابع ١٢٠٣ — ١٢٠٤
- اليكسيوس الثالث ١١٩٥ — ١٢٠٣
  - حنة
  - افذوكية = اليكسيوس الخامس دوقاس ١٢٠٤

وكان الخطر النورمندي لا يزال يحدق بالدولة ويهدد كيانها ففاوض اسحق القيادة النورمندية في السلم فرفضت . فأنفذ قوة جديدة بقيادة اليكسيوس براناس احد كبار رجال الجيش فانتصر على النورمنديين في تشرين الثاني من السنة ١١٨٥ عند ديمترتزة Dimitritza . فتراجع هؤلاء وأخلوا ثيسالونيكية وديراتزو وكورفو ووقعوا الصلح[١].

ولم يَهَبْ رجال البر من اصحاب الاملاك الكبيرة اسحق ولم يخافوه .

١ *Dolger, F., Regesten, 1567, 1569.*

وتجاوز اسحق الحدود المشروعة في الانفاق فزاد الضرائب . وازداد طمع الجباة فأثقلوا كاهل الاهلين وابتزوا المال ابتزازاً . فاندلعت ثورة داخلية في السنة ١١٨٦ بزعامة اليكسيوس براناس بطل ديبترتزة . ومشى هذا القائد الى العاصمة . فاضطرب اسحق ودعا عدداً كبيراً من الرهبان والقسيسين الى القصر ليبتهلوا الى الله ان يبعد شر الانقسام الداخلي . وقام كونراد مونتفران عديل الفسيلفس على رأس ثلاث مئة فارس افرنجي وعدد من المشاة فهزم براناس وقطع رأسه ورماه عند قدمي الفسيلفس . ثم انقض واتباعه على انصار براناس في العاصمة فنهب وأحرق وزاد بذلك كره الروم للاتين[١].

وفي السنة ١١٨٨ عاد البلغار والفلاخ الى السلاح وانتشروا في تراقية . ولم يوفق اسحق الى صدهم واخضاعهم فهادنهم ثم صالحهم على ان يكونوا احراراً ما بين البلقان والدانوب[٢]. وفعل مثل هذا في السنة ١١٩٣ عندما أنعم على اسطفان نيمنية Nemanya بلقب سبستوقراتور وازوجه من اميرة رومية . وقام ثيودوروس منقافاس في الاناضول يحاول الاستقلال في فيلادلفية وليدية ولكنه غلب على أمره واضطر الى ان يلتجىء الى سلطان قونية[٣].

وسقطت القدس في يد صلاح الدين في الثاني من تشرين الاول سنة ١١٨٧ فاهتزت اوروبة بامرها . وهب الامبراطور فريدريكوس يدعو لحملة صليبية ثالثة . فقبل الصليب في السابع والعشرين من اذار سنة ١١٨٨ وكتب الى اسحق الثاني الفسيلفس ينبئه بذلك وبانه سيتخذ طريق البر ماراً باراضيه . ووقع الاثنان معاهدة في نورمبرج في ايلول السنة ١١٨٨

١ *Nicetas Chon., Hist., 509-513.*

٢ *Dolger, F., Regesten, 1580.*

٣ *Bréhier, L., Byzance, 351-252.*

تعهد بها القسيلفس بالسماح للصليبيين بالمرور في اراضيه مقابل امتناعهم عن ايقاع الاذى برعاياه[١]. ولكنه بعد ذلك ببضعة اسابيع وقع تحالفاً مع صلاح الدين[٢]. ولم يكن فريدريكوس أقل حذراً وتلوناً فانه فاوض البلغار والصرب والنورمنديين في الوقت الذي كان يفاوض فيه اخاه القسيلفس. فنشأ عن هذا كله جو من الالتباس والمواربة وقلة الثقة. وقضت تقاليد القصر المقدس بألا يكون في العالم كله سوى امبراطور واحد وبان يُستقبل فريدريكوس كملك لا كأمبراطور. فاشتد القلق وأصبح تقدم الصليبيين الالمان في اراضي الروم زحفَ عدو بغيض. ودخل فريدريكوس أدرنة في خريف السنة ١١٨٩ فكتب الى ابنه هنريكوس ان يُعد اسطولاً وان يستعين بالبنادقة وغيرهم ليهاجم القسطنطينية بحراً في الوقت الذي يزحف هو فيه من البر[٣]. وتبين هذا كله للقسيلفس اسحق الثاني في السنة ١١٩٠ فموّن الالمان وقدم لهم المراكب اللازمة لينتقلوا بها الى بر الاناضول، ففعلوا. ولكن الروم ازدادوا بغضاً للاتين وطووا ذلك في صدورهم.

وكانت الحاجة الى المعونة الحربية قد قضت بتوسيع الامتيازات الممنوحة للبنادقة (١١٨٧) فرأى اسحق ان يزيد في امتيازات بيزة وجنوى ليقلل الضرر الناجم عن امتيازات البنادقة. فغضب تجار العاصمة ووجهاؤها لكرامتهم ومصالحهم. وكانت الحكومة المركزية تزداد ضعفاً.

اليكسيوس الثالث: (١١٩٥ – ١٢٠٣) وفي السنة ١١٩٥ خرج اسحق الثاني بنفسه لمحاربة الفلاخ والبلغار. فلما وصل الى كيبسالة (آبسيلار)

١ *Dolger, F., Regesten, 1581, 1587.*

٢ *Dolger, F., Regesten, 1584, 1591.*

٣ *Norden, W., Papsttum, 119.*

خرج للصيد . فدخل اخوه اليكسيوس خيمته وأعلن نفسه فسيلفساً . وقبض على اسحق وسمل عينيه وسجنه هو وابنه اليكسيوس . ورفض اليكسيوس كنية عائلته وتسمى اليكسيوس الثالث كومنينوس . وأبطل مشروع الحرب ضد البلغار والفلاخ ، ووزع مال الخزينة على الجنود. واذ نفد المال وزع اراضي الدولة وعاد الى العاصمة . وكانت افروسين دوقاس زوجته شديدة الاعتزاز بنسبها ، كثيرة العناية بالسياسة ، واسعة الاتصالات ، ذكية نشيطة مغربة مضللة . فنجحت في جمع الكلمة على تأييد زوجها ، وأعدت له استقبالاً حافلاً[1]. وعاد الفسيلفس الجديد الى العاصمة ومال الى العيشة الهنيئة ولم يبالِ بواجباته الادارية والسياسية. ويقول نيقيتاس المؤرخ المعاصر «ان اليكسيوس الثالث كان يوقع كل شيء يقدم له ولا يكترث ما اذا كان هذا الشيء مجموعة من الكلمات الفارغة ، او طلباً للابحار في البر ، او الفلاحة في البحر ، او نقل جبل الى البحر ، او رفع جبل آثوس من مكانه الى قمة جبل اوليمبوس[2]».

وساءت احوال البلقان السياسية . فخر زعيم البلغار يوحنا آسن صريعاً ، فأيد الفسيلفس نيفوكو الجاني فالتجأ اخو القتيل كالويان Kalojean الى البابا انوشنتش الثالث (١١٩٩) مقدماً خضوع الكنيسة البلغارية لقاء تتويجه ملكاً على بلغارية . فقبل البابا وأرسل كردينالاً الى ترنوفو وتوّج كالويان ملكاً وجعل رئيس اساقفة ترنوفو رئيساً على الكنيسة البلغارية . فظهرت الامبراطورية البلغارية الثانية الى حيز الوجود . واضطر اليكسيوس ان يعترف بها في السنة ١٢٠١[3]. وحدث مثل هذا في بلاد الصرب . فان

١ *Nicetas Chon., Hist., 607.*

٢ *Nicetas, Hist., 599-600.*

٣ *Bréhier, L., Byzance, 357-358; Luchaire, A., Innocent III, 87-97.*

اسطفان نيمنية استقال في السنة ١١٩٦ ولبس ثوب الرهبنـة . فنشأ نزاع شديد بين ابنيه اسطفان وفوك . فالتجأ اسطفان الى البابا واعاد زوجته الاميرة البيزنطية الى القسطنطينية ونال لقب الملك من يد البـابا ولكنه لم يخرج في النهاية عن الكنيسة الارثوذكسية[١].

هنريكوس السادس والروم : وتوفي فريدريكوس بارباروسة في العاشر من حزيران سنة ١١٩٠ غريقاً في نهر كوك صو في قيليقية . فخلفه ابنه هنريكوس السادس في امبراطورية الغرب . وكان هذا قد اقترن بقسطنسة وريثة وليم الثاني في صقلية وجنوبي ايطالية . فكتب في السنة ١١٩٤ الى اسحق الثاني فسيلفس الروم يطالب بالاراضي التي افتتحها النورمنديون في البلقان من ديراتزو حتى ثيسالونيكية . ولدى وصول اليكسيوس الثالث الى العرش عاد هنريكوس فأرسل وفداً الى القسطنطينية يبين الاساءة التي لحقت بالامبراطور فريدريكوس في اثنـاء مروره في اراضي الروم ويطلب التعويض . وكان فيليب اخو هنريكوس السادس قد تزوج من ايرينة ابنة اسحق الثاني . وعلى الرغم من النزاع الذي نشب بين هنريكوس وفيليب لدى وفاة والدهما الامبراطور فان فسيلفس الروم ظل يخشى تدخل فيليب في صالح اليكسيوس ابن اسحق واخي ايرينة زوجته .

وخشي حبر رومة هذا التوسع في سلطة الامبراطور الغربي في ايطالية وصقلية . ولم ترق له مطامع هنريكوس السادس عبر الادرياتيك . ورأى من ناحية اخرى ان التعاون مع فسيلفس الروم يفيـده من ناحيتين اخريين اذ انه يعاون على اعادة توحيد الكنيسة جمعاء وعلى محاربة المسلمين في الاراضي المقدسة لاسترجاع السلطة على القدس وغيرها من الاماكن التي كانت قـد وقعت في يد صلاح الدين . وفي السنة ١١٩٨ رقي السدة

١ *Jirecek, C., Gesch. der Serben, I. 270.*

الرومانية انوشنتش الثالث . وكان عالماً ذكياً حازماً قوياً مؤمناً تقياً ، فرأى ما رآه سلفه كلستينوس واتصل باليكسيوس الثالث وطلب اليه ان يسعى لتوحيد الكنيسة وان يشترك في حملة صليبية رابعة تحرر القدس وغيرها من حكم المسلمين .

الحملة الصليبية الرابعة : وبعث انوشنتش الثالث برسله الى الممالك الاوروبية يروج فكرته ويحض الملوك والامراء والشعب على التطوع في حملة جديدة . ولكن احداً من كبار الملوك لم يلبِ النداء . ففيليب الثاني ملك فرنسة كان لا يزال تحت الحرم البابوي لهجره زوجته الثانية وتزوجه من ثالثة . وكان يوحنا الثاني ملك انكلترة لا يزال في خصام شديد مع اشراف بلاده واعيانها . وكان هنريكوس السادس قد توفي في خريف السنة ١١٩٧ في صقلية فنشبت مشادة عنيفـــة لتسنم العرش الامبراطوري بين اخيه فيليب واوتون الرابع ابن هنريكوس الاسد . بيد ان هـذا كله لم يمنع الفرسان الغربيين من تقبل الدعوة . فاشترك في هــذه الحملة الرابعة نخبة من افضل فرسان فرنسة وانكلترة والمانية والبلدان الواطئة وصقلية . وألمع من حمل الصليب بهذه المناسبة شيخ البندقية هنريكوس دندولو Dandolo الاعمى . وكان قد عرف القسطنطينية حق المعرفة وفقد بصره فيها عندما حوّل بعض الروم نور الشمس الى عينيه بمرآة مقعرة . فغضب وحقد وأضمر السوء . وكان سياسياً محنكاً ومفاوضاً حاذقاً . فلبى نداءَ البابا ليقضي على دولة الروم وينشىءَ على انقاضها امبراطورية بندقية غربية[١] .

وحين فكر القائمون بهذه الحملة في كيفية الزحف على الاراضي المقدسة ارسلوا وفداً الى البندقية يفاوض في نقل الجنود الى مصر اولاً لان مصر

١ Diehl, C., Venise, 47-48.

كانت مركز السلطة المستولية على فلسطين . فتم الاتفاق على ان تنقل البندقية ٤٥٠٠ فارس و٢٠,٠٠٠ جندي وعلى ان تطعمهم شرط ان يدفع الصليبيون لها مبلغاً معيناً من المال وان تقسم الغنائم في المستقبل مناصفة بينها وبينهم[١].

وتجمعت الحملة في البندقية في شهري تموز وآب من السنة ١٢٠٢ وعجز الصليبيون عن دفع المبلغ المتفق عليه ولم يتمكنوا الا من دفع نصفه. فانتهز دندولو هذه الفرصة واقترح ان يدوخ الصليبيون مدينة زاره Zara عبر الادرياتيك لحساب البندقية لانها كانت تنافس هذه منافسة شديدة. فقام الصليبيون الى زارة وحاصروها. وعبثاً حاول اهلها اظهار شعائر النصرانية على الاسوار لردع الصليبيين عن محاربة ابناء دينهم. وعبثاً ايضاً حاول البابا ردع البنادقة عن هذه الاساءة لمبادىء الحروب الصليبية. واستولى الصليبيون على زارة وقدموها للبندقية لقمة سائغة[٢].

وقد مرّ بنا في تضاعيف الفصول السابقة كيف تزايد البغض وتفاقم بين الشرق والغرب ولاسيما في اثناء القرن الثاني عشر. فقد رأينا ملوك النورمنديين الصقليين يجتازون الادرياتيك لاحتلال شواطئه الشرقية منذ ايام روبر غيسكار حتى ايام روجه الثاني وخلفه وورثه في صقلية الامبراطور هنريكوس السادس. ورأينا ايضاً اباطرة الشرق يخشون الصليبيين في اثناء مرورهم في اراضيهم فينشأ عن هذا الخوف شيء من التوتر، فيزداد احياناً ويؤدي الى التفكير الجدي في احتلال القسطنطينية. وقد رأينا في الوقت نفسه هذا البغض يتفاقم فينفجر في شوارع عاصمة الروم فيلحق بالجاليات اللاتينية فيها شيئاً كثيراً من الضرر والخسارة.

١ *Villehardouin, Geoffroi, Conquête de Constantinople, I, 21-28, 30.*

٢ *Innocent III, Epistolae, V, 161; Luchaire, A., Innocent III, Quest. d'Orient, 103-105.*

ويجر البندقية الى الحرب للمحافظة على مصالحها التجارية في الشرق .

وفي اثناء السنة ١٢٠٢ أفلت اليكسيوس انجيلوس ابن اسحق الثاني من السجن الذي كان قد اودع فيه سنة ١١٩٥ وجاءَ صقلية فرومة يستعطف البابا على قضيته . ثم اتجه شمالاً شطر المانية يستعين بشقيقته ايرينة زوجة فيليب سوابيه في هذا الامر نفسه . فرجت ايرينة زوجها وألحت عليه . وكان فيليب آنئذٍ منهمكاً في نزاع مستميت ضد آتون ، كما سبق ان أشرنا ، فأوفد وفداً الى زارة يرجو البنادقة والصليبيين مساعدة اسحق القيلفس وابنه اليكسيوس للوصول الى العرش . فتفتحت امام دندولو آفاق جديدة وهب يقنع الصليبيين بالقبول . وقام اليكسيوس بنفسه الى زارة وفاوض دندولو والصليبيين في ذلك مباشرة ووعد بدفع مبلغ كبير من المال مقابل هذه المعونة ، كما أظهر استعداده لادخال كنيسة الروم في طاعة البابا واشتراكه اشتراكاً فعلياً في الحرب المقدسة[١] .

وقد اختلف رجال الاختصاص في اسباب تحول الصليبيين عن مصر وفلسطين الى القسطنطينية . فقام في السنة ١٨٦١ ماسلاتري الافرنسي يتهم البندقية وشيخها بالوصول الى تفاهم سري سابق مع سلطان مصر لتحويل هذه الحملة عن اراضيه[٢] . وأيد قوله كارل هوبف الالماني فحدد تاريخ هذه المعاهدة السرية وجعله في الثالث عشر من ايار سنة ١٢٠٢[٣] . وفي السنة ١٨٧٥ قام الكونت دي ريان الافرنسي يلقي المسؤولية في هذا التحول في مجرى الحملة الرابعة على عاتق فيليب سوابيه فيجعل التحول عن مصر مظهراً آخر من مظاهر النزاع بين الامبراطور الغربي والبابا لان انوشنتش

١ *Villehardouin, G., op. cit., I, 90-101, Luchaire, A., op. cit.; 111; Nicetas Chon., Hist., 712.*

٢ *Mas - Latrie, Hist. de l'Ile de Chypre, I, 162-163.*

٣ *Hopf, K., Gesch. Griechenlands, I, 188.*

الثالث كان يميل الى مناظر فيليب آتون البرنزويكي[1]. وفي هذا كله تسرعٌ للوصول الى استنتاجات جديدة تلفت النظر ، وخروج في الوقت نفسه عن ابسط قواعد المصطلح . والواقع انه لا يجوز ان يقال في هذا الموضوع اكثر مما جاءَ في الفقرة السابقة .

وفي آخر حزيران من السنة ١٢٠٣ ظهر اسطول الصليبيين امام اسوار القسطنطينية ونزلوا بالقرب من غلَطَة فقطعوا السلاسل الحديدية التي حمت مدخل القرن الذهبي ، فدخلت مراكب البنادقة وأحرقت مراكب الروم . ثم اقتحم الفرسان الصليبيون اسوار العاصمة واستولوا على المدينة في تموز من السنة نفسها . وفرّ اليكسيوس الثالث بخزينة الدولة وجواهرها . وأطلق سراح اسحق الثاني وأعلن ابنه اليكسيوس شريكاً له في الحكم . واتخذ هذا لقب اليكسيوس الرابع .

وطالب الصليبيون ودندولو بتنفيذ نص المعاهدة ، اي بدفع المال المتفق عليه وباعداد قوة تقوم معهم الى الاراضي المقدسة . فاستمهلهم اليكسيوس الرابع ورجاهم ان يقيموا خارج اسوار العاصمة . وامتعض الروم من اللاتين الفاتحين واتهموا الفيلفسين اسحق وابنه اليكسيوس بالخيانة ، وهب صهر اليكسيوس الثالث اليكسيوس دوقاس الى السلاح . وكانت ثورة في اوائل السنة ١٢٠٤ ادت الى وفاة اسحق وخنق ابنه اليكسيوس الرابع . ونودي باليكسيوس دوقاس فسيلفساً ، فعرف باسم اليكسيوس الخامس .

وفي اذار السنة ١٢٠٤ وقّع الصليبيون والبنادقة اتفاقاً فيما بينهم لاقتسام الامبراطورية الشرقية بعد احتلال العاصمة . وقضت شروط هذا الاتفاق بان تقام في العاصمة حكومة لاتينية وان تقسم الغنائم فيما بين الطرفين وان

[1] *Rev des Questions Hist.*, 1875, 321-374.

تتولى لجنة مؤلفة من ستة بنادقة وستة افرنسيين أمر انتخاب امبراطور يحكم «لمجد الله ومجد الكنيسة الرومانية المقدسة ومجد الامبراطورية». واتفق الطرفان ايضاً على ان يحكم هذا الامبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها، وعلى ان يوضع تحت تصرفه قصران من قصور العاصمة. ونص الاتفاق ايضاً على تقسيم ما بقي من العاصمة واراضي الدولة مناصفة بين البندقية وبين سائر الصليبيين. وفرض على جميع الصليبيين الباقين في اراضي الدولة الجديدة ان يقسموا يمين الطاعة والولاء للامبراطور. ولم يشمل هذا البند دندولو وبندقيته[1].

ثم حاصر الصليبيون القسطنطينية بضعة ايام ففر* اليكسيوس الخامس، فتدفقوا اليها في الثالث عشر من نيسان سنة ١٢٠٤ ناهبين. واشترك في اعمال النهب الفظيع الجنود الصليبيون وفرسانهم والرهبان اللاتينيون ورؤساؤهم[2]. وشمل هذا النهب كنيسة الحكمة الالهية وغيرها من كنائس العاصمة وأديارها كما قضى على عدد كبير من اثمن المخطوطات[3].

ولم يرشح دندولو نفسه لعرش القسطنطينية، ولم يرضَ مركيز مونتفرات Boniface de Monferrat ان يتسنمه لانه كان اميراً اقطاعياً ايطالياً قوياً لا تبعد املاكه عن ممتلكات البندقية. فالتأمت لجنة الانتخاب وأقامت بلدوين قومس فلاندر امبراطوراً على القسطنطينية. ثم قسمت الممتلكات فتولى الامبراطور على خمسة اثمان العاصمة وعلى الاراضي التي تاخمت المضيقين وبحر مرمرة وعلى بعض جزر الارخبيل الكبرى.

١ *Tafel, G. L. F. und Thomas, G. M., Urdkunden zur Altern Handels und Staatsgeschichte, I, 446-452.*

٢ *Nicetas Chon., Hist., 753-763.*

٣ *Chronicle of Novgorod, 186-187.*

واستولى مركيز مونتفرات على ثيسالونيكية وما جاورها من أرض مقدونية وعلى ثيسالية . ونال دندولو حصة الاسد ، فاستولى باسم البندقية على ديراتزو وغيرها من النقاط الهامة في ساحل الادرياتيك الشرقي ، كما احتل كورفو وغيرها من جزر مداخل هذا البحر ، وبعض اماكن في شبه جزيرة المورة وجزيرة اقريطش ، وبعض المرافىء على شاطىء تراقية وغاليبولي وثلاثة اثمان القسطنطينية . واتخذ دندولو لنفسه بهذه المناسبة لقب ذسبوتس despotes ولقب « سيد الربع ونصف جميع امبراطورية رومانية[1] » . وظل خلفاؤه في البندقية يستعملون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر . وتسلّم اكليروس البندقية كنيسة الحكمة الالهية واقاموا بموافقة البابا توما موروسيني بطريركاً على الكنيسة الكاثوليكية في الامبراطورية الجديدة . فاستخف به الروم « لجهله وحقارته[2] » .

واتخذ مركيز مونتفرات لنفسه لقب ملك وقام الى آثينة فاحتلها وجعل منها ومن ثيبة دوقية وحوّل كنيستها الكاتدرائية في قلب البارثينون الى كنيسة لاتينية . وانتظمت الامبراطورية اللاتينية على اساس اقطاعي فقسمت الى عدد من الاقطاعات ، واقسم امراء هذه الاقطاعات يمين الولاء والطاعة للامبراطور[3] .

وكتب الامبراطور بلدوين الى البابا انوشنتش الثالث يعلمه بفتح القسطنطينية وبارتقائه عرشها بنعمة الله ، ويؤكد خضوعه للسدة البابوية Miles Suus . فأجابه انوشنتش « متهللاً بالرب لتمجيد اسمه بالاعجوبة التي تمت فشرّفت العرش الرسولي وشعب المسيح » . وطلب الى جميع

١ « *Quartae Partis et Dimidiae Totius Imperii Romanie Dominator* » .

٢ *Nicetas Chon., Hist.*, 854-855.

٣ *Vasiliev, A. A., Byzantine Empire*, 465-467.

الاكليروس وجميع الملوك والشعوب ان يؤيدوا بلدوين ليتمكن بعد فتح القسطنطينية من الاستيلاء على الاراضي المقدسة[1]. ثم علم هذا الحبر الكبير بما اقترفه الصليبيون من آثام في القسطنطينية فحزن وقلق واضطرب. وكتب الى مركيزة مونتفرات يقول: «لقد حدثتم عن طهارة نذركم عندما زحفتم على المسيحيين بدلاً من المسلمين فاستوليتم على القسطنطينية بدلاً من القدس. وآثرتم كنوز الدنيا على كنوز الآخرة. وما هو اهم من هذا وذاك ان بعضكم لم يوقر الدين ولم يحترم العمر او الجنس[2]».

وهكذا فانه لم يكتب لهذه الامبراطورية الجديدة عمرٌ طويلٌ. فانها كانت منذ نشأتها اقطاعية ضعيفة في السياسة والحرب. وكانت مقسمة الولاء في الدين ينقصها الشيء الكثير من توحيد الكلمة. فرعايا الامبراطور الجديد ظلوا ارثوذكسيين بعيدين عن دين الدولة الجديدة، ورجال الدين فيها ظلوا طوال عهدها يتبعون بطريركاً ارثوذكسياً جالساً في نيقية كما سنرى.

١ *Tafel und Thomas, op. cit., I, 502, 516-517.*

٢ *Epistolae, VIII, 133.*

الفصل الثاني والثلاثون

امبراطورية نيقية

(١٢٠٤ – ١٢٦١)

على انقاض دولة الروم: وقام على انقاض دولة الروم في النصف الاول من القرن الثالث عشر عدد من الدويلات والامارات الافرنجية اللاتينية اهمها: امبراطورية القسطنطينية، ومملكة ثيسالونيكية، وامارة آخية في المورة، ودوقية آثينة وثيبة. وشملت امبراطورية البندقية اهم الجزر في مداخل بحر الادرياتيك وبحر ايجه، وجزيرة اقريطش، وعدداً وافياً من النقاط الاستراتيجية في سواحل شبه جزيرة البلقان. وقامت دولة رومية يونانية في كل من نيقية وطرابزون وإبيروس. وكان هناك امبراطورية بلغارية ثانية وسلطنة سلجوقية في قونية.

وتاريخ هذا النصف من القرن الثالث عشر هو تاريخ نزاع بين الروم واللاتين، وفيما بين الروم انفسهم، وبين الروم والاتراك، وبين الافرنج والبلغار. ولم يُقدَّر للافرنج في الشرق في هذه الآونة ان يتبعوا سياسة ايجابية عمرانية فيوطدوا بذلك ملكاً راسخاً مستقراً. وأدى بقاؤهم فيه الى تخريبه وتخريب انفسهم في آن واحد.

امبراطورية نيقية: ومن نيقية خرج في النهاية مَنْ جمع الشمل وقام بعمل ايجابي فتغلب على الافرنج وأعاد الملك للروم. والاشارة هنا

لميخائيل باليولوغوس . ولذا فان سير الامور في دولة نيقية وتطور احداثها وظروفها اكثر فائدة للباحث من اخبار غيرها من دويلات ذلك العصر .

ولا نعلم شيئاً دقيقاً عن أصل امرة اللاساكرة Lascaris ولا عن مسقط رأس مؤسسها ثيودوروس الاول (١٢٠٤ – ١٢٢٢) . وجل ما نعلم عن ثيودوروس قبل تسنمه عرش نيقية انه كان صهر اليكسيوس انجيلوس الثالث زوج ابنته حنة . ونعلم ايضاً ان ثيودوروس هذا حارب الصليبين في عهد اليكسيوس الثالث بامانة واخلاص وان اكليروس العاصمة رأوه لائقاً لتولي الملك بعد اليكسيوس دوقاس[١].

ثيودوروس الاول
(١٢٠٤ – ١٢٢٢)

|

ايرينة = يوحنا الثالث دوقاس
(١٢٢٢ – ١٢٥٨)

|

ثيودوروس الثاني
(١٢٥٤ – ١٢٥٨)

|

يوحنا الرابع
(١٢٥٨ - ١٢٦١)

١ Gardner, A., *The Lascarids of Nicaea*, 53-54.

وفرّ ثيودوروس الاول عند سقوط القسطنطينية في يد الافرنج الى آسية الصغرى . والتجأ اليها عدد من وجهاء الروم من الاوساط العسكرية والمدنية . وجاءها بعض كبار رجال الدين . أما البطريرك المسكوني يوحنا كماتيروس فانه آثر الاقامة في عاصمة البلغار . وأمّ الاناضول عدد من الوجهاء والاعيان وغيرهم من سائر اقطار دولة الروم . وأحب احد اعيان جزيرة افبية بالقرب من الساحل اليوناني الشرقي ان يلتجيء الى نيقية ، فكتب ميخائيل الخونياتي رئيس اساقفة آثينة كتاب توصية بهذا الرجل الى ثيودوروس الاول . ومن أغرب ما جاء في هذا الكتاب قول متروبوليت آثينة انه اذا حظي هذا الرجل بحماية ثيودوروس نظر جميع الروم الى ثيودوروس نظرهم الى مخلص « رومانية » العام[١] .

وكانت مهمة ثيودوروس شاقة فان سلطان ايقونية كان يهدده من الشرق والجنوب . وكان امبراطور القسطنطينية يهدده من الغرب . وكانت الفوضى في الداخل اكثر خطراً . وقام اللاتين في السنة ١٢٠٤ نفسها يحاولون اخضاع آسية الصغرى . ونجحوا في اعمالهم التمهيدية نجاحاً كبيراً . وظنوا ان الشعب في آسية الصغرى يؤيدهم كل التأييد[٢] . ولكنهم توقفوا فجأة وتراجعوا عندما علموا ان البلغار امروا امبراطورهم بلدوين في الحرب .

تعاون الروم والبلغار : ولم يحسن اللاتين السياسة في البلقان وحقروا البلغار وامبراطورهم وجعلوا هذا يشعر انه دون امبراطورهم مكانة ومرتبة . وهددوه بالدمار والخراب . وأثاروا عليهم غضب الروم في تراقية ومقدونية فسخروا من عقائدهم وطقوسهم وشعائرهم . فنشأ تعاطف شديد بين الروم والبلغار . ويجوز الافتراض ان البطريرك المسكوني يوحنا كماتيروس الذي

١ *Michael Acominatus, Works, II, 276-277.*

٢ *Villehardouin, op. cit., I, 323.*

كان قد التجأ الى عاصمة البلغار لعب دوراً هاماً في التحالف الذي تمّ في السنة ١٢٠٥ بين هذين الشعبين[١]. فتشجع كالويان امبراطور البلغار وقوّى قلبه ورأى في هذا التفاهم سبيلاً لانشاء دولة رومية بلغارية تقضي على سيطرة اللاتين في البلقان وتتوج رأسه باكليل القسطنطينية[٢].

ولجأ البلغار والروم في اوروبة الى العنف. وسحب بلدوين جنوده من ميدان القتال في آسية الصغرى. وفي الخامس عشر من نيسان سنة ١٢٠٥ التقى الجيشان بالقرب من ادرنة. فدارت الدائرة على اللاتين وسقط في ميدان القتال نخبة فرسان الفرنجة وأسر بلدوين ثم ذبح ذبحاً. وتوفي دندولو متأثراً بما علمه من ذبح وخسارة، ودفن في كنيسة الحكمة الالهية. وما فتىء مغموراً بترابها حتى أمر السلطان محمد الثاني العثماني باخراجه وبالتمثيل ببقاياه[٣].

ولم يدم هذا التضامن بين الروم والبلغار طويلاً. فما كاد روم البلقان يبصرون قبساً من نور مشعاً في سماء نيقية حتى فتر تحالفهم مع البلغار واتجهت انظارهم الى ثيودوروس الاول عبر المضايق. وكان ثيودوروس قد اغتنم فرصة الحرب في البلقان وانشغال اللاتين عنه فوطد اركان عرشه في نيقية. واستقال البطريرك المسكوني يوحنا العاشر فأقام ثيودوروس ميخائيل الرابع اوتوريانوس بطريركاً مسكونياً في نيقية (١٢٠٨) ثم تسلم التاج الامبراطوري من يده. وأصبحت نيقية مركز المقاومة في الدين والدنيا. وتقوّت فيما يظهر هذه الامبراطورية الجديدة بسرعة شديدة لاننا نجدها تفاوض البندقية في السنة ١٢٢٠ فتعقد معها معاهدة تعترف فيها البندقية

١ *Zalatarsky, V. N., Greek - Bulgarian Alliance, 8-11.*
٢ *Uspensky, Th., Second Bulgarian Kingdom, 245-246.*
٣ *Kretschmayer, H., Gesch. von Venedig, I, 321-472.*

بالقاب ثيودوروس التقليدية الفخمة[١].

وتبوأ العرش اللاتيني في القسطنطينية هنريكوس اخو بلدوين، وكان نشيطاً قديراً. فعاد الى الحرب في آسية. ولكن الخطر البلغاري من ورائه حمله على ان يعود الى السلم في علاقاته مع ثيودوروس ولاسيما ان الاتراك السلاجقة كانوا يهددون ويُزبدون ولا يفرّقون في النهاية بين دولة مسيحية غربية ودولة مسيحية شرقية.

وكان اليكسيوس الثالث انجيلوس قد التجأ الى ايقونية. فلما استتب الامر لثيودوروس في نيقية وأعلن نفسه امبراطوراً ووريثاً لعرش رومة الجديدة طالب اليكسيوس بهذا العرش نفسه. فكتب سلطان ايقونية غياث الدين كيخسرو الاول الى ثيودوروس يطلب اليه ان يتنازل عن العرش. فنشبت الحرب بين الروم والاتراك ودارت رحاها بنوع خاص عند انطاكية كارية على نهر الميندر. فأظهر فرسان ثيودوروس الغربيون المرتزقة شجاعة فائقة وكبدوا الاتراك خسارة فادحة. وظفر ثيودوروس في معركة تالية بسلطان ايقونية نفسه فصرعه في ساحة القتال وأسر اليكسيوس الثالث وعاد به الى نيقية وأكرهه على قبول النذر ففعل ودخل أحد الاديار. ولم تحدث هذه المعركة الحاسمة بمعنوياتها اي تغيير فيما يظهر في حدود الدولتين[٢]، ولكنها أحيت ماضياً عسكرياً مجيداً وثبتت الدولة الجديدة وملأت قلوب الروم بالغبطة والنشاط وجعلتهم يرون في نيقية مركزاً جديداً لتجمعهم وتوحيد صفوفهم[٣]. وكتب رئيس اساقفة آثينة

١ « Thedorus, in Christo Deo fidelis Imperator et Moderatur Romeorum et Semper augustus Comnenus Lascarus », *Tafel und Thomas, op. cit.*, II, 205.

٢ *Jerphanion, G., Inscription Coppadociennes, Orientalia Christiana*, 1935, 242-243.

٣ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp.*, 515.

ميخائيل الخونياتي رسالة الى ثيودوروس هناه فيها بنصره ورجا ان يكون هذا النصر « مقدمة للاستيلاء على عرش قسطنطين الكبير في المحل نفسه الذي انتقاه له السيد له المجد[١] » . وتقوّى قلب ثيودوروس وأعلن الحرب على هنريكوس امبراطور القسطنطينية . وكان قد أعاد تنظيم جيشه وأصبح لديه اسطول قوي . وخشي هنريكوس سوء العاقبة واعتبر ثيودوروس اخطر اعدائه فحرر من برغاموس نداءَه الشهير الى جميع اصدقائه مستنجداً مستعيناً في منتصف كانون الثاني من السنة ١٢١٢[٢]. ولكن مخاوف هنريكوس لم تكن في محلها . فانه انتصر على ثيودوروس وتوغل في اراضيه[٣]. ووقع الاثنان صلحاً حدد الحدود بين الدولتين ولم يزد في ممتلكات هنريكوس شيئاً يذكر[٤]. وفي السنة ١٢١٦ توفي هنريكوس امبراطور القسطنطينية فزال بوفاته خطر اللاتين وتمكن ثيودوروس الاول من متابعة عمله الداخلي ليسلّم الى وريثه اداة فعالة لمتابعة الكفاح .

يوحنا الثالث باطاجي[٥] : (١٢٢٢ – ١٢٥٤) وتوفي ثيودوروس الاول في السنة ١٢٢٢ فتولى العرش بعده صهره يوحنا الثالث زوج ابنته ايرينة . وتميز يوحنا الثالث بنشاطه وبثاقب نظره وبسرعة تنفيذه . وكان من حسن حظه ان مناظريه في سياسة الشرق الرومي امبراطور القسطنطينية وذيسبوتس إبيروس وامبراطور البلغار لم يتفاهموا فيما بينهم . فلجأ يوحنا الثالث الى التحالف مع البعض منهم على البعض الآخر وحفظ بذلك مركزاً ممتازاً بينهم .

١ *Michael Acominatus, op. cit., II, 353 ff.*
٢ *Recueil des Hist. des Gaules, vol. 18, 530-533.*
٣ *Lauer, M. P., Lettre d'Henri d'Angre, Mélanges Schlumberger, I, 201.*
٤ *Gardner, A., op. cit., 85-86.*
٥ *John Ducas Batatzes.*

وكان قد استقر في مقاطعة إبيروس ميخائيل ابن يوحنا دوقاس انجيلوس غير الشرعي ، فاتخذ لنفسه اسم ميخائيل الاول انجيلوس دوقاس كومنينوس (١٢٠٥ - ١٢١٤) . وشملت مقاطعته باديء ذي بدء كل ما وقع بين ديراتزو وخليج كورونثوس . وكانت مدينة أرتة Arta عاصمة هذه المقاطعة . وأبقى ميخائيل الاول على الادارة البيزنطية فيها . وأدت ظروف هذه الفترة العسكرية الى العناية بالجيش للصمود في وجه الطامعين : ملوك ثيسالونيكية في الشرق وعمال البندقية في الغرب . وكانت إبيروس ولا تزال جبلية وعرة صعبة المنال فقدّر لها ان تحيا مستقلة كل الاستقلال . وقتل ميخائيل في ساحة الوغى فتولى الحكم بعده اخوه ثيودوروس . وكان ثيودوروس هذا قد بقي في نيقية في بلاط امبراطورها ، فكتب ميخائيل الاول الى ثيودوروس الاول ان يسمح لاخيه بالالتحاق به في سبيل الدفاع عن الروم . فسمح امبراطور نيقية بذلك شرط ان يقسم ثيودوروس اخو ميخائيل يمين الولاء والطاعة له ، ففعل . ولكنه ما كاد يستوي على عرش إبيروس حتى حنث في يمينه .

وتوفي هنريكوس امبراطور القسطنطينية في السنة ١٢١٦ فانتخب الاشراف بطرس الكورتناي Pierre de Gourtenay خلفاً له ، وكان هذا قد تزوج من يولندة اخت بلدوين وهنريكوس . وكان بطرس وقت انتخابه في فرنسة ، فقام وزوجته الى القسطنطينية عن طريق رومة ، وتسلم تاجه من يد البابا اونوريوس الثالث خلف انوشنتش الثالث . وأرسل بطرس زوجته يولندة الى القسطنطينية بحراً ، وقام هو وجنوده فعبر الادرياتيك ونزل بالقرب من ديراتزو . فكمن له ثيودوروس وانقض عليه فاسره مع اكثر جنوده . وتوفي بطرس في السجن في إبيروس . فحكمت يولندة امبراطورية القسطنطينية سنتين متتاليتين (١٢١٧ - ١٢١٩) .

وكان بونيفاتيوس ملك ثيسالونيكية قد سقط في ميدان القتال في

السنة ١٢٠٧ في الحرب ضد البلغار، فاضطربت احوال مملكته الداخلية. ولكن الامبراطور هنريكوس تمكن في اثناء حياته من الدفاع عن هذه المملكة ضد اعدائها الروم والبلغار. فلما توفي هنريكوس وبطرس بعده خلا الجو لثيودوروس ذيسبوتس إبيروس. فأعلن هذا الحرب على مملكة ثيسالونيكية واستولى عليها في السنة ١٢٢٢، واتسع ملكه من الادرياتيك حتى ايجه فاتخذ لنفسه لقب فسيلفس ولم يبر بيمينه ليوحنا باطاجي امبراطور نيقية. وطلب الى متروبوليت ثيسالونيكية ان يتوّجه فامتنع هذا مبيناً ان التتويج من حقوق البطريرك المسكوني. ولما كان هذا البطريرك جالساً في نيقية عاصمة يوحنا باطاجي الامبراطور التجأ ثيودوروس الى متروبوليت اوخريدة المستقل في سلطته آنئذٍ. فتوّجه هذا المتروبوليت (١٢٢٣). وتردى ثيودوروس بالارجوان واحتذى الحذاء الارجواني. وقام في الشرق بعد هذا امبراطوريات ثلاث. وخشيت رومة سوء العاقبة فكتب البابا اونوريوس الثالث الى الملكة بلانش ام لويس التاسع ملك فرنسة يستحثها لاسداء المعونة الى امبراطور القسطنطينية.

وتسابق الفسيلفسان نحو عرش القسطنطينية. فتمكن يوحنا الثالث باطاجي بقوة اسطوله من احتلال بعض جزر ايجه ثم لبى نداء الروم في أدرنة ونزل في اوروبة واحتل هذه المدينة دون مقاومة[1]. وهبّ ثيودوروس للقتال فاستولى على معظم تراقية. واقترب في السنة ١٢٢٥ من ادرنة فتراجع يوحنا عنها. ثم تابع ثيودوروس زحفه حتى وصل الى اسوار القسطنطينية. وكاد يعيد حكم الروم الى مقره الرئيسي لولا تدخل يوحنا آسن الثاني امبراطور البلغار (١٢١٨ – ١٢٤١).

وتوفي روبر كورتناي امبراطور القسطنطينية في السنة ١٢٢٨ وكان

١ Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 523.

اخوه وخلفه بلدوين الثاني لا يزال في الحادية عشرة من عمره ، فنشأت مشكلة الوصاية على هذا الامبراطور القاصر . ورغب يوحنا آسن الثاني في هذه الوصاية واقترح زواج بلدوين من ابنته ووعد بتحرير الاراضي التي كان قد احتلها الروم . ولكن الاكليروس اللاتيني وبعض فرسان الفرنجة اصروا على انتخاب يوحنا برينوس صاحب الحق في عرش القدس الذي كان آنئذٍ في اوروبة . فتحالف ثيودوروس ويوحنا آسن . ثم نكث ثيودوروس وعده . فنشب القتال وانتصر يوحنا آسن في السنة ١٢٣٠ في كولوكوتينتزة Kolokotinitza بين ادرنة وفيليبي ، ووقع ثيودوروس في الاسر ثم سملت عيناه[١]. فتلاشت الامبراطورية الغربية ولم يبقَ في ميدان التسابق للاستحواذ على عرش القسطنطينية سوى يوحنا آسن البلغاري ويوحنا باطاجي النيقاوي .

وغضب يوحنا آسن لاخفاقه في الاستيلاء على الوصاية في القسطنطينية فدخل في تحالف بينه وبين يوحنا باطاجي وعمانوئيل انجيلوس خلف ثيودوروس في ثيسالونيكية . فأدى هذا التحالف وهذا العمل المشترك الى التقارب بين روم الغرب وروم الشرق ، بين ثيسالونيكية ونيقية ، وفتح الباب على مصراعيه ليوحنا باطاجي ان يزيد نفوذه في ثيسالونيكية وتوابعها . وحاصر الروم والبلغار القسطنطينية في السنة ١٢٣٥ من البر والبحر معاً ولكنهم اضطروا الى ان يتراجعوا . وقام بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية في رحلة الى الغرب يستنهض الهمم لمساعدته ضد صفوف « المنشقين » عن الكنيسة . وكان السبب الاكبر في تراجع الروم خوف يوحنا آسن من زميله يوحنا باطاجي من شخصيته ومواهبه وقوته .

١ *Ilynsky, G., A Charter of John Asen II, Transactions of Russian Inst. of Const., 1901, 27.*

وما ان لمس هذه الحقيقة حتى اتصل برومة معلناً استعـداده للعودة الى حضن الكنيسة طالباً ارسال ممثل بابوي الى عاصمته . ومدّ هذا التفكك بين الخليفين في عمر الامبراطورية اللاتينية فترة اخرى من الزمن .

يوحنا الثـالث وفريدريك الثاني : ورقي عرش الامبراطورية الغربية في السنة ١٢٢٠ فريدريك الثـاني أعظم اباطرة الغرب في العصور الوسطى . وكان قد نشأ وترعرع في صقلية ، فشبّ اوسع افقاً وأرحب صدراً من غيره ولاسيا في المسائل الدينية . فكان يجيد الايطالية واليونانية والعربية . وعطف على العلم والعلماء فقصده عدد من علماء العرب واليهود ، وانشأ جامعة نابولي ، وعطف كثيراً على مدرسة الطب في سالرنو . وكان يتميز بعقل مولـّد جريء فرأى ان يمارس صلاحياته وسلطته الى اقصى الحدود ، فاصطدم برئاسة الكنيسة التي كانت تعتبر نفسهـا فوق جميع الملوك والامراء[١].

ورأى فريدريك الثاني في الامبراطورية اللاتينية مظهراً من مظـاهر سلطة البابا وأداة لتوسيع نفوذه في الشرق والغرب معاً ، فقاومها مقاومة شديدة وعطف على مناوئيها ، فأمدّ ثيودوروس إبيروس وثيسالونيكيـة بنفوذه وشيء من ماله فوقع بعمله هذا تحت حرم البابا . وكان يوحنـا الثالث باطاجي يرى في حبر رومة غريغوريوس التاسع (١٢٢٧ — ١٢٤١) عدواً لدولة الروم لانه لم يعترف ببطريركيـة نيقية ، فأصبح بذلك حجر عثرة في سبيل الوصول الى القسطنطينية . فتفاهم العـاهلان يوحنا وفريدريكوس وتحالفا في اواخر العقـد الرابع من القرن الثالث عشر[٢]. وحارب الروم في صفوف فريدريكوس في ايطـالية . وتوفيت القسيلسة

١ *Haillard Breholles, J., Introd. à l'Hist. Dipl. de Frederic II.*

٢ *Norden, W., Papsttum und Byzanz, 322.*

فتزوج يوحنا من ابنة فريدريكوس قسطنسة[1]. ولكن هذا التحالف لم يدم طويلاً لان مانفرد Manfred الذي تولى عرش صقلية بعد فريدريكوس تألب على نيقية وعاداها.

يوحنا الثالث وكيخسرو الثاني: وتمخض الدهر في اواسط آسية فأتى بتموشين خان الذي عرف بجنكيز خان اي الخان العظيم (١١٥٤–١٢٢٧). وقام احد احفاده باتو بجموع كبيرة من التتر فدخل جنوبي روسية واستولى على كييف في السنة ١٢٤٠، ثم قطع جبال الكربات فوصل الى بوهيمية مخرباً مدمراً وفرض الاتاوة على الصقالبة الجنوبيين وعلى البلغار فدفعوها صاغرين. وجاءت جموع من هؤلاء آسية الصغرى مهددين سلطنة ايقونية ودولة الروم في طرابزون. فوحد الاتراك والروم صفوفهم لصد التتر، ولكنهم لم يفلحوا. ففي السادس والعشرين من حزيران سنة ١٢٤٣ تغلب التتر على الاتراك والروم في ارزنجان[2]. ودخل كيخسرو الثاني وعمانوئيل طرابزون في طاعة الخان الكبير. وأصبحت حدود التتر متاخمة لحدود فسيلفس نيقية في آسية. وجمعت المصيبة بين يوحنا وخصمه التقليدي سلطان ايقونية ولكنها أنزلت بهذا خسائر فادحة هدت أركان حكمه فلم يعد بعد ذلك خصماً يعبأ به[3].

يوحنا الثالث عدو اللاتين الاوحد: وتوفي يوحنا آسن الثاني في السنة ١٢٤١ فانتهى بوفاته مجد مملكة البلغار الثانية. ولم يتمكن خلفاؤه من الاحتفاظ بفتوحاته. وانتهز يوحنا الثالث هذه الفرصة الثمينة فعبر الى اوروبة بجنوده وأعاد الى الروم كل ما كان يوحنا آسن قد ضمه الى

١ Nicephorus Gregoras, *Hist. II, 7, 3; Diehl, C., Fig. Byz. 207-225.*

٢ *Groussel, R., Empire des Steppes, 325-328.*

٣ *Bréhier, L., Byzance, 390-381.*

ملكه من مقدونية وتراقية . وفي السنة ١٢٤٦ استولى على ثيسالونيكية وعلى ما بقي من مدن تراقية في حكم اللاتين . واعترفت إبيروس بسيادته. فلم يبقَ والحالة هذه اي منافس يشاطره الطموح الى الاستيلاء على عرش القسطنطينية . وعند وفاته في السنة ١٢٥٤ امتدت سلطته في اوروبة من شاطىء البحر الاسود حتى شاطىء الادرياتيك . ولم يبقَ خارجاً عن حكمه سوى القسطنطينية واواسط بلاد اليونان وشبه جزيرة المورة .

وأحب الروم يوحنا الثالث وقدروه حق قدره واعتبروه اباً مجدداً باراً تقياً . وقام بعد وفاته من أطلق عليه لقب قديس . ولكن الكنيسة الارثوذكسية لم تعترف بذلك . ولا يزال أهل مغنيسية حتى يومنا هذا يحتفلون بذكراه في كنيستهم المحلية في الرابع من تشرين الثاني من كل عام[١].

ثيودوروس الثاني: (١٢٥٤ - ١٢٥٨) ولدى وفاة يوحنا الثالث حمل الجنود ابنه ثيودوروس حسب التقاليد الموروثة على ترس خاص ونادوا به فسيلفساً . وكان البطريرك المسكوني عمانوئيل الثاني قد توفي منذ زمن قريب ، فعرض ثيودوروس البطريركية على استاذه نيقيفوروس البلميدي فرفض . فانتقى ثيودوروس الراهب ارسانيوس افطوريانوس ، فوافق المجمع ، فشُرطن بطريركاً مسكونياً . وفي الخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٢٥٤ توّج البطريرك الجديد ثيودوروس فسيلفساً .

وكان يوحنا الثالث قد عني عناية فائقة باعداد ثيودوروس للملك ، ان من حيث حمل السلاح وممارسة القتال ، او من حيث العلم والادب والفلسفة . فانه وكل أمر تهذيبه العلمي الى أكبر اساتذة زمانه : الى نيقيفوروس البلميدي Blemmydes والى جورج أكروبوليتس Acropolites . ومن هنا كانت

١ *Arch. Sergius, Monologion, II, 344.*

عقيدة ثيودوروس ان العلم والفضيلة لا ينفصلان . وورث ثيودوروس عن والده داءَ النقطة فنشأ سقيماً ضعيفاً . وكثرت نوباته بهذا الداء فأثرت في جهازه العصبي ، فلم يكن يقوى دائماً على ضبط اعصابه ، فأصبح سريع التهيج متسرعاً في احكامه . ولكنه ظل يحسن القيادة والادارة ، فقاد جيوشه الى النصر اكثر من مرة ، ووكل الادارة الى رجال اكفياء ونفّذ احكامهم بدون تردد . وأدى هذا الحزم في تنفيذ القـانون الى شيء كثير من الامتعاض في الاوساط العـالية ولاسيما بين أصحاب الاملاك الكبيرة . فسهّل بذلك وصول آل باليولوغوس الى الحكم كما سنرى[١].

وما ان علم ميخائيل الثاني ملك البلغار وصهر ثيودوروس زوج اخته بوفاة عمه يوحنا الثالث باطاجي حتى انقضّ على مقدونية وتراقية يستعيد ما ضمه يوحنا الثالث الى ملكه منهما . فعبر ثيودوروس الثاني الى اوروبة في شتاء السنة ١٢٥٥ وطرد البلغار من جميع الاماكن التي كانوا قد احتلوها . وفي ربيع السنة ١٢٥٦ عاد الى اوروبة قاصداً عاصمة البلغار فصمد البلغار في وجهه ، وقبل الطرفان بصلح يعيد الحدود الى ما كانت عليه عند بداية الحرب[٢].

وكان ميخائيل الثاني ديسبوتس إبيروس قد خطب مريم ابنة ثيودوروس لابنه نيقيفوروس . فلما صمد ثيودوروس في وجه البلغار كما ذكرنا آنفاً سعى الديسبوتس لعقد الزواج وأرسل ابنه وخطيبته الى قصر ثيودوروس فاستقبلهما بحفاوة ، وقام هذا الى ثيسالونيكية ليشترك في حفلة الزواج . ولكنه طلب الى زميله ميخائيل والد صهره ان يتخلى بهذه المناسبة عن البانية وصربية وديراتزو « مفاتيح الشرق » وان يسلمهـا له . فحاول

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 171 ; Bréhier, L., Byzance, 384-385.*

٢ *Theodori Lascaris Epistulae, Festa, 279-282.*

ميخائيل ان يتملص واستعان بالصرب والالبان ولكن دون جدوى . فاضطر الى ان يقبل (١٢٥٧) .

وكان ثيودوروس قد سلّم دفة الامور في نيقيــة الى ميخائيل باليولوغوس ، فخشي هذا تقلبات ثيودوروس ففرّ من نيقيـة والتجأ الى كيخسرو الثاني في ايقونية . وأطل المغول يهددون الاتراك السلاجقـــة ، فأبلى ميخائيل بلاءً حسناً في صفوف كيخسرو وانتصر على المغول بالقرب من تسكارة على حدود ارمينية . ثم غلب المغول كيخسرو فراح هذا يطلب معونة ثيودوروس في مغنيسية (١٢٥٨) . وبعد ذلك بقليل اضطر كيخسرو الى ان يدخل في طاعة المغول مؤدياً اتاوة سنوية . ثم جاءَ دور ثيودوروس فاستقبل في مغنيسية وفداً مغولياً . وقدر له النجاح لان المغول كانوا قد بدأوا يتطلعون الى سورية . فوقّع الوفد المفاوض معاهدة سلم مع ثيودوروس ونجت بذلك دولة نيقية من مطامع المغول وتخريبهم[١]. ورأى ميخائيل باليولوغوس ان لا مفر من التفاهم مع الفسيلفس ، فعاد الى نيقية طالباً الصفح عما مضى واعداً بالامانة والاخلاص . فطلب اليه الفسيلفس ان يقسم يمين الطاعة والولاء له ولابنه يوحنا من بعده ، ففعل ميخائيل وعاد الى سابق عزه وسطوته .

واستغل ميخائيل الثاني ديسبوتس إبيروس انشغـــال ثيودوروس في الشرق فاستعان بالالبـــان والصرب واستعاد « مفاتيح الشرق » وجميع مقدونية ما عدا ثيسالونيكية . وأنفذ ثيودوروس ميخـائيل باليولوغوس بقوة صغيرة الى مقدونية فلم يقوَ هذا القائد على ميخائيل الثـاني . فأمر ثيودوروس بالقاء القبض عليه واودعه السجن في نيقية مدعياً ان سحره أعاد اليه مرضه .

١ Andreeva, M., *Ambassadeurs Tatares à la Cour de Nicée.*

وفي آب السنة ١٢٥٨ شعر ثيودوروس باقتراب الاجل ، فعاش عيشة الرهبنة ووزع الصدقات بسخاء على الفقراء والمساكين وطلب الى استاذه نيقيفوروس البلميدي ان يحله من خطاياه فأبى . فالتجأ ثيودوروس الى متروبوليت ميتيلينة . ثم توفي في السادسة والثلاثين من عمره . فنقل الى دير سوسندرة في مغنيسية ليدفن مع والده يوحنا الثالث .

يوحنا الرابع : (١٢٥٨ - ١٢٦١) وتوفي ثيودوروس عن اربع بناتٍ قاصرات وعن ولد واحد هو يوحنا وكان حينئذٍ ابن عشر سنوات . وكان قد أقام ثيودوروس على ابنه القاصر وصياً كلًا من البطريرك ارسانيوس والوزير الصديق الحميم القديم جاورجيوس موزالن Muzalon [١] .

وأحسّ موزالن بعدم رضى الاستقراطيين عنه وعن وصايته ، فطلب الى مجلس الشيوخ ان ينتخب وصياً غيره . ولكن بعض الشيوخ ألحّ عليه بوجوب متابعة العمل ، وفي طليعة هؤلاء ميخائيل باليولوغوس الذي كان يدبر مكيدة لاغتياله . وفي اليوم التاسع لوفاة ثيودوروس ذهب الوصيّان وافراد الاسرة المالكة وكبار رجال الدولة والاعيان الى مغنيسية لاقامة الصلاة عن نفس ثيودوروس . وبينما هم يصلون دخل عدد من فرسان الافرنج المرتزقة من رجال ميخائيل باليولوغوس الى الكنيسة واغتالوا الوصي موزالن واشقاءَه [٢]. ثم اجتمع الاعيان والشيوخ وانتخبوا ميخائيل باليولوغوس وصياً بلقب دوق عظيم Megaduc ، ثم انتخبوه ديسبوتساً . وبعد ان قوي على حزب الفسيلفس الصغير طلب ان يصير فسيلفساً شرط ان يقسم اليمين ، على ان يحفظ حياة يوحنا وان يسلمه الدولة متى بلغ

١ *Dolger, F., Regesten, 1846.*
٢ *Acropolita, G., Annales, 75; Camb. Med. Hist., IV, 507.*

سنّ الرشد . وأقسم اليمين في مطلع السنة ١٢٥٩ في مغنيسية . ثم قام الى نيقية ليتسلم تاجه من يد البطريرك . فطلب ان يتوج قبل يوحنا فأبى البطريرك ، فألح الشعب والاكليروس على البطريرك فقبل ان يتوج ميخائيل وان يؤجل تتويج يوحنا الى ما بعد رشده . فتوجّه البطريرك فسيلفساً واستعفى واقام في دير . فاقيم بعده نيقيفوروس الثاني وتوفي في اوائل السنة ١٢٦١[١].

فتح القسطنطينية : (١٢٦١) وكان بلدوين الثاني امبراطور اللاتين قد طلب اعادة ثيسالونيكية ومقدونية وتراقية اليه . فطلب ميخائيل نصف ايراد كارك العاصمة ومضرب النقود وهدد بالحرب . فسكت بلدوين ووقع معاهدة مع ميخائيل في اواخر السنة ١٢٥٨[٢]. فحوّل ميخائيل اهتمامه شطر سميه ميخائيل الثاني ديسبوتس إبيروس . وكان هذا قد ضمّ مقدونية حتى الفردار ، وانشأ تحالفاً ضد نيقية بينه وبين ملك صقلية وامير المورة . فأنفذ ميخائيل اخاه يوحنا بقوة الى الغرب فاحتل ارتة عاصمة الديسبوتس وأسر امير المورة ، ثم وقع معاهدة مع الديسبوتس في اواخر السنة ١٢٥٩[٣].

وتفاهم ميخائيل والمغول في آسية ولم يعبأ بمصير حليفه سلطان ايقونية[٤]. ثم حالف عمانوئيل كومنينوس امبراطور طرابزون[٥]. وكانت البندقية قد جارت على جنوى منذ السنة ١٢٠٤ فطردت الجنويين من القسطنطينية ومن سائر اسواق الروم . فلجأت جنوى الى القرصنة وأثارتها حرباً على البندقية

١ *Dict. Hist. Geog. Eccl., IV, 750.*
٢ *Dolger, F., Regesten, 1858.*
٣ *Dolger, F., Regesten, 1882.*
٤ *Dolger, F., Regesten, 1887.*
٥ *Bréhier, L., Byzance, 389.*

لا هوادة فيها . وشاهدت عكة في حزيران السنة ١٢٥٨ قتالاً شديداً بين الطرفين في شوارعها . وخسرت جنوى موقعة بحرية في نضالها هذا فلجأت الى صور[1]. وتدخل البابا الكسندروس الرابع ليضع حداً لهذا النزاع وأرسل ممثلاً خاصاً الى عكة (١٢٥٩) لينقل حكمه في الامر ، ولكن البنادقة فيها لم يقبلوا شيئاً من هذا . فاتصلت جنوى بميخائيل باليولوغوس وعرضت تعاونها في سبيل عودة الروم الى الحكم في القسطنطينية . ولم يكن لدى ميخائيل اسطول كافٍ يغير به على القسطنطينية بحراً ، فقبل عرض جنوى ووقع في نمفية Nymphaeum في الثالث عشر من آذار سنة ١٢٦١ معاهدة هجومية دفاعية ضد البندقية والامبراطور بلدوين الثاني . وقضت شروط هذه المعاهدة بان تضع جنوى اسطولها تحت تصرف الفسيلفس وان يمنحها هو جميع الامتيازات التي كانت البندقية تتمتع بها في القسطنطينية وغيرها من اجزاء دولة الروم[2].

وبعد هذا بوقت قصير ارسل الفسيلفس القائد اليكسيوس استراتيغوبولس Strategopoulos على رأس ثماني مئة جندي ليقوم بمناورة على الحدود البلغارية . فلما وصل الى غاليبولي انضم اليه متطوعون كثيرون من الروم وأقنعوه بوجوب القيام الى ضواحي القسطنطينية مؤكدين له ان حاميتها خرجت لتحارب بعيداً عنها ، فخشي القائد سوء العاقبة . ولكن احد ابناء العاصمة خرج في مساءِ ذلك اليوم من بيته بسرداب الى خارج السور . فامسكه الروم وفهموا منه حالة العاصمة ، فادخلوا من السرداب خمسين جندياً ، فتمكن هؤلاء من الاستيلاء على باب من ابواب المدينة . فدخل الجند جميعهم في الخامس والعشرين من تموز دون مقاومة ونادوا بميخائيل ويوحنا

١ *Grousset, R., Croisades, III, 534-549.*

٢ *Dolger, F., Regesten, 1887.*

فسيلفسين ، فانضم الروم في العاصمة الى الجيش . وأما السكان الافرنج فمنهم من قتل ، ومنهم من هرب ، ونجا بلدوين الامبراطور على قارب تاركاً كل ما لديه غنيمة للفاتحين . فلما سمع جيش الافرنج بما جرى عاد افراده الى العاصمة ليخلصوا عيالهم . فقابلهم الروم بالقتـــال والاحراق والتخريب . فيئس الافرنج واخذوا من استطاعوا من عيالهم وسافروا .

فلما بلغ ميخائيل فتح القسطنطينية لم يصدق ، ثم تثبّت من الامر فابتهج . وقام الى العاصمة وفي صحبته ابنـــه وزوجته ووزراؤه ومجلس دولته ، فوصلوا في الرابع عشر من آب وباتوا خارج الاسوار . ثم أمر الفسيلفس ان يفتح الباب الذهبي الذي سدّه الافرنج . وفي الغـد صعد متروبوليت كيزيكوس الى احد الابراج حاملاً ايقونة العذراء . وصلى على مسمع من الجماهير ثلاثة عشر افشيناً . وكان الفسيلفس عند تلاوة كل افشين يكشف رأسه ويركع على الارض فيحذو حذوه سائر الحاضرين . وعند نهاية كل افشين كانوا ينهضون ويصرخون معاً « كيريه ايلايصون » يا رب ارحم ! وبعد اتمام الصلاة مشى ميخائيل وراء الايقونة الى دير الاستودي حيث وضعت ايقونة العذراء . ثم امتطى جواداً وذهب الى كنيسة الحكمة الالهية . فصلى وشكر ، ثم ذهب الى القصر وكافأ القائد الظافر مكافأة لائقة وأمر بذكره مع الملوك سنة كاملة . وأرجع البطريرك ارسانيوس من عزلته ، فتوّجه مرة ثانية في كنيسة الحكمة الالهية . ومنع ذكر يوحنا الرابع وسمل عينيه[1] .

انوشنتش الثالث والكنيسة الارثوذكسية : ولم يرضَ هـذا الحبر الكبير باديء ذي بدءٍ عن احتلال القسطنطينية وانشاء امبراطورية لاتينية

١ *Pachymerius, G., Historia, II, 26-29, 31-35; Chapman, Michel Paléologue, 43-47.*

في الشرق لانه رأى في ذلك ابتعاداً عن الهدف الاسمى الذي نشأت من أجل تحقيقه الحروب الصليبية . ثم عاد فرأى في التطور الذي طرأ على الاوضاع السياسية في الشرق نتيجةً لقيام هذه الامبراطورية اللاتينية ظرفاً ملائماً لتقوية الكثلكة وتدعيم السلطة فيها . فعني اولاً بتنظيم الكنائس الكاثوليكية التي نشأت في المناطق الصليبية . ثم نظر في علاقاتها مع السلطات السياسية المحلية ومع الشعب الارثوذكسي والسلطات الارثوذكسية الروحية . ثم اتسع افقه فحاول توحيد الكنيستين الشقيقتين الارثوذكسية اليونانية والكاثوليكية اللاتينية .

وكان قد بقي في المقاطعات الصليبية عدد غفير من الارثوذكسيين شعباً واكليروساً . فسمح انوشنتش في الابرشيات التي تغلب فيها العنصر الارثوذكسي على غيره ان يسام فيها اساقفة ارثوذكسيون وان تقام الشعائر الارثوذكسية بما فيها استعمال الخمير في الذبيحة . ولكنه بث رسله في هذه المناطق يدعون لتوحيد الكنيسة ، اي للاعتراف بسلطة البابا .

وفي السنة ١٢٠٤ أمَّ القسطنطينية قاصد رسولي يدعو الاكليروس الارثوذكسي للتفاهم وتوحيد الكلمة . وجرت مفاوضات في هذا المعنى في كنيسة الحكمة الالهية ولكن دون جدوى[١]. ثم تابع الطرفان البحث في السنة ١٢٠٥ — ١٢٠٦ ، واشترك في التفاوض كل من نيقولاووس ميزاريتس (رئيس اساقفة افسس فيما بعد) ونيقولاووس اوترانتو الذي كان يجيد اللاتينية واليونانية فيترجم للطرفين . ثم توفي البطريرك المسكوني يوحنا العاشر (١٢٠٦) وكان قد لجأ الى بلغارية عند احتلال القسطنطينية ، فطلب الاكليروس الارثوذكسي في الامبراطورية اللاتينية الى الامبراطور هنريكوس ان يؤذن لهم بانتخاب بطريرك جديد . فوافق الامبراطور

١ *Heisenberg, A., Neue Quellen, I, 48-50.*

ولكنه اشترط ان يخضع البطريرك الجديد لسلطة البابا. فأخفقت المفاوضات التي كانت لا تزال قائمة في القسطنطينية للتوفيق بين الكنيستين[1]. وقضت ظروف ثيودوروس الاول لاسكاريس ان يكون لديه بطريرك في نيقية. وأنتخب ميخائيل الرابع، كما سبق ان أشرنا، فاتجهت انظار الارثوذكس في المناطق الصليبية الى نيقية، الى فسيلفسها وبطريركها للتحرر من ضغط الامبراطور اللاتيني وضغط رئيس كنيسته.

وجرت مفاوضات جديدة لتوحيد الصفوف في السنة ١٢١٤ في القسطنطينية فمثل الكنيسة اللاتينية القاصد بيلاجيوس Pelagius وناب عن البطريرك المسكوني نيقولاووس ميزاريتس «متروبوليت افسس واكسرخوس جميع آسية». ولكن صلف بيلاجيوس وضغطه على الاكليروس الارثوذكسي في العاصمة وتشبثه بوجوب الاعتراف «بسلطة» البابا حالت دون الوصول الى اي تفاهم بين الكنيستين[2].

وجل ما توصل اليه البابا انوشنتش الثالث هو اعتراف المجمع اللاتراني الذي التأم في السنة ١٢١٥ بسلطة البابا على بطاركة اللاتين في الشرق، في القسطنطينية وانطاكية والقدس. ولكن الكنيسة الارثوذكسية لم ترَ في هذا المجمع مجمعاً مسكونياً وبالتالي فانها لم تذعن لمقرراته. ولم يتمكن انوشنتش من فصل الدين عن السياسة. فانه لم يعترف بلقب الفسيلفس الذي اتخذه لنفسه ثيودوروس الاول لاسكاريس، ولم يخاطبه باي لقب اعلى من لقب «شريف[3]». ورأى في رسالته اليه ان اللاتينيين باحتلالهم القسطنطينية كانوا اداة الحق في الاقتصاص من اليونان لان هؤلاء لم

١ *Heisenberg, A., op. cit., II, 5-6, 25-35.*

٢ *Gerland, E., Gesch. des Lateinischen Kaiser - reiches, 233-243.*

٣ *« Nobili Viro Theodoro Lascari ».*

يعترفوا بسلطة رومة[1].

وفي السنة ١٢٣٢ انطلق خمسة رهبان فرنسيسكانيين من الاسر في ايقونية فجاؤوا نيقية وفاتحوا البطريرك المسكوني جرمانوس الثاني في اتحاد الكنيستين. فسر البطريرك بهم وأطلع الفسيلفس يوحنا الثالث باطاجي على ما اقترحوه وكتب الى البابا غريغوريوس التاسع للنظر في أمر الاتحاد. فجاءَ نيقية في السنة ١٢٣٤ وفد باباوي لهذه الغاية. وانعقد مجمع لدرس مشروع الاتحاد في نيقية اولاً ثم في نمفية. واشتد الجدل بين الفريقين فطلب نيقيفوروس البلميدي ان يتم الاتحاد على قبول عبارة الآباء القديمة: ان الروح القدس ينبثق من الآب بالابن. ولكن الغربيين لم يرضوا. فرأى الفسيلفس ان يبقى الغربيون على عادتهم في تقديم الفطير ويحذفوا من دستور الايمان الانبثاق من الابن. فرفض نواب البابا ذلك. وانفض المجمع دون الوصول الى اية نتيجة[2]. وكتب عندئذٍ جرمانوس البطريرك مؤلفه الشهير في انبثاق الروح القدس.

وتوفي فريدريكوس الثاني امبراطور الغرب وصديق يوحنا الثالث باطاجي (١٢٥٠) وتولى شؤون صقلية بعده مانفرد. وتألب هذا على الروم في نيقية، ففاوض فسيلفس الروم البابا انوشنتش الرابع في أمر اتحاد الكنيستين واشترط اعادة القسطنطينية وبطريركيتها الى الروم، وخروج امبراطور اللاتين والاكليروس اللاتيني من عاصمة الشرق، وقبل بالاعتراف بسلطة البابا في مقابل هذا كله. فقبل انوشنتش الرابع. وكتب البطريرك الى البابا يُعلن تفويض الوفد الارثوذكسي مفاوضة رومة في أمر هذا

١ *Epistolae, XI, 47.*

٢ *Mansi, Amplissima, XXIII, 279-318; Disputatio Latinarum et Graecarum, (Archivum Franciscanum, XII, 428-465, 1919)*

الاتحاد[1]. وتوفي البابا والفسيلفس في السنة ١٢٥٤ فظل اتفاقهما مشروع اتفاق غير موقع. ونهج ثيودوروس الثاني نهج والده يوحنا الثالث، فرأى في اتحاد الكنيستين اداة حسنة للاستيلاء على القسطنطينية. فأوفد الى البابا الكسندروس الرابع في السنة ١٢٥٦ شريفين من أشراف المملكة يطلبان العودة الى التفاوض على الاسس نفسها التي كان قد اقترحها يوحنا الثالث. فلبى البابا النداء وأرسل الى نيقية وفداً مفاوضاً برئاسة قسطنطين اسقف اورفيتو Orvieto وخوّله حق الدعوة الى مجمع وحق الترؤس عليه وسن مقرراته. وتحسنت ظروف ثيودوروس السياسية والعسكرية. فلما وصل الوفد المفاوض الى مقدونية منعه الفسيلفس من التقدم فيها وأمره بالخروج من الاراضي الخاضعة لسلطته[2].

وجاءت السنة ١٢٥٨ فتوفي ثيودوروس الثاني، وتولى الوصاية ميخائيل باليولوغوس، وطمع في الحكم فأعلن نفسه فسيلفساً في السنة ١٢٥٩. وخشي حلفاً ينظم ضده في الغرب، كما سبق ان أشرنا، فأرسل يفاوض البابا الكسندروس الرابع ويطلب معونته. ولكن هذا البابا كان قنوعاً متقاعساً فلم يحرك ساكناً ولم يستغل ظرف ميخائيل. ثم استولى ميخائيل على القسطنطينية دون معونة البابا[3].

علماء نيقية وادباؤها : وعلى الرغم من الفظائع التي ارتكبها الصليبيون في القسطنطينية من سلب ونهب وتدمير وتخريب، وعلى الرغم ايضاً من صغر الدولة التي قامت في نيقية ومن ضآلة مواردها فانها انجبت عدداً من العلماء والادباء خلدوا ذكرها على مر الدهور. ويعود الفضل في هذا

١ Norden, W., *Das Papsttum*, 756-759.

٢ Acropolita, G., *Annales*, 139-140.

٣ Norden, W., *Papsttum*, 382-383; Janin, R., *Sanctuaires de Byzance*, *Etudes Byzantines*, II, 1945, 134-184.

الى الاسرة الحاكمة . فان جميع اللاساكرة ما عدا الصبي يوحنا الرابع احبوا العلم وعطفوا على العلماء . فثيودوروس الاول المؤسس دعا هؤلاء من جميع المناطق الى بلاطه فأنفق عليهم بسخاء وشجعهم على متابعة اعمالهم . وبين هؤلاء نيقيتاس المؤرخ ، فانه فرّ من القسطنطينية عند سقوطها بيد الصليبيين فوجد في جوار ثيودوروس وقتاً ودخلاً كافيين لاعادة النظر في تاريخه واكماله ولتصنيف رسالته الشهيرة في الارثوذكسية . وعلى الرغم من متاعب يوحنا الثالث باطاجي السياسية الداخلية والخارجية والعسكرية فانه انشأ دوراً للمطالعة في مدن دولته وحض الشبان على الالتحاق بالمدارس للتعلم . ولم يكتفِ ثيودوروس الثاني وابنه وخلفه بانشاء دور المطالعة بل ابتاع على نفقته الكتب لها وشجع امناءَها على اعارتها للمطالعة خارج هذه الدور[1].

نيقيفوروس البليدي : (١١٩٧ – ١٢٧٢) وأشهر علماء نيقية في هذه الفترة من تاريخها نيقيفوروس البليدي . ولد في القسطنطينية في اواخر القرن الثاني عشر وفرّ منها مع والديه لدى سقوطها في يد اللاتين الصليبيين والتجأ معهما الى اراضي ثيودوروس لاسكاريس الاول . وقضى حداثته يتنقل بين مدن آسية الصغرى في طلب العلم . فتعلم الشعر والبيان والمنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والطب والحساب والهندسة والفيزياء والفلك . ثم استقر في دير وانكب على درس الاسفار المقدسة . ورقي السدة البطريركية في عهد يوحنا الثالث باطاجي البطريرك جرمانوس الثاني . وكان يحب نيقيفوروس ويعطف عليه ، فاستدعاه الى الدار البطريركية وأطلعه تدريجياً على مشاكل الكنيسة . وآثر نيقيفوروس العزلة والحياة الرهبانية فترك الدار البطريركية وانعزل في دير بالقرب من ميليطس . ثم خرج من

[1] Theodori Scutariotae Additamenta, ed. Heisenberg, 297.

هذا الدير ليشترك في المفاوضات التي جرت في عهد يوحنا الثالث وجرمانوس الثاني مع رومة في أمر اتحاد الكنيستين . وعاد الى العزلة يدرس ويؤلف ليخرج منها بامر من الفسيلفس للتفتيش عن المخطوطات في تراقية ومقدونية وآثوس وابتياعها لحساب الفسيلفس . ثم طلب اليه يوحنا ان يعنى بتربية ابنه ثيودوروس الثاني ففعل وانشأ ديراً خاصاً وكاد يصبح بطريركاً مسكونياً ، وتوفي في ديره في السنة ١٢٧٢[١].

وأهم مصنفات هذا العالم سيرته وفيها معلومات هامة مفيدة عن السياسة والاجتماع والعلم في النصف الاول من القرن الثالث عشر . ويجيء بعدها في الاهمية كتابه سنة الفسيلفس الذي صنفه خصيصاً لتلميذه ثيودوروس الثاني وفيه رأي العالم في واجبات الحاكم وسلوكه . وكتب مختصرين في الفيزياء والمنطق فأصبحا مرجعين هامين لطلاب هذين العلمين في الشرق والغرب ولاسيما ايطالية[٢].

أكروبوليتة وثيودوروس : وأشهر تلاميذ نيقيفوروس جاورجيوس أكروبوليتة Acropolita وثيودوروس الثاني الفسيلفس . وُلِدَ الاول في القسطنطينية وأمَّ نيقية في صباه في عهد يوحنا الثالث باطاجي . ودرس على نيقيفوروس مع ثيودوروس الثاني . والتحق بخدمة الدولة فوصل الى اعلى مراتبها . ثم دخل القسطنطينية في ركاب ميخائيل باليولوغوس وتولى في عهده بعض المفاوضات الدولية الهامة . فهو الذي مثّل ميخائيل في مجمع ليون سنة ١٢٧٤ كما سيجيء معنا . وأهم مخلفاته تاريخه الشهير الذي ضمّنه حوادث الشرق ما بين السنة ١٢٠٣ والسنة ١٢٦١ . وروايته فيه جلية

١ *Bréhier, L., Blemmides, Dict. d'Hist. et de Geog. Eccl., IX, 178-182 ; Barvinok, V., Nicephorus Blemmides and His. Work ; Vasiliev, A. A. Byz. Emp., 549-553.*

٢ *Heisenberg, A., Curriculum, 68.*

واضحة لها قيمتها العلمية لان واضعها اشترك في بعض ما روى ، او شاهد البعض الآخر وعاصر الباقي[١].

اما ثيودوروس الفسيلفس فانه درس على نيقيفوروس ثم على اكروبوليتة فأحب المعرفة والفضيلة بفضلها ، وشجع العلم والعلماء ، وانشأ المدارس ودور الكتب ، وأظهر عناية بالطلبة فدعاهم الى قصره وحدثهم في ما تعلموه وشجعهم . وتعشق الفلسفة ولاسيما فلسفة ارسطو . وكتب في الفلسفة والدين والعلوم الطبيعية والرياضية[٢].

ادباء إبيروس وعلماؤها : واخبار الادب اليوناني في إبيروس وملحقاتها في النصف الاول من القرن الثالث عشر مهمة لانها تعاون الباحث في تتبع اخبار النهضة في ايطالية والغرب فتظهر أثر اليقظة اليونانية . وأشهر ادباء إبيروس وتوابعها يوحنا ابوقوقوس متروبوليت ليبانتو ، وجاورجيوس باردانس متروبوليت كورفو ، ودميتريوس خوماتينوس رئيس اساقفة اوخريدة .

ولا نعلم الشيء الكثير من أخبار هؤلاء . ولكننا نعلم ان الاول Apocaucus تعلم في القسطنطينية وتعشق الادب اليوناني القديم فاكثر من مطالعة هوميروس واريستوفانس وثوقيذيذس ، وارسطو ، وانه كتب كثيراً في الناموس ونظم كثيراً من الشعر الحكمي[٣].

أما رئيس اساقفة ليبانتو Georgeos Bardanes فانه ولد في آثينة ، وتتلمذ على رئيس اساقفتها ميخائيل الخونياتي ثم أمّ نيقية وقضى في بلاطها مدة ، ثم عاد الى الغرب فسيم اسقفاً على كورفو . وخلف رسائل متنوعة

١ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 553-554.*

٢ *Theodore Lascaris, Epistolae, ed. Festa.*

٣ *Petrides, S., John Apocaucus, Russian Arch. Inst. Const., 1919.*

باسلوب يوناني كلاسيكي نقي ، بعضها ديني جدلي ، وبعضها حكمي ادبي .
وعني رئيس اساقفة اوخريدة Dimitrios Chomatenos بقرارات المجـــامع وبالناموس والقانون[1].

١ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 559-562.*

الباب الحادي عشر

اليقظة الاخيرة واخفاقها

(١٢٦١ - ١٣٨٩)

•

الفصل الثالث والثلاثون

دولة صغيرة ارثها كبير وظرفها خطير

(١٢٦١ - ١٣٢٨)

سياسة ميخائيل الثامن الداخلية : وعني ميخائيل باقالة عثرة العاصمة واعادتها الى سالف مجدها ، فترتب عليه ترميم الاحياء التي كانت قد التهمتها النار ، وتشييد المؤسسات الخيرية من جديد ، واستهواء السكان للعودة الى المدينة وضواحيها ، وتوزيع ممتلكات البنادقة ، وايواء تجار جنوى ، وتعهد الاسوار بالاصلاح ، وانشاء اسطول حربي جديد .

واشتدت رغبته في توطيد سلطته وحقه في الملك ، فسمل عيني الولد يوحنا الرابع ، وشوّه كاتم اسراره عمانوئيل هولوبولس لانه شهد بام عينه الجريمة التي ارتكبت بحق الفسيلفس الولد . وهال البطريرك ارسانيوس هذا الامر فوضع ميخائيل تحت الحرم الكنائسي . فأنزل عن عرشه

البطريركي ونفي ، وتسنم هذا العرش جرمانوس رئيس اساقفة ادرنة . فدخلت الكنيسة في ازمة شديدة دامت زمناً طويلاً[1].

ومال ميخائيل الثامن الى الأشراف وربط بالتزاوج بين كثير من افرادهم وافراد اسرته . وخصّ انسباءه بالوظائف الكبرى فجعل اخاه يوحنا القائد الاعلى للجيش . فامتعضت الاوساط الشعبية ومالت عنه وأيدت البطريرك ارسانيوس وانضمت الى حزبه . وفي السنة ١٢٧٢ أشرك ميخائيل ابنه البكر اندرونيكوس في الحكم فتوّجه فسيلفساً في السادسة عشرة من عمره وأزوجه من مريم ابنة اسطفان الخامس ملك المجر[2].

ميخائيل الثامن
(١٢٦١ – ١٢٨٢)
|
(١) مريانا المجرية (حنة) = اندرونيكوس الثاني = ايرينة الايطالية (٢)
(١٢٨٢ – ١٣٢٨)
|
زينه ماريا = ميخائيل التاسع
(١٢٩٥ – ١٣٢٠)
|
حنة صفوية = اندرونيكوس الثالث
(١٣٢٨ – ١٣٤١)

١ *Pachymeres, G., Mich. IV, 9-12.*

٢ *Dolger. F., Regesten, 1994-1995.*

وقضت ظروف ميخائيل العسكرية والسياسية الدولية بالانفاق، وقطعت المعاهدة مع جنوى موارد ثمينة ففرغت خزينة ميخائيل من المال وتعسر عليه اسعاد الدولة وتعذر[1]. وظهر النقص في امانة ابناء جنوى فتألبوا على ميخائيل في السنة ١٢٦٤ وتآمروا مع مانفرد عدو ميخائيل على تسليم القسطنطينية الى الافرنج، فتقرب الفسيلفس من البنادقة[2]. فخشي الجنويون سوء العاقبة وقبلوا ان يتخلوا عن حيّهم في داخل العاصمة وان يقيموا خارجها عبر القرن الذهبي، فقامت غلَطة مدينةً اجنبية عند مدخل العاصمة! (١٢٦٥).

سياسته الخارجية: وتلخص سياسة ميخائيل الثامن الخارجية في انه سالم المغول في آسية ليتسنى له فرض سلطته على جميع ممتلكات الروم السابقة في شبه جزيرة البلقان، وفي انه بذل جهده للحيلولة دون قيام حملة صليبية جديدة لاحتلال القسطنطينية، فاضطر اضطراراً الى ان يتودد لحبر رومة فيعيد اتحاد الكنيستين ليضمن معارضته لكل مشروع صليبي يؤدي الى السيطرة على القسطنطينية.

ففي السنة ١٢٦٢ اطلق من الاسر وليم فيلهردوان الذي كان قد وقع في يد الروم سنة ١٢٥٩ بعد موقعة بالاغونية لقاء يمين الطاعة والولاء للفسيلفس ولقاء تحويل ثلاث قلاع من قلاعه في اقصى المورة الى الروم. وكان قد وصل البابا اوربانوس الرابع الى السدة البابوية في السنة ١٢٦١ وبعد سقوط القسطنطينية في يد الروم. وكان هذا البابا يرغب رغبة شديدة في اعادة اللاتين الى سابق حكمهم في القسطنطينية فحلّ وليم فيلهردوان من يمينه. فحاول ميخائيل التقرب من مانفرد ملك صقلية فلم يفلح، فتقرّب من

١ *Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Staates, 341-342.*
٢ *Dolger, F., Regesten, 1928, 1934.*

البابا الجديد وأغراه باتحاد الكنيستين . فعدل اوربانوس الرابع عن فكرة الحملة على القسطنطينية . وبدأت المفاوضات في اتحاد الكنيستين ولكن اوربانوس توفي في الثاني من تشرين الاول سنة ١٢٦٤ . وخلف اوربانوس الرابع اقليمس الخامس ، فعضد هذا البابا كارلوس آنجو في مطامعه في صقلية . وكانت حرب بين كارلوس ومانفرد انتهت في السنة ١٢٦٦ بسقوط مانفرد في ميدان القتال . فعاد ميخائيل الثامن يفاوض هذا البابا الجديد في أمر اتحاد الكنيستين خوفاً من مطامع كارلوس . وغدا هذا البابا أشد اندفاعاً من سلفيه في اعادة الامبراطورية اللاتينية في الشرق . فصارح ميخائيل مهدداً بانه لا يضمن له شيئاً قبل ان يخضع الفيلفس وكنيسته واكليروسه لسلطته دون قيد او شرط (١٢٦٧)[١]. وتابع كارلوس آنجو ملك صقلية استعداداته للعمل السياسي الحربي في الشرق ، فاستمال زعماء عساكر مانفرد في إبيروس ، وحالف امير المورة اللاتيني ، ووقع معاهدة مع بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية السابق ، حدد فيها توزيع الغنائم (١٢٦٧) . وتوفي اقليمس الرابع في ٢٩ من تشرين الثاني سنة ١٢٦٨ ، وانقسم الكرادلة على بعضهم ، فغدت السدة البابوية شاغرة سنتين وتسعة أشهر . فخشي ميخائيل سوء العاقبة ، فلجأ الى لويس التاسع ملك فرنسة راجياً وضع حد لمطامع اخيه كارلوس آنجو في ممتلكات الروم مؤكداً استعداده للاعتراف بسلطة البابا وقرب اتحاد الكنيستين[٢]. فأحال لويس هذا الاقتراح الى مجمع الكرادلة وأوقف اخاه عن القسطنطينية ووجهه نحو تونس[٣].

١ *Dolger, F., Regesten, 1943, 1947.*

٢ *Dolger, F., Regesten, 1968, 1971*

٣ *Bréhier, L., Ambassade Byzantine devant Tunis, (Mélanges Iorga), 139-146.*

محاولة توحيد الكنيستين : (١٢٧٤) وتوفي لويس التاسع في السنة ١٢٧٠ فعاد كارلوس آنجو من تونس الى صقلية وعادت مطامعه في الشرق . فأزوج احد ابنائه من ابنة امير المورة فيلهردوان وأمد هذا الامير بالعساكر فحنث بيمينه وحارب الروم وقدر له النصر في احدى المواقع (١٢٧١)[١]. ثم اتفق الكرادلة وانتخبوا غريغوريوس العاشر رئيساً على الكنيسة الغربية . وكان غريغوريوس شديد الحرص على نجاح الصليبيين في الاراضي المقدسة . وكان يرى ان هذا النجاح لن يتم دون تفاهم تام بين الكنيستين اللاتينية واليونانية . فلم يرضَ عن مطامع كارلوس آنجو في الشرق[٢]. ولكن هذا لم يثنِ عن غيه فمد اصابعه الى البانيـــة وثيسالية وبلغارية وحرّض وألّب . فقابله ميخائيل الثامن بتحالف مع الفونس العاشر ملك كستيلية (قشتالة) وعدو كارلوس ، ومع اسطفـانوس ملك المجر ، ومع الجنويين للمرة الثانية[٣].

وجاءَت معونة البابا غريغوريوس العاشر اكثر جدوى وانفع من كل هذا . فقبـــل ان يغادر عكة ليتسلم رئاسة الكنيسة كتب الى ميخائيل الثامن يؤكد رغبته في اتحاد الكنيستين . وبعد وصوله الى رومة ارسل اربعة رهبان فرنسيسكانيين ليؤكدوا حماية البابا في حال الاتحاد[٤]. فدخل الفسيلفس والبابا في طور من الصداقة والاخلاص المتبـــادل . وكان غريغوريوس أرحب صدراً من سلفه اقليمس الرابع فلم يطلب الى الاكليروس سوى الاعتراف بسلطته القانونية والفعلية والعودة الى درج اسمه في الذبتيخة .

١ Zakythinos, D. A., Despotat Grec de Morée, 50-55.

٢ Norden, W., Papsttum, 470-474.

٣ Dolger, F., Regesten, 1990-1991.

٤ Regesta Pontificum Romanorum, 68.

وهب ميخائيل يبث الدعاية في الاوساط الاكليريكية اليونانية للاعتراف بسلطة البابا مبيناً علاقة هذا الاعتراف الاكيدة بخلاص القسطنطينية وسلامتها . ولكن هذه الدعاية قوبلت بمقاومة شديدة ومكابرة لا تقبل النقص[١]، ولاسيا من البطريرك والاساقفة وبعض اعضاء الاسرة المالكة . وجل ما توصل اليه ميخائيل انه استمال احد علماء اللاهوت يوحنا فقّس وعدداً قليلاً من الاساقفة .

ودعا غريغوريوس العاشر الى مجمع مسكوني في ليون في السنة ١٢٧٤ فحضره وفد رومي شرقي مؤلف من البطريرك المستقيل جرمانوس ، واللوغوثيتوس جاورجيوس أكروبوليتة ، ورئيس اساقفة نيقية . وحمل اعضاء هذا الوفد كتاباً من الفسيلفس الى البابا يعترف فيه بمطالب غريغوريوس العاشر . وبعد تلاوة هذه الرسالة ورسالة غيرها من نوعها موقعة من بعض رجال الاكليروس الارثوذكسي أعلن رسمياً اتحاد الكنيستين في السادس من تموز سنة ١٢٧٤[٢]. ووقع كارلوس آنجو وميخائيل مهادنة في الحادي عشر من كانون سنة ١٢٧٥[٣]. وأقام ميخائيل حفلة دينية ابتهاجاً بهذا الاتحاد ولكنه خشي الغوغاء والضوضاء في شوارع العاصمة فاقام حفلته هذه في كنيسة في القصر لا في كنيسة الحكمة الالهية .

واستقال البطريرك المسكوني يوسف احتجاجاً على ما جرى ، وتولى الرئاسة بعده يوحنا فقّس نفسه . وقرّعت افلوجية اخاها ميخائيل الثامن على ما جرى ، وضج بعض الامراء فأمر ميخائيل بحبسهم . فانعقد مجمع ارثوذكسي في ثيسالية لتوبيخ الفسيلفس وتكديره ولقطع فقّس[٤]. ويرى كل من

١ *Bréhier, L., Byzance, 398.*
٢ *Mansi, Amplissima, XXIV, 38-136.*
٣ *Dolger, F., Regesten, 2014.*
٤ *Crummel, V., Après le Concile de Lyon, Echos d'Orient, 1925, 321 ff.*

المؤرخ الافرنسي الاستاذ لويس برهييه والاب جوغي انه لم يشترك في اعمال مجمع ليون سوى اكليريكيين ارثوذكسيين فقط وان اتحاد الكنائس لا يتم بالقوة[1].

وواصل غريغوريوس العاشر اتصالاته بالفسيلفس، وفاوضه في حملة صليبية جديدة تطرد الاتراك من آسية الصغرى وتثبت اقدام الصليبيين في الاراضي المقدسة[2]. وأعلن غريغوريوس انه سيتولى بنفسه قيادة هذه الحملة ولكنه توفي في مطلع السنة ١٢٧٦. فخلفه في رئاسة الكنيسة الغربية باباوات ثلاثة في خلال سنتين كانوا كلهم من رجال كارلوس آنجو فافسدوا على ميخائيل سعيه. وجاء نيقولاووس الثالث في اواخر السنة ١٢٧٧ يطالب بخضوع الكنيسة اليونانية خضوعاً تاماً. واستعفى بِقُّس من مهام البطريركية. ووفد على ميخائيل وفد باباوي يتثبت من واقع الحال. فاضطرب ميخائيل وأكد اخلاصه وقال انه في حال اخفاقه تجاه مناوئيه في القسطنطينية ينفصم ما تم من اتحاد الكنيستين. فأثر كلامه هذا في نفس البابا نيقولاووس الثالث وهب لساعته يتوسط بين كارلوس آنجو وابن بلدوين الثاني وبين ميخائيل الثامن. وسعى ميخائيل في الوقت نفسه لتثبيت حق بطرس الثالث زوج ابنة مانفرد في الملك في صقلية. ووافق البابا على هذا الحل ولكنه توفي في صيف السنة ١٢٨٠. وقضت مصلحة كارلوس بان يوصل الى السدة الباباوية رجلاً يثق في اخلاصه ومحافظته على مصالحه فأيد الكردينال الافرنسي سمعان ده بري Simon de Brie وتدخل تدخلاً فعلياً في الانتخاب فنجح مرشحه وتبوأ السدة باسم مرتينوس الرابع (٢١ شباط ١٢٨١).

١ *Bréhier, L., Byzance, 399.*

٢ *Laurent, V., Greg. X, et le Projet d'une Ligue Antiturque, Echos d'Orient, 1938, 257-273.*

فذهبت آمال ميخائيل ادراج الرياح . «وكان قد عمل ما لا يعمل لتثبيت الاتحاد فغشّى الدولة بالجواسيس وسمل أعين بعض كبار رجال الاكليروس الارثوذكسي وحمل رعاياه بمختلف الاساليب ليوصلهم الى طاعة رومة . لكن مرتينوس الرابع افترى على الفسيلفس فاتهمه بالغش والخداع ثم وضعه تحت الحرم[١]» . وقام مرتينوس بعدئذٍ يدبر حلفاً جديداً لاخضاع الروم واقامة الامبراطورية اللاتينية . فوفق بين كارلوس وفيليب ترنتوم والبندقية . وتمّ الاتفاق على ان تقوم الحملة في نيسان السنة ١٢٨٣ للاستيلاء على القسطنطينية والاراضي المقدسة . ولكن مؤامرة ميخائيل وحليفه ملك اراغونة قضت على آمال البابا وعلى ملك كارلوس بمأساة صقلية في الحادي والعشرين من آذار سنة ١٢٨٢ . وأنزل بطرس الثالث جنوده في صقلية وأعلن نفسه ملكاً عليها في صيف هذه السنة نفسها[٢] .

ميخائيل الثامن والبلقان : وقضت المحافظة على سلامة الدولة ضد مطامع كارلوس واعوانه ان يتخذ ميخائيل موقفاً دفاعياً في البلقان ، فاحتل في السنة ١٢٦٢ الحصون الثلاثة في المورة وجعلها نقاط انطلاق استراتيجي في خطة دفاعية . ثم احتل جزيرة افبية ما عدا عاصمتها للغاية نفسها . ووجه غاراته المتقطعة شطر إبيروس والبلغار .

ميخائيل في الشرق : وتطورت احوال الشرق في اثناء هذا كله تطوراً خطيراً . فأسس المماليك في مصر في السنة ١٢٥٠ دولة عسكرية فتية . واستولى على فارس منكو الخان المغولي الاكبر . واستحوذ على بغداد في السنة ١٢٥٨ هولاغو المغولي وازال خلافتها واستولى على معظم

١ *Bréhier, L., Byzance, 401.*
٢ *Diehl, C., Europe Orientale, 209-210; Vasiliev, A. A., Byz. Emp. 591 599.*

سلطنة الروم . ولم يقوَ ميخائيل على مقاومته ومعاضدة اتراك ايقونيـة لانشغاله بامور داخلية وخارجية هامة . ولم يكن هولاغو مسلماً ولم يرضَ عن الاسلام وأحب المسيحيين وعطف عليهم . ولكن ركن الدين بيبرس البندقداري الملك الظـاهر (١٢٦٠ – ١٢٧٧) اعتبر نفسه زعيم الاسلام والمسلمين . وأصل بيبرس وغيره من هؤلاء المماليك من قبـائل القبجاق Kiptchak المغولية الضاربة آنئذٍ في جنوبي روسية . فقضت مصلحة بيبرس وغيره من كبار المماليك ان يظلوا على صلة بانسبائهم في جنوبي روسية . ولما كان هولاغو قد فصلهم عن ابناء جنسهم باحتلال العراق وقسم كبير من آسية الصغرى ، فاتح بيبرس ميخائيل الثامن في ابقاء المضيقين مفتوحين له وللقباجقة لتتم الصلة بين مصر وجنوبي روسية عن طريق البحر . وكان خان القباجقة في روسية قد سبق له ان تدخل في شؤون البلقان . فوافق ميخائيل على اقتراح بيبرس وأزوج خان القباجقة من احدى بناته غير الشرعيات . وفي السنوات العشر ١٢٦٢ – ١٢٧٢ تبادل ميخائيل وبيبرس الوفود السياسية . فوافق الفسيلفس في السنة ١٢٦٢ عـلى مرور المماليك المنتقلين من روسية الى مصر في المضايق مقابل اقامة بطريرك ارثوذكسي في الاسكندرية . وفي السنة ١٢٦٣ انتهز ميخـائيل فرصة مرور المماليك بالقسطنطينية فطلب الى السلطان المصري ان يقنع خان القباجقة بالتزام الحياد تجاه الوضع في البلقان . وفي السنة ١٢٦٨ استولى بيبرس عـلى انطـاكية فضعفت شوكة الصليبيين ولم يبقَ في ايديهم سوى طرابلس وصيدا وعكة ، فحالف ميخائيل القباجقة في روسية والمماليك في مصر ضد كارلوس آنجو[١] .

١ *Dolger, F., Regesten, 1902-1904, 1919, 1933, 1952, 1964, 1975, 1987, 2018, 2028, 2052.*

وقضت مطامع كارلوس في القسطنطينية وتأييد بعض الباباوات له بعدم التفات ميخائيل الى مصير آسية الصغرى فأهمل الدفاع عن حدوده فيها وألغى امتيازات فرق الاكارتة Akritai الذين كان قد وكل اليهم السهر على الحدود . فتوغلت جماعات من الاتراك والمغول في اراضي الروم وأقضوا مضجع المزارعين وسكان القرى . فالتجأ سكان الارياف الى المدن المحصنة وأمست اراضي الروم مقفرة وتعذر بعد هذا الاتصال بامارة طرابزون براً . وحاول ميخائيل في السنة ١٢٦٥ ان يصد هؤلاء فأنفذ يوحنا باليولوغوس على رأس حملة لاقصائهم بالقوة . وعلى الرغم من انتصار يوحنا عليهم فانه اضطر الى ان يشتري سكوتهم . وفي السنة ١٢٨١ قام اندرونيكوس ابن ميخائيل بقوة عسكرية الى وادي الميندر وكاريه ليبعد عنها جماعات الاتراك والمغول . ففعل ورمم مدينة ترالس Tralles وأطلق عليها اسمه ولكنه لم يحكم تحصينها ولم يمونها بالمياه . فعاد الاتراك فاستولوا عليها . وعلى الرغم من ان اندرونيكوس كان لا يزال في غفية فانه لم يحرك ساكناً لانقاذها . وقُدّر لهذه المدينة ، التي دعاها الاتراك آيدين والتي اصبحت مقر امير تركي مستقل ، ان تلعب دوراً هاماً في مقدرات الروم في اواخر ايام حكمهم . وكان العمل الايجابي المفيد الوحيد الذي قام به ميخائيل في آسية الصغرى تفاهمه ويوحنا الثاني كومنينوس فسيلفس طرابزون . ففي آخر سنة من حكم ميخائيل الثامن أمّ يوحنا كومنينوس القسطنطينية وتزوج من اميرة باليولوغية ودخل في تعاون اكيد مع الاسرة المالكة في القسطنطينية . ولكن هذا التحالف بين هاتين الدولتين جاء متأخراً لان معظم آسية الصغرى كان قد أفلت من يد الروم . فالعنصر التركي كان قد طرد الروم من الارياف وحل محلهم وكان قد استقر في المدن متحضراً بأدب فارسي تركي وفن ساساني بيزنطي . وما بقي من الروم في آسية كان قد انحصر في نقاط معينة على شاطيء الارخبيل وفي

بيثينية وطرابزون . أما قيليقية فانها كانت قد أصبحت مستعمرة أرمنية . وكانت هـــذه الفترة فترة امارات تركية مستقلة كإمارة القرمان التي استولت على ايقونية في السنة ١٢٧٨ . وفي هذه الفترة ايضاً وصلت قبيلة كاي كان كلي التركية الخراسانية بقيادة اميرها ارطغرل الى ممتلكات سلطان ايقونية فارةً من وجه المغول ، فضربت خيامها عند حدود الروم بين بروسة وكوتاهية في سكوت وما يليها[١].

اندرونيكوس الثاني : (١٢٨٢ – ١٣٢٨) ولا تجوز المبالغة في غباء اندرونيكوس الثـــاني وقلة حذقه في تدبير الامور . فالدولة التي تسنم عرشها هذا الفسيلفس كانت قد اصبحت صغيرة في مساحتها ، قليلة في عدد سكانها ، ضعيفة في مواردها . وكانت على صغرها وضعفها وريثة ماضٍ كبير جداً . وكان فسيلفسها الاول ميخائيل الثـــامن قد اختط لنفسه مشروعاً يتفق وظروف سلفائه لا خلفائه . وأفضل ما تحلى به اندرونيكوس انه كان يشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وانه كان رجلاً مثقفاً يحب العلم والفضيلة ويعطف على العلماء الافاضل[٢].

واول ما عني به الفسيلفس الجديد المشكلة الدينية . فان عمته افلوجية التي أحبها كانت قد نفيت في عهد والده لتمسكها الشديد بالاوثوذكسية واعتراضها على الاعتراف بسلطة رومة . فلما تبوأ اندرونيكوس العرش قامت افلوجية تحرّضه على فسخ الاتفاق الذي عقد مع رومة في عهـــد اخيها ميخائيل . وحذا حذوها مستشار الفسيلفس الجديـــد ثيودوروس موزالن فانه كان قد ذاق آلام « الفلق » في عهد ميخائيل لاعتراضه على

١ Cahen, C., *Turcomans de Rum*, Byzantion, 1939, 131-139; Hertzberg, *Gesch. der Byzantiner und der Osmanischen Reiches*, 435 ff; Gibbons, H. A., *Foundations of Ott. Emp.*, 19-22.

٢ Diehl, C., *Europe Orientale*, 221-222.

الاتحاد . وكان خطر كارلوس آنجو قد زال فرجع اندرونيكوس عن قول والده بالاتحاد ولبّى بذلك رغبات معظم الاكليروس والشعب[1]. وأمر بدفن والده خارج العاصمة دون ان يصلى عن نفسه في احد الاديار وأبعد البطريرك فِقّس وأعاد البطريرك يوسف الى كرسي الرئاسة . وعلى الرغم من ان البطريرك ارسانيوس كان قد توفي في السنة ١٢٧٣ فان اتباعه ظلوا متكتلين منفصلين عن جسم الكنيسة . فحاول البطريرك غريغوريوس الذي خلف يوسف لدى وفاته في السنة ١٢٨٣ ان يسترضيهم ولكن دون جدوى . ثم سمح الفسيلفس بنقل جثمان ارسانيوس الى العاصمة بموكب فخم ولكن اتباعه اصروا على موقفهم وازدادوا تعنتاً وصلفاً . فأدى هذا التفكك في الكنيسة الى الانقاص من هيبة السلطة المدنية واضعافها . ولم تحدث هذه العودة الى الانفصال تأثيراً ما في الاوساط الاكليريكية العالية في رومة لان الباباوات كانوا منهمكين في نزاع شديد مع السلطات المدنية ولان الصليبيين كانوا على وشك الخروج نهائياً من الاراضي المقدسة . وكان بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية اللاتيني قد توفي في السنة ١٢٧٣ فانتقل حقه في الملك الى ابنته كاترينا . وكانت هذه مقيمة في نابولي . فسعى اندرونيكوس لتزويجها من ابنه ميخائيل . وطالت المفاوضات في ذلك واستمرت حتى السنة ١٢٩٦ ثم أخفقت . فتزوج شارل فالوى منها في السنة ١٣٠١[2].

سياسة اندرونيكوس الداخلية : وكان اندرونيكوس في الرابعة والعشرين من عمره عندما تبوأ العرش . وكان قد تزوج من حنة المجرية ورزق منها ميخائيل وقسطنطين . ثم تزوج من بولندة الايطالية حفيدة

١ *Pachymeres, G., Hist., And., I, 1-2.*

٢ *Bréhier, L., Byz., 411-412.*

امراء ثيسالونيكية اللاتين فخلفت له ذكوراً ثلاثة وابنة . وكرهت بولندة ابني ضرتها فسعت سعياً حثيثاً لاقطاع ابنائها مقاطعات كبيرة . وما فتئت تلح على زوجها حتى اتعبته . فضجر منها وتخلى عنها . فلجأت الى ثيسالونيكية وناصبته العداء والدس[1]. ولم يرضَ اندرونيكوس عن اخيه قسطنطين لعجرفته وبذخه . فلما اتهم قسطنطين بالخيانة والتآمر في السنة ١٢٩١ أمر اندرونيكوس بمصادرة املاكه .

وكان يوحنا لاسكاريس الاعمى لا يزال حياً يرزق مقيماً في حصن في بيثينية فاضطره اندرونيكوس سنة ١٢٩٠ الى ان يعترف بشرعية سلطانه . ثم اشرك ابنه ميخائيل في الحكم وتوّجه في كنيسة الحكمة الالهية وذلك في الحادي والعشرين من ايار سنة ١٢٩٥ . وجعل بعد ذلك ابنه يوحنا من زوجته الثانية ديسبوتساً .

وعلى الرغم من قوة اندرونيكوس الجسدية وشدة ايمانه في الدين ، فانه كان متردداً ضعيفاً لا يقوى على ارادة اللوغوثيت الاكبر ثيودوروس موزالن ، ولا على رغبات معلم ذمته اندرونيكوس رئيس اساقفة ساردس. فنفّذ سياستهما الدينية بقسوة وتطرف وزاد الانقسام الديني الداخلي تعقداً وحماساً . وكان من جراء هذا الضعف والتردد ان الفيلسوف لم يتمكن من تنفيذ رغباته وخططه في الاصلاح ولاسيما في حقل المالية . ولم يوفق في تغذية الخزينة ، فالقروض التي لجأ اليها ، والضرائب الفادحة التي فرضها على الحبوب ، وانقاص مرتبات الموظفين ، وتزييف النقد ، اثارت الاستياء وادت الى نشوب الثورات . واسوأ ما عمد اليه في سبيل الاقتصاد كان الغاء الاسطول والاستعاضة عنه ببوارج القرصان ومراكب الطليان[2]!

١ *Pachymeres, G., Hist., And. I, 33, V, 5; Diehl, C., Figures, II, 226 ff.*

٢ *Bréhier, L., Byzance, 413-414.*

جنوى والبندقية : (١٢٩٣ – ١٢٩٩) وآثر الفسيلفس الجنويين على البنادقة ونهج سياسة التفرقة بينهم كما فعل والده . فاندلعت حرب بين الدولتين التجاريتين دامت ست سنوات . ويرى رجال الاختصاص ان السبب الرئيسي لهذه الحرب كان استيلاء الجنويين على كفة Caffa المستعمرة البيزنطية الخطيرة على الشاطىء الشرقي لشبه جزيرة القرم واستئثارهم بسوق القسطنطينية[١]. وحالفت البندقية خان التتر نوغاي . وفي تموز السنة ١٢٩٦ ظهرت بوارجها ومراكبها امام القسطنطينية وانزلت الرجال الى البر واحرقت بيرا وغلطة وحاولت اقتحام القرن الذهبي . وانقض الجنويون في القسطنطينية على البنادقة فذبحوهم ذبحاً . ثم التقى الخصمان في موقعة بحرية فاصلة في السابع من ايلول سنة ١٢٩٨ بين شاطىء دلماسية وجزيرة كرزلة Curzola كان النصر فيها حليف الجنويين . ووقع الطرفان صلحاً في ميلانو في ايار السنة ١٢٩٩ . وما ان تم هذا الصلح حتى قامت البندقية تطالب اندرونيكوس بالتعويض عما جرى لابنائها في السنة ١٢٩٦ في القسطنطينية . فرفض الفسيلفس ، فجاءَ اسطول بندقي يحاصر القسطنطينية ويطلق سهامه الى داخل القصر المقدس . وفي السنة ١٣٠٢ – ١٣٠٣ اضطر الفسيلفس الى ان يوقع صلحاً مع البنادقة ، وان يرضي الجنويين بتوسيع حيّهم في القسطنطينية ، وبالسماح لهم باحتلال جزيرة خيّوس للدفاع عنها ضد مطامع الاتراك ، وباستمرار مفعول الامتياز الذي كان قد خصّ به الجنويين لاستثمار مناجم حجر الشبّ بالقرب من فوقية في آسية الصغرى[٢].

مطامع الصرب : وكان قد استوى على عرش الصرب اعظم ملوكهم في العصور الوسطى اوروش الثاني ميلوتين . وكان اوروش قد وسع

١ *Bratianu, G., Recherches, 251 ff.*

٢ *Bratianu, G., op. cit , 284-286.*

ممتلكاته في مقدونية وفي وادي الفردار فاحتل فَوَلة (١٢٨٢ - ١٢٨٣) وهدد ثيسالونيكية . فأنفذ اندرونيكوس قوة لصده ولكنه لم يوفق في ذلك فاضطر الى ان يفاوض جاره الصربي وان يتودد اليه عن طريق المصاهرة . فأزوجه من ابنته الطفلة على الرغم من مقاومة البطريرك . ويرى بعض رجال الاختصاص ان اوروش كان يطمع في ضم بلاده الى دولة الروم وان حماته ايرينة زوجة اندرونيكوس الصاخبة شجعته على ذلك[١]. والواقع ان اوروش الثاني اشتهر بعدد المؤسسات الخيرية التي انشأها في القسطنطينية وثيسالونيكية والقدس[٢].

الخطر التركي : وجاء في احد المراجع الاولية ان اندرونيكوس أظهر اهتماماً بشؤون آسية الصغرى منذ بدء عهده . فعبر البوسفور في فصل الشتاء وصد الاتراك وطردهم من بيثينية وميزية وفريجية وأعاد انشاء المدن وحصّن الحدود[٣]. ويلوح لنا انه بعد ان اتم عمله في بيثينية استقر مدة من الزمن في نمفية في السنة ١٢٩٠ وتودد الى ملك ارمينية هاتوم الثاني فأزوج ولي عهده ميخائيل التاسع من شقيقة هذا الملك[٤].

والواقع ان ظروف آسية الصغرى آنئذٍ تطلبت اكثر بكثير مما بذل من العناية . فقبيلة كاي كان كلي التركية الخراسانية التي مرّ ذكرها كانت قد تقبلت الاسلام وكان قد تولى زعامتها الامير عثمان . وكانت مراعيها قد بدأت تتوسع على حساب الروم . وفي السنة ١٣٠١ تمكنت هذه القبيلة بخيولها المصفحة من اختراق صفوف الروم امام نيقوميذية[٥].

١ *Cam. Med. Hist., IV, 532-535.*

٢ *Strzygowski, J., Miniaturen des Serbischen Psalters, 114-115.*

٣ *Gailland, R., Essai, 54-55.*

٤ *Pachymeres, G., Hist., And. III, 5-6.*

٥ *Pachymeres, G., op. cit., IV, 25.*

ولم تكن هذه القبيلة سوى امارة صغيرة بين عدة امارات تركية كبيرة طامعة جميعها في الغزو والفتوحات . وأشهر هذه الامارات آنئذٍ امارات صروخان وقرميان وقرمان وآيدين . وكانت هذه الامارات قريبة من الشاطىء الغربي فبدأت تضغط على ساحل الارخبيل وعلى مدن الروم في الداخل[1] .

ورأى اندرونيكوس ان يستعين بالعنصر الآلاني القوقاسي لوقف هؤلاء الاتراك جميعاً عند حد معقول . فجيّش فرقة من هؤلاء وأمّر عليها ابنه ميخائيل التاسع وأنفذها في السنة ١٣٠٢ الى الجبهة في آسية . وكان ميخائيل قليل الخبرة فحصر نفسه في مغنيسية فتمرد الآلان مطالبين بالتسريح . ففرّ ميخائيل بجموعه وسكان مغنيسية . فانقض عليهم الاتراك وأعملوا السيف في رقابهم . فالتجأ ميخائيل الى قيزيقة واقام فيها[2]. وضاق صدر اندرونيكوس وخشي سوء العاقبة فاستعان بغازان خان المغول في فارس وأزوجه من احدى بناته غير الشرعيات ولكن غازان توفي في الحادي والثلاثين من ايار سنة ١٣٠٢ . فضاقت حيلة اندرونيكوس ويئس فاضطر ان يلجأ الى المرتزقة .

فرقة المغاور الاسبانية : (١٣٠٣ - ١٣١١) وكانت الحرب بين فريدريكوس الثالث الارغوني وكارلوس آنجو الثاني قد وضعت اوزارها فأصبح الجيش الذي كان قد جُمع في قتلونية وارغونة ونفار حراً لا عمل له . وكانت احدى فرق هذا الجيش فرقة المغاور الاسبانية قد اتخذت روجه دي فلور Roger de Flor قائداً لها بعد تسريحها . وكان روجه قد بدأ حياته راهباً جندياً داوياً من الداوية Templier فاختلس وطرد .

١ Gibbons, H. A., *Foundations of Ott. Emp.*, 34-35.

٢ Pachymeres, G., *op. cit.*, IV, 17-20.

فعلم بحاجة اندرونيكوس الملحة فاتصل به فاتفقا على شروط اهمها ان يتقاضى المغاور ضعف ما كان يتقاضاه المرتزقة العاديون وان تدفع الجماكية مسبقاً عن اربعة أشهر وان يطلق على القائد لقب «الدوق الاكبر[١]».

وفي ايلول السنة ١٣٠٣ أطلت مراكب المغاور وكان عددهم ستة آلاف فنزلوا بخيولهم ونسائهم واولادهم الى القسطنطينية. وما ان استقروا فيها حتى طالبهم الجنويون بدين سابق فأطبقوا على اصحاب الدين واذاقوهم الموت.

وفي مطلع السنة ١٣٠٤ نزل المغاور في قيزيقة لفك الحصار الذي ضربه الاتراك حولها. فذبحوا المحاصرين جماعات جماعات وأسروا الباقين واقاموا في قيزيقة بانتظار الربيع لمتابعة الحرب. وفي شهر نيسان قاموا الى الجبهة فاكتسحوا الموقف اكتساحاً بسرعتهم الخاطفة ووصولهم الى صفوف اعدائهم وانقضاضهم عليهم بالسلاح الابيض قبل ان يتمكن هؤلاء من ردهم برماحهم وسهامهم. وما فتئوا كذلك حتى وصلوا الى جبال طوروس في اقصى الجنوب. وفي آب السنة ١٣٠٥ اوقعوا بالاتراك عند هذه الجبال خسارة فادحة أدت الى فرار الاتراك والتجائهم الى اعالي الجبال[٢].

وكانت العلاقات قد توترت بين اندرونيكوس وثيودوروس سواتوسلاف ملك البلغار فاستقدم المغاور الى غاليبولي ليستعين بهم. ولكن جنوده المحاربين على حدود البلغار رفضوا التعاون مع المغاور وهددوا الفسيلفس بالتمرد. فأمر بابقاء المغاور في غاليبولي. ثم علم ان فريدريكوس الثالث ملك صقلية سمع بظفر المغاور وبغنائمهم فحدثته نفسه بالقيام الى الشرق في

١ Murall, de, Chron. 6812, 1; Cronica Catalana, 194-200; Schlumberger, G., Exped. des Almugaveres, 24-29.

٢ Cronica Catalana, 207; Schlumberger, G., op. cit., 103-108.

سبيل الكسب والمجد وانه يفاوض المغاور في ذلك فرقّى روجه زعيم هؤلاء الى رتبة قيصر وأقطعه جميع ممتلكاته في آسية. فسُرَّ روجه سروراً عظيماً وأحب ان يقدم احترامه لميخائيل ولي العهد على حدود بلغارية، فاستقبله هذا بجفاوة فائقة ودبر له مكيدة اهلكه بها. ثم أرسل قوة من الآلان الى غاليبولي ففاجأت المغاور وذبحت عدداً كبيراً منهم وغنمت خيولهم (١٣٠٧). فاستشاط المغاور غيظاً وهبّوا للدفاع عن انفسهم وللأخذ بالثأر وانطلقوا في البلقان يخرّبون ويسلبون ويحرقون طوال سنوات ثلاث فمهدوا بذلك السبيل لفتح تركي[١].

تشويش وبلبلة: (١٣٠٨ - ١٣٢١) ولم يهنأ اندرونيكوس بزوال خطر المغاور. فما كاد هؤلاء يغادرون آسية حتى عاد الاتراك الى سابق طمعهم وغزوهم. ففي السنة ١٣٠٨ توغلوا في شبه جزيرة نيقوميذية وقضوا على مناوشات المغول اصدقاء الروم. ثم استولى الامير سبسان حليف عثمان على افسس فنهب مقام القديس يوحنا فيها[٢]. وكانت جزيرة رودوس قد أصبحت مركزاً للقرصنة. فلما اشتد الخلاف بين الاسبتاليين Hospitaliers والملك هنريكوس الثاني في جزيرة قبرص رغب الاسبتاليون في اتخاذ رودوس مقراً لهم، ففاوضوا اندرونيكوس في تسلمها من يده اقطاعاً لهم. ولكن الفسيلفس أبى فسقطت في ايديهم في الخامس عشر من آب من السنة ١٣١٠[٣]. فخسر الفسيلفس بذلك معاونة بحرية قيّمة في نضاله ضد الاتراك.

وكان قد استعان المغاور، في ابان سخطهم على الروم، بجماعات من

١ *Bréhier, L., Byzance, 417-422.*

٢ *Pachymeres, G., op. cit., And., VII, 13.*

٣ *Delaville - Leroux, La France en Orient, 272-284.*

الاتراك فلما انتهى أمر المناور بقيت هذه الجماعات التركية في تراقية تنهب وتخرّب وتدمر. ففاوض الفسيلفس زعيمهم خليلاً في ذلك وكاد يتوصل الى شيء من التفاهم معه. ولكن احد كبار الضباط طمع في بعض غنائم الاتراك فنشبت موقعة حامية خسر فيها ميخائيل التاسع كل متاعه. فبقي الاتراك في تراقية ثلاث سنوات اخرى (١٣١١ – ١٣١٤)، وبقيت تراقية ارضاً بوراً طوال هذه الفترة. واضطر اندرونيكوس الى ان يدرب جيشاً جديداً وان يستعين بالصرب قبل ان تمكن من حصر هؤلاء الاتراك في شبه جزيرة غاليبولي والقضاء عليهم[١]. ولم يرضَ بابا رومة عن نفوذ اوروش ملك الصرب في البلقان لتمسكه بالارثوذكسية، فحض ملك المجر شارل روبر ونسيبه فيليب عاهل ترنتوم على محاربته فخسر اوروش بلغراد وقسماً من بلاد البوسنة. واضطر خلفه اسطفانوس الى ان يطلب المعونة من الغرب لعدم تمكن اندرونيكوس من تقديمها.

وكانت كنيسة القسطنطينية لا تزال منقسمة على نفسها. وكان اتباع ارسانيوس لا يزالون مصرين على عدم تدخل السلطات المدنية في شؤون الكنيسة فتغيرت رئاسة الكنيسة خمس مرات بين السنة ١٣١٢ والسنة ١٣٢٣ وشغر العرش البطريركي مرتين في هذه الفترة.

ومما زاد في الطين بلة الاختلاف الذي نشأ بين افراد الاسرة المالكة. فان الفسيلفس اندرونيكوس الثاني كان قد تعلق بحفيده اندرونيكوس ابن ابنه ميخائيل التاسع الذي ولد حوالى السنة ١٢٩٦. فشبّ هذا الحفيد مدلوعاً مضطرباً فاسداً. فأنفق بغير حساب واستدان من الجنويين مبالغ طائلة. ثم تعلق بخليلة وغار عليها من شركة شاب آخر، وكمن له ليتخلص منه فأخطأه وقتل اخاه الديسبوتس عمانوئيل. فاغتاظ والده ميخائيل التاسع

١ Gibbons, H. A., op. cit., 40-41.

وتوفي حزيناً كسير الخاطر في ثيسالونيكية (١٣٢٠) . فشقّ هذا على الجد اندرونيكوس الثاني وأحب ان يمنع حفيـــده من الوصول الى العرش بعـــده ، فأعلن ميله نحو ولد غير شرعي من ابنه قسطنطين . فتآمر اندرونيكوس الحفيد على جده وعاونه في ذلك كل من الوزير الاول يوحنا كنتاكوزينوس Cantacuzenus واوروش ميلوتين ملك الصرب . وأراد الفسيلفس ان يحكم على حفيده بالسجن المؤبد ثم عفا عنه . فطلب الحفيد العفو عن اعوانه فأبى الجد ، ففرّ اندرونيكوس الحفيد الى ادرنة وانضم اليه اعوانه . فدخلت الدولة في حرب اهليـة دامت سبع سنوات (١٣٢١ - ١٣٢٨) واسفرت عن نجاح الحفيد ووصوله الى العرش باسم اندرونيكوس الثالث . وبقي الجد متمتعاً بجميع مظاهر الملك حتى وفاته في السنة ١٣٣٢[١].

١ *Bréhier, L., Byzance, 425- 498; Diehl, C., Europe Orientale, 237-241.*

الفصل الرابع والثلاثون

اندرونيكوس الثالث ويوحنا السادس

(١٣٢٨ - ١٣٥٥)

اندرونيكوس الثالث: (١٣٢٨ - ١٣٤١) وما ان تبوأ اندرونيكوس العرش حتى شمّر عن ساعد الجد فابتعد عن الطيش والتلذذ، وعني عناية فائقة باقالة العثرة وانهاض الدولة. فقرّب يوحنا كنتاكوزينوس من نفسه واعتمد عليه وعمل بارشاده. وكان يوحنا من افذاذ رجال عصره قديراً في الحرب والسياسة، فقضى على الفتن والتآمر وأمّن العباد وخفف الضرائب قدر المستطاع. وعني بالعدل والقضاء فحصر السلطة القضائية العليا في قضاة اربعة، وزاد رواتبهم ليكتفوا ويستغنوا. ثم فرض عليهم يميناً مغلظة يقسمونها على ان لا يفرّقوا بين غني وفقير. واشرك البطريرك في اختيارهم وتعيينهم ليضمن بذلك تعاون الكنيسة في توزيع العدل واحقاق الحق[١]. ووافق اندرونيكوس على هذا كله وعني بتنفيذه وتطبيقه. ولكنه اضطر بعد ثمانية اعوام الى ان يعزل جميع هؤلاء لسؤ تصرفهم. ورغب الفسيلفس ووزيره الاول في التحرر من سيطرة الجنويين والبنادقة فأدخلا

١ *Petit, L., Réforme Judiciaire d'Andronic, Echos d'Orient, 1906, 134-138.*

الى العاصمة جاليات تجارية فرنسية غير ايطالية وشرعا في انشاء اسطول وطني ليستغنيا به عن خدمات الجنويين[1].

حروبه في البلقان: وكان اندرونيكوس الثالث جندياً مجرّباً يشاطر جنوده التعب والشقاء فيقودهم الى الحرب بنفسه. وقضى شطراً وافراً من سني حكمه في ميادين القتال في البلقان. فحالف في السنة ١٣٣٠ البلغار للصمود في وجه الصرب الطامعين وقام الى الجبهة محارباً. ولكن ميخائيل الثالث حليفه البلغاري نازل اسطفان ديشنسكي الصربي قبل وصول الروم اليه فانكسر في الثامن والعشرين من حزيران في ميدان قسطندل Kostandil ولاقى حتفه فيه. وطمع اندرونيكوس في بعض حصون بلغاربة الجنوبية، فاغتنم فرصة وفاة ميخائيل وضمها الى ملكه. وتوفي ديشنسكي وتولى الحكم بعده ابنه اسطفان دوشان (١٣٣١ — ١٣٥٥) قيصر الصرب العظيم. فصادق ملك بلغارية الجديد يوحنا الكسندروس وتعاون معه، فأعلنا الحرب على اندرونيكوس. فاستعاد يوحنا في السنة ١٣٣٢ ما استولى عليه اندرونيكوس. وتقدم اسطفان دوشان في مقدونية فاحتل اوخريدة وكستورية وغيرهما. واضطر في السنة ١٣٣٤ الى ان يصالح اندرونيكوس ليدافع عن حدوده الشمالية ضد هجمات المجر.

وفي السنة ١٣٣٣ توفي ديسبوتس ثيسالية اسطفان ميليسيني، فاستولى حاكم ثيسالونيكية على نصف ثيسالية باسم اندرونيكوس الثالث. وبعد ذلك بسنتين اضطر يوحنا اورسيني ديسبوتس إبيروس الى ان يتخلى عن القسم الجنوبي من ثيسالية للفسيلفس. ثم استعان الفسيلفس بفرقة تركية وأخضع القبائل الالبانية الجبلية وأعادها الى الطاعة. واتجه بعد ذلك شطر إبيروس فضمها سلماً. ثم ثارت في وجهه في السنة ١٣٣٩

[1] *Cantac., II, 28-38.*

زوجة المطالب بعرش الامبراطورية اللاتينية بدسيسة من كاترينة دي فالوى. فقام الفسيلفس اليها في السنة ١٣٤٠ وأخضعها[١].

حروبه في آسية والارخبيل: وتابع عثمان غزواته، وسقطت بروسة في يده عند وفاته وذلك في السادس من نيسان سنة ١٣٢٦ فجعلها اورخان وريث عثمان عاصمة امارته. وفي السنة ١٣٢٩ حاصر اورخان نيقية، فحاول الفسيلفس فك الحصار فقاتل اورخان في السنة ١٣٣٠ في بليكانون Palakanon ولكنه لم يفلح. واستولى اورخان على نيقية في الثاني من اذار سنة ١٣٣١. وكان اورخان قد نزل في تراقية في السنة ١٣٣٠ وزحف على طوزلة، ولكن اندرونيكوس ألحق به خسارة دامية. وعاد اورخان في السنة التالية ١٣٣١ فعبر الدردنيل واستولى على رودوستو Rodosto ثم ارتد عنها خاسراً. فاتجه اورخان شطر نيقوميذية فعبر اندرونيكوس البوسفور وصده عنها. وفي السنة ١٣٣٢ قام عامر السلجوقي بخمس وسبعين سفينة حربية فنهب جزيرة سموثراقية، ثم نزل في تراقية فاعاده اندرونيكوس الى سفنه وفاوض البندقية في أمر التعاون ضد هذا العدو المشترك[٢]. وعاد اورخان في السنة ١٣٣٧ فأنزل قوات غير قليلة في ضواحي القسطنطينية، فألحق به اندرونيكوس خسارة فادحة واعاده الى آسية. فهاجم اورخان نيقوميذية واستولى عليها. ولم يبقَ في يد الروم في آسية سوى بعض مدن متفرقة كفيلادلفية وهرقلية.

وسجل اندرونيكوس الثالث انتصارين هامين في بحر الارخبيل، فاحتل في السنة ١٣٢٩ جزيرة خيّوس ورفع سلطة اسرة زكريا الجنوية عنها بعد ان اعلنت استقلالها، فزاد دخل الخزينة بعمله هذا مئة وعشرين

١ *Bréhier, L., Byzance, 429-430.*

٢ *Bratianu, J., Les Venitiens dans la Mer Noire, Acad. Romaine, Etudes, 1939.*

الف بزنت في السنة[1]. وفي السنة ١٣٣٦ طمع التاجر الجنوي دومينيكوس كاتان في الاستقلال بفوقة الجديدة فاستعان بفرسان رودوس الاسبتاليين واستولى على جزيرة متيلينة. فحالف اندرونيكوس امير صروخان التركي وحاصر لسبوس وفوقة الجديدة في آن واحد واستولى عليهما.

موقفه من الكنيسة: وأقلق تقدم الاتراك وتوسع سلطانهم اندرونيكوس الثالث وحار في أمره فعمد الى مفاوضة رومة والى طلب المعونة من الغرب. ومر بالقسطنطينية في السنة ١٣٣٤ راهبان دومينيكيان عائدين من اراضي المغول بعد ان حاولا التبشير فيها فكلفهما اندرونيكوس الاتصال بالبابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦ - ١٣٣٤) لاطلاعه على تحرج الموقف في الشرق وحثه على المساعدة. فوافق البابا على طلب الفسيلفس وأعاد هذين الدومينكيين الى القسطنطينية حاملين شروطه في تقديم المساعدة. ولدى وصولهما لقيا مقاومة شديدة من الاكليروس الارثوذكسي فلم يتمكنا من البحث في كيفية تعاون الكنيستين. وفي السنة ١٣٣٥ أرسل اندرونيكوس ينبىء البابا بنديكتوس الثاني عشر (١٣٣٤ - ١٣٤٢) باستعداده للاشتراك في حملة صليبية جديدة بقيادة ملك فرنسة تكون مهمتها القضاء على مطامع الاتراك في الشرق المسيحي. ولكن الاختلاف الذي نشأ في هذه الآونة بين فيليب السادس ملك فرنسة وادوار الثالث ملك انكلترة والمشادة التي نشبت بين البنادقة والجنويين حالا دون اي تعاون دولي اوروبي في حملة صليبية مشتركة. وفي السنة ١٣٣٩ عاد اندرونيكوس فأوفد الى بنديكتوس الثاني عشر الاب برلام رئيس دير المخلص في القسطنطينية واسطفان دندولو البندقي ليرجواه عقد مجمع مسكوني ينظر في اتحاد الكنيستين وفي تنظيم حملة صليبية تحرر نصارى آسية الصغرى من

١ Cantac., II, 10-13.

ربقة الاتراك . فأجاب البابا بان مجمع ليون حلّ المشاكل بين الكنيستين ووعد خيراً ووقف عند هذا الحد[1].

الغيورون والمعتدلون[2]: وكان قد قام في الكنيسة الارثوذكسية منذ عهد ثيودوروس الاستوديتي في القرن التاسع من قاوم تدخل الفسيلفس والحكومة في شؤون الكنيسة بل من قال بوجوب تقيد الفسيلفس بالانظمة الاكليريكية. وكانت غيرة هؤلاء على الكنيسة قد اشتدت الى درجة أدت بهم الى اللجوء الى العنف في سبيل الدفاع عن حرية الكنيسة واستقلالها. ولم يتطلب هؤلاء الغيورون من الاكليروس علماً وافراً او ذكاءً مفرطاً ولكنهم أوجبوا عليهم سيرة طاهرة وتقشفاً صارماً. فنالوا اعجاب الرهبان وتأييدهم في غالب الاحيان. وكان من الطبيعي جداً ان يقول غيرهم من ابناء الكنيسة بالتعاون بين الدولة والكنيسة، وهؤلاء هم المعتدلون. وأصر هؤلاء على وجوب تضلع الاكليروس العالي من العلوم الدينية والزمنية ليحسنوا الدفاع عن الكنيسة جمعاء ويحفظوا حرمتها. واشتد الخلاف حول هذه المبادىء واتسع حتى شمل جميع المؤمنين. فكنت ترى البيت الواحد مقسوماً على نفسه بحيث يختلف فيه الاب مع ابنه والابنة مع امها والكنة مع حماتها[3].

ووقف الغيورون الى جانب البطريرك ارسانيوس في نزاعه مع ميخائيل الثامن فعرفوا بالارسانيوسيين وانضم اليهم من شد أزر الشاب الاعمى يوحنا الرابع. وكثر الجدل واشتد الحماس وعلت الحرارة فلجأت الحكومة الى الجلد والسجن والنفي وغير ذلك. وقضت ظروف ميخائيل السياسية

١ *Gay, J., Le Pape Clément VI, 49-50, 115; Bréhier, L., Byzance, 431-433.*

٢ *« Zelotai », « Politikoi ».*

٣ *Pachymeres, G., I, 314.*

بمفاوضة البابا في أمر اتحاد الكنيستين فضج الغيورون وأعلنوا مقاومتهم وسخطهم . ثم جاء اندرونيكوس الثاني فألغى الاتحاد ولكن الغيورين ظلوا معاندين ، ووسعوا نطاق عملهم فتدخلوا في السياسة .

واشتد نفوذ الغيورين والرهبان في النصف الاول من القرن الرابع عشر فسيطروا على الاكليروس العلماني وهيمنوا على البطريركية المسكونية ولا يزالون[1] .

الصامتون : وما كاد النزاع بين الغيورين والمعتدلين ينتهي حتى حلَّ محله نزاع آخر حول الزهد الصامت Hesychia . وتفصيل ذلك انه كان قد شاع في بعض الاديار اعتزال عن عالم المادة باسره وعن كل ما يمت اليه بصلة ، وانعكاف على التأمل فاتصال بالخالق عن طريق الصلاة . فكان كلٌ من هؤلاء « الصامتين » ينعزل انعزالاً تاماً فلا يفكر الا بالله وبالموت ولا يردد الا صلاة داخلية واحدة هي : « يا يسوع ارحمني ، يا ابن الله خلصني » . وأشهر من قال بالصمت التام والتأمل الكامل غوريغوريوس بالاماس Palamas رئيس اساقفة ثيسالونيكية . وكان قد اشتهر بتقشفه عندما قبل النذر في آثوس ، ثم اشتهر بما كتبه في الصمت والتأمل . وكاد ينسحب من ثيسالونيكية ليبدأ ما قال به عندما فوجئ بالشغب الذي احدثه برلام الراهب Barlaam في جبل آثوس[2] .

وبرلام هذا راهب يوناني ايطالي أمَّ ثيسالونيكية وأقام فيها . فاستمع لاقوال بالاماس رئيس اساقفتها فجادله فيها وملأ المدينة ضجيجاً (١٣٣٣ - ١٣٣٩) . ثم قام الى افينيون ليفاوض بنديكتوس

١ Troizky, J. E., *Arsenius and the Arsenites*, 99-101, 178, 522; Quot. by Vasiliev, A., *Byz. Emp.*, 661-664.

١ Jugie, M., *Palamas et Controverse Palamite*, Dict. Théol. Cath., XI, 1735-1818.

الثاني عشر باسم اندرونيكوس الثالث في حملة صليبية ضد الاتراك . ولدى عودته منها اطلع على رسالة النور الالهي التي كان قد أعـدها بالاماس في

اسرة باليولوغوس

تابع

حنة صفوى = اندرونيكوس الثالث   يوحنا السادس كنتاكوزينوس

١٣٢٨ – ١٣٤١   ١٣٤١ – ١٣٥٤

قسطنطين دراغاسيس   يوحنا الخامس   هيلانة

١٣٤١ – ١٣٩١

هيلانة = عمانوئيل الثاني   اندرونيكوس الرابع

١٣٩١ – ١٤٢٥   ١٣٧٦ – ١٣٧٩

يوحنا السابع

١٣٩٠

توما   ديمتريوس   قسطنطين الحادي عشر   يوحنا الثامن

١٤٤٩ – ١٤٥٣   ١٤٢٥ – ١٤٤٨

يوحنا الثالث الروسي = زوية صوفية   اندراوس

اثناء غيابه ، فكتب في دحضها[١] . وقام الى القسطنطينية يشكو بالاماس الى البطريرك المسكوني يوحنا كاليكاس Calecas وأثار فيها ضجة اضطر بسببها البطريرك الى استدعاء بالاماس للمثول امام المجمع . فالتأم المجمع برئاسة الفسيلفس اندرونيكوس الثالث في العاشر من حزيران سنة ١٣٤١ . وما ان افتتحت الجلسة حتى أعلن الفسيلفس ان البت في العقيدة منوط بالاساقفة وحدهم وانه ليس على برلام الا ان يعتذر للرهبان عما صدر عنه[٢] . فعاد برلام الى الغرب ولكنه أذكى نار الشقاق فاستمرت طويلاً[٣] .

الحروب الاهلية : (١٣٤١ – ١٣٤٧) وتوفي اندرونيكوس الثالث في الخامسة والاربعين من عمره في الخامس عشر من حزيران سنة ١٣٤١ . وخلّف صبياً في التاسعة من عمره وفسيلسة وصية غربية لاتينية . وأوصى بان يشاركها الوصاية صديقه ووزيره الاول يوحنا كنتاكوزينوس . وهبّ الوزير الوصي يعالج الامور ليعيد للدولة نشاطها وحيويتها . فرغب في اعادة تنظيم الجيش وفي توفير المال ليخلص من طلبات الجنويين والبنادقة وبكمل الاصلاح الذي بدىء به في عهد اندرونيكوس الثالث[٤] . ووافقت حنة الوصية وشرع كنتاكوزينوس في الاصلاح المنشود ولكنه لم يحسب حساب اثنين كان قد أحسن اليهما فجعل احدهما وهو يوحنا كاليكاس بطريركاً مسكونياً على الرغم من مقاومة الاساقفة ، ورفع الآخر وهو اليكسيوس ابوكوكوس Alexios Apocaucos الى اعلى الرتب . فانهما تمنيا منذ اللحظة الاولى زوال نعمته ودسّا عليه عند حنة الوصية واقتربا

١ *Krambacher, K., Gesch. Byz. Litt., 103-105.*

٢ *Tafrali, O., Thessalonique au XIVe Siècle, 188-191.*

٣ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 665-670 ; Bréhier, L., Byzance, 433-434.*

٤ *Cantacuzenus, J., Hist., II, 40.*

عليه انه يعمل لتقويض حكم الاسرة المالكة[١]. فأحسّ الوزير الوصي بذلك فقدم استقالته فرفضت. ثم قام بمهمة ادارية خارج العاصمة فعاد اليكسيوس وصديقه البطريرك الى سابق فسادهما فألحّا على الفسيلسة الوصية بوجوب تجريد كنتاكوزينوس من جميع صلاحياته دون محاكمة[٢]. فعلم الوزير الوصي بذلك فنفد صبره وأعلن نفسه فسيلفساً في السادس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٣٤١ شريكاً في الحكم مع الفسيلفس الصغير يوحنا الخامس[٣].

وشد أزر يوحنا كنتاكوزينوس اصحاب الاملاك الكبيرة وسائر الارستقراطيين والرهبان، فاستهوى خصمه اليكسيوس الطبقات المتوسطة والفلاحين. ودخل الروم في حرب اهلية طاحنة دامت ست سنوات متتالية تذرع الفريقان فيها بجميع الوسائل للوصول الى الظفر غير مبالين بما تجره على الدولة من عواقب وخيمة، واستعانا بالاجانب الغرباء: بالصرب والبلغار والسلاجقة والعثمانيين. وذهب كنتاكوزينوس الى أبعد من هذا فأزوج سلطان العثمانيين من ابنته وتمكن بمعونته من الانتصار على خصمه[٤]. ثم ذُبح اليكسيوس في القسطنطينية ففتحت العاصمة ابوابها ودخل كنتاكوزينوس اليها فسيلفساً مساوياً ليوحنا الخامس. وكان بطريرك القدس قد توّجه فسيلفساً في ادرنة فلما استوى على عرش القسطنطينية أعاد تتويجه فيها. وأزوج كنتاكوزينوس يوحنا الخامس من ابنته هيلانة.

يوحنا السادس: (١٣٤٧ – ١٣٥٥) وربح يوحنا السادس الحرب الاهلية وأصبح سيد القسطنطينية ولكنه لم يَسُد على الدولة بأمرها.

١ *Diehl, C., Figures Byz., II, 254-256.*

٢ *Cantacuzenus, J., op. cit., III, 24-25.*

٣ *Phrantzes, G., Chronicon Majus, I, 9; Diehl, C., op. cit., II, 260-261.*

٤ *Bréhier, L., Byzance, 436-438.*

فظل هنالك من اعتبره مغتصباً فجاهر بالولاء ليوحنا الخامس. فاضطر كنتاكوزينوس الى ان يوقع معاهدة مع الفسيلسة الوصية حدد بموجبها المدة التي يبقى فيها هو مقدماً على الفسيلفس الصغير[١]. واضطر ايضاً الى ان يعلن عفواً عاماً شمل جميع الرعايا وان يطلب من الجميع يمين الولاء للفسيلفين معاً. وذهب الى أبعد من هذا فأظهر شهادات رسمية تثبت انتسابه للاسرة الباليولوغوسية.

ثم جوبه هذا الرجل المقدام بأصعب من هذا: باعادة الامن والطمأنينة والراحة. وكانت الحرب الاهلية قد استنفدت اموال الخزينة ولم يبقَ فيها ما يقوم بنفقات حفلة التتويج، فحض الفسيلفس الجديد الاعيان على الانفاق من اموالهم الخاصة لدعم مالية الدولة. فلم يفقهوا شيئاً مما كان يحلم به للنهوض بالدولة وقاوموه في ذلك مقاومة شديدة. ورغب يوحنا السادس رغبة اكيدة الى المعسكرين الاهليين ان يضعا سلاحهما جانباً ويعودوا الى حياة هادئة عادية فلم يفلح. واتهمه انصاره بالامس بالمحاباة في معاملة اخصامهم. وقام بكره متى يحاول انشاءَ اقطاع كبير في تراقية، ولم يقف عند حده الا بعد ان اعترضته في ذلك الفسيلسة الوصية[٢].

ولم يستتب الامن في الولايات. فالعصابات ظلت تجوب البلاد ناهبةً مخرّبة. واضطر الفسيلفان لدى عودتهما من مناورة عند شاطىء البحر الاسود الى ان يقاتلا عصابة تركية اعترضت سبيلهما[٣].

واستغل فنيوزو Vignoso الجنوي فرصة هذه الحروب الاهلية فاحتل جزيرة خيوس واستولى على فوقة القديمة والجديدة فاضاع بذلك الجهود

١ Cantacuzenus, J., op. cit., III, 99-100.
٢ Cantacuzenus, J., op. cit., IV, 4-5, 7-8.
٣ Gregoras, N., Hist., VI, 7.

التي كان اندرونيكوس الثالث قد بذلها في سبيل الاستيلاء على دخل هذه المرافق[١]. وظل الغيورون محتفظين بالسلطة في ثيسالونيكية غير معترفين بحق الفسيلفس الجديد ورفضوا ان يسمحوا لغوريغوريوس بالاماس بان يتولى شؤون الابرشية الروحية فيها. واضطر يوحنا السادس الى ان يستعين بقرصان من الاتراك ليستولي على ثيسالونيكية ويمنع الغيورين من تسليمها الى يد اسطفان دوشان ملك الصرب[٢].

يوحنا السادس والصرب: وكان اسطفان دوشان ملك الصرب قد استغل فرصة الحروب الاهلية فاحتل مقدونية الشرقية واستولى على قَوَلة وسيريس ووصل الى بحر ايجه واتجهت انظاره شطر القسطنطينيـــة وحلم بالاستيلاء عليها وبتأسيس دولة صربية كبيرة تشمل جميع البلدان البلقانية. وفي الثالث عشر من نيسان سنة ١٣٤٦ جمع اساقفة الصرب لانتخاب بطريرك عليهم ففعلوا، ثم توّجوا اسطفان «فسيلفساً» عـــلى الصرب والروم[٣].

وعلم يوحنا السادس حق العلم انه ليس بامكانـه ان يصد الصرب عن تحقيق آمالهم وحده دون مساعدة خارجية، فلجأ الى اوورخان سلطان العثمانيين الاتراك. ثم اوفد الى اسطفان دوشان وفدين للتفـــاوض معه حول مصير ثيسالية (اذار – نيسان ١٣٤٨) فلم يصغ اليـه. فاستقدم يوحنا عشرة آلاف تركي عثماني وأنفذهم الى ثيسالية، فأخرجوا اسطفـان منها ولكنهم نهبوها. وبعد ان استولى يوحنا على ثيسالونيكية في خريف السنة ١٣٤٩ قام بهجوم واسع النطاق عـــلى ممتلكات دوشان وكان هذا

١ *Miller, W., Essays on the Latin Orient*, 298-300.

٢ *Cantacuzenus, J., op. cit., IV*, 16-17.

٣ *Ostrogorsky, G., Seminarum Kondakovianum*, 1936, 46.

منهمكاً آنئذٍ في حرب ضد المجر لاستعادة بلغراد ، فاستمال يوحنا عدداً من امراء الاقطاع الصرب واستعاد قسماً كبيراً من مقدونية واحتل عاصمة الصرب . فعاد اسطفان مسرعاً من حدوده الشمالية الى مقدونية للمفاوضة . وفي مطلع السنة ١٣٥٠ اتفق يوحنا السادس ويوحنا الخامس من جهة واسطفان دوشان من الجهة الثانية على ان تعاد اكرنانية وثيسالية ومقدونية الجنوبية الشرقية الى الروم ، ووقعوا معاهدة بهذا المعنى[١]. ولم يعنِ هذا ان اسطفان تحوّل عن مطامعه في البلقان وفي القسطنطينية ، ولكنه اضطر اضطراراً الى ان يؤجل تحقيق هذه المطامع ريثما يتمكن من محاسبة امرائه الذين انحازوا الى جانب الروم ومن ايجاد القوة البحرية اللازمة للاستيلاء على القسطنطينية . ومن هنا في الارجح كان تحالفه مع البنادقة[٢].

متاعب داخلية ايضاً : وكان الوباء الاسود قد وصل الى القسطنطينية وانتشر فيها في السنة ١٣٤٨ . ويستدل من وصفه الذي ورد في المراجع الاولى انه كان نوعاً من الطاعون الدملي الفتاك ، فاجتاح القسطنطينية وغيرها من مدن السواحل والجزر من بلاد القباجقة في ساحل بحر ازوف . واشتد فتك هذا الداء وكثرت ضحاياه فزاد الروم فقراً على فقر . وانتقل من بحر الارخبيل الى ايطالية ففرنسة وانكلترة[٣].

وظلت المشادة قائمة حول موقف رئيس اساقفة ثيسالونيكية بالاماس من النور الالهي . وكان البطريرك يوحنا كاليكاس قد دعا الى مجمع جديد للنظر في قضية بالاماس فحكم عليه وقضى بحبسه . فلما استوى يوحنا

١ *Jirecek, C., Gesch. der Serben, I, 401-402.*

٢ *Cantacuzenus, J., op. cit., IV, 22.*

٣ *Glotz, G., Moyen Age, VI, 527-528.*

السادس على عرش القسطنطينية أنزل البطريرك عن عرشه لتآمره مع ابوكوكوس وأحلّ محله اسيدورس مرشح الصامتين . فدعا البطريرك الجديد الى مجمع ثالث في السابع والعشرين من ايار سنة ١٣٥١ وخرج بالاماس ظافراً وانتصر الصامتون[١].

مشكلة جنوى : واشتد طمع الجنويين في اسواق العاصمة ولاسيما في الاتجار مع سواحل البحر الاسود . وأحبوا ان يستأثروا بتجارة البحر الاسود وان يمنعوا البنادقة والروم من الاشتغال بها . وأحب كنتاكوزينوس ان يزيد النشاط التجاري في اسواق العاصمة بتخفيض الرسوم الكمركية وبانشاء السفن الرومية الوطنية . فلم يرضَ الجنويون عن هذه السياسة الجديدة . وكانوا منذ ايام ميخائيل الثامن قد استقروا خارج العاصمة في غَلَطة فجعلوا منها حصناً منيعاً عند ابواب القسطنطينية . وفي منتصف آب السنة ١٣٤٨ انتهزوا فرصة تغيب يوحنا كنتاكوزينوس عن العاصمة فأرسلوا انذاراً الى حكومة العاصمة فلم ترضَ هذه عنه . فأغرقوا السفن الرومية وأحرقوا بعض الضواحي وضربوا حصاراً بحرياً برياً حول العاصمة[٢]. ودام الحصار بضعة أشهر . وحاول يوحنا بناء السفن لصد هذا الخطر الجنوي . ولكن توتر العلاقات بين الجنويين والبنادقة اضطر اولئك الى تقبل جميع شروط يوحنا[٣].

الحرب بين جنوى والبندقية : ولجأت جنوى الى العنف في سبيل منع البنادقة من الاتجار في مياه البحر الاسود فسدت البوسفور في وجههم في أضيق مضايقه . وحاول يوحنا السادس ان يحافظ على الحياد التام .

١ *Bréhier, L., Byzance, 442.*

٢ *Byzantion, 1938, 346-347 ; Gregoras, N., Hist., XVIII, 1-4.*

٣ *Cantacuzenus, J., op. cit., IV, 11*

ولكن الجنويين قصفوا اسوار العاصمة بالمجانيق فاضطر الفسيلفس ان يحالف البنادقة (آب ١٣٥١). فانقض الجنويون على مراكبه وأغرقوها ولم يتمكن البنادقة من اقتحام مراكز الجنويين في البوسفور. فاضطر الفسيلفس ان يصالح الجنويين (٦ ايار ١٣٥٢) على شروط اهمها توسيع رقعة غَلَطَة وامتناع مراكب الروم عن الابحار في مياه البحر الاسود[١].

حرب اهلية ايضاً: ولم يبالِ يوحنا الخامس بالخطر المحدق ولم يكترث لما قد يحل بالروم من جراء المنازعات الداخلية، فأعلن نفسه من ثيسالونيكية في السنة ١٣٥١ الفسيلفس الوحيد لدولة الروم. وفاوض اسطفان دوشان في ذلك فأقره عليه. وزحف على ادرنة في ايلول السنة ١٣٥١ في الوقت الذي كان فيه الحصار قائماً حول القسطنطينية. ففاوض يوحنا السادس الجنويين وصالحهم في ربيع السنة ١٣٥٢، ثم قام الى ادرنة فطرد يوحنا الخامس منها. فاستعان يوحنا الخامس بالصرب والبلغار والبنادقة، ولجأ يوحنا السادس الى الاتراك العثمانيين، ونزع من كنائس القسطنطينية ذهبها وفضتها ليدفع بها جاكيات العساكر الاتراك الذين أمده بهم صديقه السلطان اورخان. ووعد يوحنا صديقه العثماني بحصن في تراقية لقاء هذه المساعدة. ثم تمكن بمؤازرة الاتراك من فرض سلطته على تراقية ومقدونية. وفرّ خصمه يوحنا الخامس الى جزيرة تنيدوس. ثم قام بهجوم بحري على القسطنطينية فلم يفلح، فلجأ الى ثيسالونيكية واعتصم بها. فاتهمه يوحنا السادس بالخيانة واعلن ابنه متّى وريثاً له بعد وفاته. ولما امتنع البطريرك كاليستوس عن تتويج متّى فرّ من القسطنطينية. فأقام يوحنا السادس فيلوثاوس بطريركاً مسكونياً[٢].

واتسع أفق يوحنا السادس وكاد يؤسس اسرة مالكة جديدة. ولكن

١ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 625-629.*

٢ *Cantacuzenus, J., op. cit., IV, 32-38.*

Cantacuzene

حليفه العثماني ترك الوفاء بعهـــده . وفي الثاني من آذار سنة ١٣٥٤ في اليوم الاول من الصوم الكبير زلزلت الارض في شبه جزيرة غاليبولي فتهدمت أسوار غاليبولي وغيرها من المدن المجاورة فدخلها الجنود الاتراك واستقروا فيها . فعظم هذا الامر على يوحنا السادس وأفزعه وعدّه محاولة لانشاء رقبة جسر للاتراك في اوروبة . ففاوض صديقه اورخان في ذلك وعرض عليه دفع مبلغ من المال لقاء خروج الاتراك من هذه المدن المحصنة ولكن اورخان اجابه بانه لا يمكنه ان يتخلى عن عطية منّ الله بها عليه ورفض مقابلة الفسيلفس[١] . وفي حزيران السنة نفسها عبر الاتراك الدردنيل الى اوروبة ونهبوا تراقية وأضاعوا على السكان حصادهم . وبعد ذلك بقليل اعترض قرصان من الاتراك سبيل بالاماس في طريقه بحراً الى القسطنطينية فأسروه ونفوه[٢] . ففترت همة يوحنا . وجعله الناس مسؤولاً عما حلّ بالدولة من مصائب . فحـاول في حزيران من السنة ١٣٥٥ التفاوض مع يوحنا الخامس ، فصده هذا ولم يقبل . وفي خريف هـذه السنة نفسها قام يوحنا الخامس الى القسطنطينية بحراً فنزل في احـد مرافىء بحر مرمرة . فثار الشعب مطالباً بعودتـه الى الحكم واقتحم مستودعات الاسلحة . فعاد يوحنا السادس عن الحكم الفردي وقبل بالحكم الثنائي . ثم ثار الشعب ثانية فخلع يوحنا السادس شارات السلطة ولبس ثوب الرهبنة واتخذ لنفسه اسم يواصف وبقي مدة في احد اديار آثوس ، ثم التحق بابنه متى فأقام في مسترة (١٣٨٠) وتوفي فيها في الخامس عشر من حزيران سنة ١٣٨٣[٣] .

١ *Cantacuzene, J., op. cit., IV, 38.*

٢ *Accord. to one of his letters to the Thessalonikians, Neos Hellenomnemon, 1922, 7 ff.*

٣ *Cantacuzenus, op. cit., IV, 39-42; Zakythinos, D. A., Despotat Grec de Morée, 114 ff.*

الفصل الخامس والثلاثون

الأتراك العثمانيون في اوروبة

(١٣٥٥ – ١٣٨٩)

شبه جزيرة البلقان بعد الاضطراب : وتسلط يوحنا الخامس على دولة متهدمة خربة ، تجتاحها العصابات وتمزقها الفتن ، فيتسلط على اجزائها الاجانب . ولم يكن يوحنا الخامس سيد هذه الدولة بل زعيم حزب من احزابها . فصبر على المصيبة ورضي بنصيبه . واعترف للاجانب بما فرضوه عليه . ففي السابع عشر من تموز سنة ١٣٥٥ تخلى عن جزيرة لسبوس لفرنسيس غتيلوزيو الذي عاونه على الوصول الى العرش . وكان بعض قرصان فوقة قد أسروا خليلاً ابن اورخان فحمّله زميله العثماني مسؤولية هذا العمل . فحاول يوحنا ان يفك خليلاً من الاسر فلم يفلح . فاضطر الى ان يتخلى لاورخان عن مدن تراقية مقابل الفدية (١٣٥٧ – ١٣٥٨) . وكان متى ابن يوحنا السادس لا يزال يحمل لقب فسيلفس ويتمتع باقطاع واسع في ادرنة وضواحيها فاضطر يوحنا الخامس الى ان يحاربه . فتدخل يوحنا السادس واقنع ابنه بوجوب التخلي عن هذه الرتبة السامية . وعاد الاثنان الى المورة وحاولا التحرر من سلطة القسطنطينية . فأدى ذلك الى حرب اسفرت عن نجاح الاسرة المالكة . وظلت المورة

بعد ذلك بيد احد افراد الاسرة المالكة حتى النهاية[١]. وما كاد يوحنا الخامس يعود الى عرش آبائه حتى فرّ البطريرك فيلوثاوس من القسطنطينية وعاد اليها البطريرك كاليستوس . وعاد اليها ايضاً نيقيفوروس غريغوراس من منفاه . وطالب هذا بنقاش علني بينه وبين بالاماس . فتم ذلك بحضور ممثل البابا انوشنتش السادس ورئيس اساقفة ازمير . وعاد الحزبان الدينيان الى سابق نزاعهما[٢].

وشعر البنادقة بهذا الخور وهذه الحشرجة فكتب احدهم مارينو فاليارو Faliero الى الدوق ان يستولي على القسطنطينية قبل وقوعها في يد الاتراك وذلك في الرابع عشر من نيسان سنة ١٣٥٥[٣]. وتوفي هذه السنة نفسها في العشرين من كانون الاول ملك الصرب اسطفان دوشان الذي كان يعد العدة لتحقيق آماله في دمج الروم والصرب في دولة واحدة فدخلت دولته في طور انحلال مريع[٤]. وكانت بلغارية تشكو من انقسامات دينية ومشاحنات بين افراد الاسرة المالكة فدخلت بعد وفاة يوحنا الكسندروس (١٣٦٥) في حرب اهلية[٥]. وكان لويس ملك المجر (١٣٤٢ - ١٣٨٢) وحده قادراً على القيام بعمل حربي كبير ولكنه آثر التلهي بتجزئة الصرب واقتطاع بعض الاراضي البلغارية والحيلولة دون قيام دولة في الفلاخ والبغدان على الدفاع عن الصقالبة ضد الاتراك الطامعين[٦].

١ *Zakythinos, D. A., op. cit., 98-105.*

٢ *Bréhier, L., Byzance, 448-449.*

٣ *Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Staates, 379.*

٤ *Cantacuzenus, J., op. cit., IV, 34 ; Temperly, H., Hist. of Serbia 93-95.*

٥ *Guerin - Songeon, Bulgarie, 280.*

٦ *Giurescu, C. C., Istoria Romanilor, I, 385-395 ; Eckardt, F., Hist. de la Hongrie, 38 ff.*

الهجوم التركي: وتميز الاتراك العثمانيون آنئذٍ بقيادة قوية نشيطة وبخدمة عسكرية اجبارية وبتسامح ديني غير عادي في ذلك العصر. وكان الاسلام كالنصرانية يُقدم على العنصر والجنس واللغة، فجعل من الاتراك وممن أحب الدخول في الاسلام في ظل الدولة الجديدة امةً عثمانية تساوي فيها التركي وغير التركي. وتميز جيش هذه الدولة بتماسكه وولائه فاختلف كل الاختلاف عن الجنود المرتزقة الذين كانوا يحاربون في صفوف الروم وغيرهم من الدول المعاصرة[١].

وكان اورخان قد انشأ رقبة جسر له في شبه جزيرة غاليبولي فبدأ منذ السنة ١٣٥٥ باغارات متتالية في تراقية تهدف الى الاستيلاء على ادرنة. فاحتل اولاً عدداً من النقاط الاستراتيجية في نواحيها، ثم سجل نصراً باهراً في بورغاس فاحتل المدينة في اذار السنة ١٣٦١[٢]. وتوفي بعد ذلك بقليل. وأكمل ابنه مراد الاول فتح تراقية في الاشهر القليلة التالية ففصل القسطنطينية عن ممتلكاتها الغربية.

وعني مراد عناية فائقة بجيشه فأنشأ حرساً من المشاة اسماه الجنود الجديدة «يكيجرى» الانكشارية. وقد نسب انشاء هؤلاء خطأً الى اورخان واخيه علاء الدين[٣]. وهم غلمان من النصارى انتزعوا انتزاعاً من بيوت آبائهم فنشأوا في السراي السلطاني نشأةً عسكرية حربية. ومنعوا من الزواج فخصوا السلطان بكامل ولائهم. ونظموا تنظيماً شبه ديني على غرار جمعيات الفرسان الصليبية فانضووا تحت لواء الطريقة البكتاشية. وكان الاتراك العثمانيون قد اشتهروا منذ خروجهم من خراسان بانهم

١ *Gibbons, H. A., Foundations of Ott. Emp., 73-84.*

٢ *Balinger, F., Byz. Osman. Grenzstudien Byz. Zeit., 1930, 413.*

٣ *Gibbons, H. A., Foundations etc., 117, note 1.*

فرسان بارعون . ولكن حرب الحصون والمراكز المنيعة تطلبت مشاة مدربين . ومن هنا كان هذا اللجوء الى النصارى وهذه التربية الخاصة[1].

ولم يبقَ لدى يوحنا الخامس جيش من الرجال المدربين ، فأسلم أمره الى الله وانقاد لمراد الاول فاعترف بسلطة الاتراك على تراقية وحالف سلطان العثمانيين ضد خصومه الاتراك في بر الاناضول (١٣٦٢ — ١٣٦٣)[2]. وحاول في السنة ١٣٦٤ ان يستمد المعونة من الصرب . فأرسل وفداً الى سرّيس يفاوض ارملة اسطفان دوشان ولكن دون جدوى[3]. فأجاب مراد بتوقيع معاهدة تجارية مع جمهورية راغوسة على شاطىء الادرياتيك وبجعل ادرنة مركز حكمه ومقره الدائم (١٣٦٦) .

الفسيلفس وبابا رومة : وكان الفسيلفس يوحنا الخامس قد أصدر في اواخر السنة ١٣٥٥ خريسوبولة أقسم فيها الطاعة لرومة واقترح انشاء قصادة رسولية دائمة في القسطنطينية تشرف على التعيينات الاكليريكية كما وعد بارسال ابنه رهينة الى افينيون مقابل تنظيم حملة صليبية يتولى هو قيادتها بنفسه . ولكن انوشنتش السادس كان حذراً قليل الثقة وكان يعلم في الوقت نفسه انه ليس بامكان الفسيلفس الضعيف ان يفرض ارادته على الاكليروس الارثوذكسي ، فلم ينجم عن هذه المفاوضة سوى حملة بحرية صغيرة بزعامة بطرس توما أدت الى احتلال لماكوس احتلالاً موقتاً[4]. فلما أكره الفسيلفس على الرضوخ والاعتراف بالواقع في تراقية (١٣٦٢) وجّه نداءً جديداً الى رومة في ايام اوربانوس الخامس (١٣٦٢ — ١٣٧٠)

١ كارل بروكلمان ، الشعوب الاسلامية ، ٣ ، ٢٠ — ٢٣ .
٢ *Gibbons, H. A., op. cit., 121-122.*
٣ *Cantacuzenus, J., op. cit., IV, 50.*
٤ *Halecki, O., Empereur de Byzance à Rome, 31 ff., 68*

وقام بنفسه الى بودا يفاوض لويس آنجو . فدعا البابا الى حملة صليبية عامة لتحرير « رومانية » من نير الاتراك وذلك في الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٣٦٥ واشترط مثول يوحنا بين يديه ليعلن بنفسه عودته الى الطاعة . فقام يوحنا الخامس من القسطنطينية في نيسان السنة ١٣٦٩ ونزل في كستلماري في السادس من آب من السنة نفسها . وقام اوربانوس الخامس من افينيون قاصداً رومة فوصلها في الثالث عشر من تشرين الاول . وفي الحادي والعشرين من هذا الشهر تقبل طاعة يوحنا في كنيسة القديس بطرس . وشملت هـذه الطاعة ، التي قال بها يوحنا وحده فيما يظهر ، القول بما قاله رومة في جميع نقاط الخلاف بينها وبين الكنيسة الارثوذكسية . وذهب يوحنا الى أبعد من هذا فأعلن نفسه لاتيني المذهب[١]. فحض اوربانوس الخامس جميع المؤمنين على حمل السلاح لبذل المعونة الى « قسطنطين الجديد » وفوّض الفسيلفس تجييش المحاربين في ايطالية . ولكن لويس الكبير ملك المجر ظـل غير مبالٍ بمصير الروم وظل البابا غير مبـالٍ بهذا الموقف السلبي . أما البنادقة فانهم أظهروا اندفاعاً كبيراً في سبيل المحافظة على القسطنطينية والحيلولة دون سقوطها في يد الاتراك . فقـام يوحنا الخامس الى البندقية في اوائل السنة ١٣٧٠ واتفق الطرفان على شروط اهمها تخلي الفسيلفس عن جزيرة تنيدوس عند مدخل الدردنيل الى البنادقة لقاء تقديم المراكب اللازمة لنقل المحاربين وتقديم سلفة مالية معينة واعادة جواهر التاج البيزنطي التي كانت قـد حفظت رهينة في البندقية . ويرى بعض رجال الاختصاص ان لا صحة لما جاء في بعض المراجع المتأخرة من ان البنادقة القوا القبض على يوحنا لوفاء دينه[٢].

١ *Halecki, O., op. cit., 203 ff.*

٢ *Halecki, O., op. cit., 223-229 ; Bréhier, L., Byzance, 455-456.*

البطريرك فيلوثاوس يقاوم : وفي اثنــاء هذا كله كان البطريرك المسكوني يسعى سعياً حثيثاً في جميع الاوساط الارثوذكسية في البلقان وفي روسيــة الى تنظيم حملة ارثوذكسية توقف الاتراك عنـد حد معين وتشل مفعول الاتحاد الذي أعلنه يوحنا الخامس . ولكن شيئاً من هـذا لم يتم . وجـل ما توصل اليه البطريرك المسكوني انه ثبّت الاوساط الصربية والبلغارية والفلاخية على التمسك بقرارات المجامع المسكونية وعدم الاعتراف بسلطة رومة .

الاتراك عند ضفة الدانوب : وظل خلفاء يوحنا الكسندروس ملك البلغار في خصام مستميت . فاحتل مراد الاول قلعــة سوزوبوليس التي كانت تسيطر على مرفأ بورغاس واضطر ششمان ان يدخــل في طاعته (١٣٦٩) وان يبعث اخته مارة زوجة له . ثم تعاون مراد وششمان فطرد المجر من بلغارية الشمالية ووصل الاتراك لاول مرة الى ضفة الدانوب وذلك في السنة ١٣٧٠[١]. وأفزع هذا التقدم بعض رجال الاقطاع من الصرب المجاورين ، فهبّ اثنان من هؤلاء الى السلاح : يوحنا وفوكاشين اوغليـاشة وقاما بالرجال الى حدود الاتراك في اوروبة ففوجئآ عندما حاولا قطع نهر المريتزا في السادس والعشرين من ايلول سنة ١٣٧١ وغلبا على أمرهما . وخشي ششمان البلغاري سوء العاقبة فتعاون مع الصرب على صد الاتراك عن الزحف باتجاه صوفية . فانكسر انكساراً ذريعاً في سماكوف سنة ١٣٧٣ وفرّ ملتجاً الي اعالي جبال الرودوب . ودوّخ مراد بلغارية وأضافها الى ممتلكاته . ثم زحف على مقدونية فاحتل جميع المدن التي كانت قد دخلت في حوزة الصرب في عهد اسطفان دوشان . وقام بعد ذلك الى بلاد الصرب وما فتىء يواصل زحفه حتى أطلّ على الادرياتيك . ودخل أمراء

١ *Gibbons, H. A., op. cit., 139-143.*

الصرب في طاعته محتفظين بالقابهم ورتبهم ، مقدمين الجنود عند الحاجة[1].

اخفاق البابا ودخول الفسيلفس في طاعة السلطان : وتوفي اوربانوس الخامس وتولى السدة الرومانية غريغوريوس الحادي عشر (١٣٧٠ - ١٣٧٨). وسمع هذا البابا بمأساة مريتزا فحضّ المجر والبندقية على التدخل (ايار ١٣٧٢) ودعا جميع الدويلات المسيحية في الشرق الى مؤتمر في ثيبة من بلاد اليونان وحدد موعداً له تشرين الاول من السنة ١٣٧٣ ولكنه ، اخفق في هذا كله ولم ينعقد المؤتمر . وأوفد يوحنا الخامس يوحنا لاسكاريس كالوفيروس الى افينيون وباريس والى عاصمة المجر يستغيث فلم يلقَ الا وعوداً غامضة . ثم ارسل البابا غريغوريوس سفراءه الى القسطنطينية في خريف السنة ١٣٧٤ ليؤكد لفسيلفس الروم ان الدفاع يتيسر بسهولة ان هو نجح في ضم الكنيسة الارثوذكسية الى الكنيسة اللاتينية . ولكن يوحنا كان قد يئس ففاوض مراداً ودخل في طاعته قبل تموز هذه السنة نفسها . وحاول البابا في السنتين التاليتين ١٣٧٥ - ١٣٧٦ ان يستنهض الهمم في اوروبة لتخليص القسطنطينية ولكن دون فائدة . فالانقسامات والمناظرات الدولية وعدم المبالاة كانت افضل ما قدمته اوروبة للاتراك العثمانيين[2].

ثورة اندرونيكوس : وفي السنة ١٣٧٤ حرم يوحنا الخامس بكره اندرونيكوس من الملك وقدّم عليه اخاه عمانوئيل وذلك لاسباب نجهلها . فقد تكون ذات علاقة بسياسة السلطان العثماني وموقفه من ابنه ساوجي الذي كان يطمع في الملك فيتودد الى اندرونيكوس ابن يوحنا ، وقد تكون بسبب طمع اندرونيكوس وشوقه للاستئثار بالسلطة ، وقد تكون

١ *Gibbons, H. A., op. cit., 143-148.*

٢ *Halecki, O., op. cit., 248-307.*

عطفاً خاصاً من يوحنا على ابنه عمانوئيل . والواقع الذي لا جدال فيه ان اندرونيكوس لم يخضع لمشيئة ابيه ، بل تآمر وساوهجي على والده ، فثار ثائر مراد وأمر بقلع عيني ابنه كما اوصى بسمل عيني اندرونيكوس . ونفذ كلٌ من السلطان والفسيلفس أمر السمل وفقد ساوهجي بصره ولكن اندرونيكوس لم يفقد سوى عين واحدة . ونفي اندرونيكوس وعائلته الى جزيرة لمنوس . ثم اشتد النزاع بين البندقية وجنوى . فألحت الاولى بوجوب السماح لها باحتلال تنيدوس عملاً بنص المعاهدة بينها وبين يوحنا ، وقد سبقت الاشارة اليها . فعاونت جنوى اندرونيكوس على الخروج من سجنه من لمنوس . فخرج في صيف السنة ١٣٧٦ وقام الى القسطنطينية فخلع اباه عن العرش وسجنه وأرضى الاتراك بالعودة الى غاليبولي . وتولى الحكم ثلاث سنوات متتالية ١٣٧٦ — ١٣٧٩ . ثم أفلت يوحنا الخامس من السجن بمعونة البنادقة وقام الى القسطنطينية فدخلها في اول تموز سنة ١٣٧٩ فخرج اندرونيكوس منها الى غلَطة ، ثم ترامى على قدمي والده فعفا عنه ولكنه توفي في السنة ١٣٨٥[١].

الاتراك اسياد الموقف : وهكذا فان الاتراك أصبحوا أسياد الموقف في البلقان وامسى الروم في حالة بؤس ويأس . وكتب أحد هؤلاء حوالى السنة ١٣٧٨ يقول : « والكل خارج الاسوار عبيد للاتراك والجميع في داخل المدينة يئنون من البؤس والاضطراب[٢] » . وبرَدَت همة المسيحين في الغرب وخمد نشاطهم فأقبلوا على التفاوض مع الاتراك ولم يعبأوا بتهديد البابا ووعيده[٣].

١ *Chalkondyles, L., Hist., n. 52 ; Iorga, N., Usurpation d'Andronic IV, Rev. Hist. S. E. Européen, 1935, 105-107.*

٢ *Cydones, D., Correspondance, n. 26, 61-62.*

٣ *Gibbons, H. A., op. cit., 163-165.*

وأراد مراد الاول ان يوسع سلطته في البلقان، وكانت ثيسالونيكية لا تزال في يد الروم يدير شؤونها عمانوئيل ابن يوحنا وكذلك حصن سرّيس. فعبث مراد بشروط التحالف بينه وبين يوحنا وأرسل خير الدين احد رجاله الى سريس فاستولى عليها في ايلول السنة ١٣٨٣. ولكن عمانوئيل رفض ان يسلم ثيسالونيكية فحاصرها الاتراك اربع سنوات ١٣٨٣ – ١٣٨٧ فسقطت في ايديهم[١]. فسخط يوحنا على ابنه عمانوئيل ونفاه الى لمنوس. ثم تدخل مراد متابعاً سياسة التفريق بين افراد اسرة باليولوغوس فرضي يوحنا عن عمانوئيل وأعاده الى رتبته وسابق عهده[٢]. وكان خير الدين يتابع فتوحاته في غربي البلقان فانتصر في السنة ١٣٨٥ على الالبان في سورة ودخلت اشقودرة في حوزة الاتراك واعتنق الاسلام عدد كبير من الالبان. واتجه الاتراك نحو الدانوب فاستولوا على عقدتي الطرق الهامتين: صوفيا في السنة ١٣٨٦ ونيش في السنة ١٣٨٧.

قوصوة: (١٣٨٩) وكان عازار قد خلف ابن دوشان على عرش الصرب، فشق عليه خضوع سلفه للاتراك فحالف توركتو ملك البشناق وخرج على الاتراك. فأنفذ مراد لالا شاهين بقوة لاخضاع عازار وتوركتو فالتقيا به عند بلوشنك Plochnik فأوقعا به هزيمة شنعاء وذبحا معظم جنوده (١٣٨٨). فثارت البلقان بامرها على الاتراك وانضم الى عازار وحليفه ششمان ملك البلغار وغيره من أمراء النصارى[٣].

فأنفذ مراد قوة بقيادة علي باشا الى قتال ششمان وحده في بلغارية. ثم قام ومعه ولداه بايزيد ويعقوب وأمراء آسية الى عازار وحليفه

١ *Loenertz, Manuel Paléologue, Echos d'Orient, 1937, 480 ff.*

٢ *Cydones, D., Corresp., n. 35-36.*

٣ *Gibbons, H. A., op. cit., 167 ff.*

وجموعها. فاقتتل الطرفان في مرج الشحارير «قوصوة» حيث ينبع الايبار والوردار ودرينة. وتنازع الفريقان راية النصر فكانت الحرب سجالاً. ثم أخذ ميلوش اوبيليش احد اشراف الصرب على عاتقه أمر اغتيال مراد، فطعنه خنجراً في خيمته. وكاد النصر يكون لعازار وحلفائه ولكن فوك برانكوفيتش احد انسباء عازار انسحب من ميدان القتال باثني عشر الفاً فأمّن النصر للاتراك. فانتصروا في الخامس عشر من حزيران سنة ١٣٨٩ وقضوا على استقلال الصرب[١].

١ *Leger, L., Bataille de Kossovo, (Acad. Inscript. Belles - Lettres), 1916.*

الباب الثاني عشر

النهاية

(١٣٨٩ – ١٤٥٣)

٥

الفصل السادس والثلاثون

الروم وبايزيد ومحمد

(١٣٨٩ – ١٤٢٥)

السلطان بايزيد : ونودي ببايزيد سلطاناً في قوصوة . فبدأ عهده بقتل اخيه يعقوب فاختط لخلفائه طريقاً مخضباً بالدم ساروا عليه قروناً متتالية . وتسلم بايزيد دولة لا تزال في دور النشوء فأرادها وريثة لبيزنطة . فاتجهت انظاره الى آسية الصغرى بعد شبه جزيرة البلقان . فزحف على امارة آيدين وأكره اميرها على الطاعة ثم فرض عليه اقامة جبرية في بروسة . وقام في السنة ١٣٩١ فحاصر أزمير وكانت قد أصبحت بيد الاسبتاليين منذ السنة ١٣٤٥ فلم يقوَ عليها لانه لم يكن لديه اسطول بحري . ثم أخضع امارة صروخان ومنتش ودخل أضالية فوصل بها الى البحر المتوسط . وانشأ في هذه السنة نفسها اسطولاً بحرياً فخرّب جزيرة

خيّوس وغزا سواحل اتيكة في بلاد اليونان . ثم جمع حوله أمراء البلقان وقام الى ايقونية عاصمة علاء الدين فحاصرها في اواخر السنة ١٣٩١ ففرّ اميرها من وجهه والتجأ الى جبال طوروس . وكانت قد ساءت احوال جبهته في شمالي البلقان فعاد عن ايقونية وعبر بجموعه وجيوشه الى اوروبة . وعاد علاء الدين الى ايقونية محارباً فرجع بايزيد الى آسية . وما ان وصل الى كوتاهية حتى فاوضه علاء الدين في الصلح ، فلم يقبل وانقض عليه فهزمه وقتله واستولى على امارة القرمان (١٣٩٢) . وفي السنة ١٣٩٥ حارب برهان الدين امير قبدوقية فأجبره على الطاعة . وخشي امير قسطموني سوء العاقبة ففر والتجأ الى المغول . ووصل بايزيد الى البحر الاسود واحتل مرفأي سمسون وسينوب .

وكان بايزيد يتابع في الوقت نفسه اعمال الفتح في البلقان التي بدأ بها والده مراد . فاقتص من عازار بعد قوصوة ، ولكنه أعجب بشجاعة الصرب وبأسهم فعامل ابن عازار معاملة حسنة وأدخل عناصر صربية في جيشه . وبعد ان جال جولته الاولى في آسية الصغرى غزا البشناق والفلاخ . وانتصر على مرقية Mircea هوسبودار الفلاخ وأبعده الى بروسة وأكرهه على الدخول في طاعته بشروط بقيت اساس علاقات العثمانيين بامراء الفلاخ مدة طويلة : اعتراف بسلطة السلطان ، ودفع مال سنوي معين ، وتقديم معونة عسكرية عند الحاجة ، وامتناع السلطان عن الدعوة للدين الاسلامي شمالي الدانوب ، وعن اقامة اية جالية اسلامية واي جامع للصلاة[1] . وأصبحت المجر بعد هذا كله مركز المقاومة الرئيسي لتقدم الاتراك في اوروبة . وكان لويس ملكها قد توفي في السنة ١٣٨٦ فخلفه في الحكم صهره سيجموند ابن الامبراطور كارلوس الرابع . وكان

١ Gibbons, H. A., op. cit., 192.

هذا ايضاً يحلم بالسيطرة على البلقان[1]. فبادر الى الحرب فأرسل انذاراً الى بايزيد يوجب عليه الجلاء عن بلغارية فلم يُجب بايزيد. فأغار سيجموند على بلغارية واحتل نيقوبوليس بعد حصار طويل. ثم اضطر الى ان يتراجع بخسارة كبيرة لدى وصول بايزيد الى الجبهة (١٣٩٢). ولمس بايزيد تأييداً لخصمه في الاوساط البلغارية، فاحتل تيرنوفو وسبى جماعات من البلغار فاسكنهم برّ الاناضول، وألغى الوضع السياسي الخاص الذي كان قد أعطاه والده للبلغار فاحتل البلاد احتلالاً وامتنع عن التعرف باللفظ «بلغار» في مراسيمه بعد ذلك[2].

وكان منذ ان تبوأ عرشه قد تدخل في سياسة القسطنطينية للتفريق بين افراد الاسرة المالكة. فعطف على يوحنا ابن اندرونيكوس الرابع وشجعه على الدخول الى القسطنطينية وعلى التربع في دست الحكم (١٤ نيسان – ٧ ايلول ١٣٩٠) مكرهاً يوحنا الخامس على الالتجاء الى احد الحصون. ولما جاءَ عمانوئيل الثاني ابن يوحنا الخامس وطرد هذا المغتصب تقبله بايزيد واقطعه ارض سيلمبرية. وكان قد أكره يوحنا الخامس على دفع اتاوة معينة وعلى الحاق ابنه عمانوئيل به على رأس مئة فارس. وكانت مدينة فيلادلفية (آلاشهر) في آسية الصغرى لا تزال خاضعة للفسيلفس، فأحب بايزيد ان يضمها الى ملكه. فامتنعت فحاصرها وأمر الفسيلفس وابنه عمانوئيل ان يشتركا في اعمال الحصار! اي ان يظاهرا السلطان على اتباعهما المخلصين، فاقدما ممتعضين كل الامتعاض. وحاول يوحنا الخامس ان يرمم الحصون في عاصمته فأمره بايزيد بوجوب هدم ما انشأ مهدداً بسمل عيني عمانوئيل. فخضع الفسيلفس لمشيئة السلطان متحسراً وتوفي بعد

١ *Eckhardt, op. cit., 40 42.*

٢ *Guerin - Songeon, Hist. de la Bulgarie, 293-294.*

ذلك بقليل في السادس عشر من شباط سنة ١٣٩١ . وعلم عمانوئيل بوفاة والده وهو لا يزال في بروسة مكرهاً على الاقامة فيها . ففرّ منها ودخل القسطنطينية . فغضب بايزيد وحاصر القسطنطينية سبعة أشهر متتالية . ثم فرض على عمانوئيل زيادة في الاتاوة وانشاءَ جامع في القسطنطينية واقامة حرس تركي في غَلَطة[١].

ثم كان ما كان من أمر الفتح في البلقان والاناضول ، كما سبق ان أشرنا ، فأصبح بايزيد وريث رومة الجديدة وصاحب الحق في نسرها الملكي . ولم يبقَ من تركتها خارج نطاق سلطته سوى العاصمة وبلاد اليونان . وكانت المورة قد دخلت في دور نزاع شديد بين ثيودوروس باليولوغوس ديسبوتس المورة او بالاحرى ذلك الجزء منها الذي كان خاضعاً للقسطنطينية وبين بعض أمراء اللاتين المجاورين . فشكا هؤلاء طمع ثيودوروس الى بايزيد وطلبا تدخله .

فدعا بايزيد جميع أمراء الاقطاع التابعين لملكه الى سرّيس في ربيع السنة ١٣٩٤ . فلبى الدعوة كل من عمانوئيل الثاني الفسيلفس وثيودوروس باليولوغوس سيد مبسترة والفسيلفس المخلوع يوحنا السابع وأمراء الصرب وسيد مونغفازية اللاتيني . وبعد ان استمع الى شكوى ماموناس ونظر في ما قاله أفراد اسرة باليولوغوس حكم على جميع هؤلاء بالاعدام ثم أبدل حكم الاعدام بسمل أعين مستشاريهم وأمر ثيودوروس ان يكف عن مونغفازية وان يتخلى له عن أرغوس وان يتقبل في حصونه حاميات تركية . فقبل ثيودوروس ثم فرّ من سرّيس خلسة وسبق الاتراك الى حصونه وامتنع فيها واستعان بالبنادقة . فاحتل بايزيد ثيسالية ونوقيذية واستعاد لماموناس بعض ما فقده وأرجأ الاقتصاص من ثيودوروس الى وقت

١ Muralt, Chronog., 6899, 10-11 ; Doukas, Chronog., XIII, 812.

آخر[1].

نيقوبوليس : (١٣٩٦) وخشي البنادقة لاول وهلة التحالف التركي البيزنطي . ثم عادوا الى انفسهم فرأوا في استيلاء الاتراك على المضايق وعلى القسطنطينية خطراً أكبر وأعظم ، فراحوا يستنهضون الهمم لحملة صليبية جديدة تخلص نصارى البلقان والقسطنطينية من الاتراك . فبدأوا بالوصول الى تفاهم تام بينهم وبين الجنويين . ثم اتصلوا بعمانوئيل الثاني في تموز السنة ١٣٩٤ وفاتحوه بكلام في هذا المعنى . فأبان الفسيلفس المخاطر التي تحيق بحملة برية وارتأى ان يصار الى تقويته بحراً[2]. واتصل سيجسموند في هذا الوقت بكارلوس السادس في بوردو وبدوق لانكستر وبالبنادقة . فلقي استعداداً كبيراً لدى هؤلاء جميعاً[3]. وتبنى هذا الواجب فيليب دي ميزيير de Mezieres فبث دعوة قوية في اوساط الأشراف في فرنسة وغيرها ، فتطوع عدد من كبار فرسان ذلك العصر بينهم وريث دوقية برغونية والمارشال بوسيكو Boucicaut وغيرهما . وتم الاتفاق على ان يتولى سيجسموند تطهير الفلاخ وبلغارية من الاتراك وان تقوم البندقية بخرق الحصار البحري الذي كان قد ضربه بايزيد حول مداخل القسطنطينية . ثم ترددت البندقية موازنة" بين مفاوضة بايزيد وبين محاربته ، فتأخر انطلاق الحملة سنة كاملة .

وفي ربيع السنة ١٣٩٦ وافقت البندقية موافقة كاملة ، فتقاطر الى بودا جيش قوي من فرسان الغرب . وفي صيف هذه السنة تحرك اسطول البندقية الى مياه الدردنيل والبوسفور وتمكن في الثامن والعشرين من

١ *Zakythinos, D. A., Despotat Grec de Morée, 155-156; Bo d, Princes of Achaea, II, 249-250.*

٢ *Bréhier, L., Byzance, 468-469.*

٣ *Delaville - Leroux, La France en Orient, 226-229.*

تشرين الاول من خرق الحصار حول مداخل القسطنطينية وبيرا وبات ينتظر وصول الجيش البري الزاحف عبر الدانوب . وكان سيجسموند قد حاول انتظار بايزيد في ميدان ملائم للقتال متخذاً موقف الدفاع . ولكن الفرسان الغربيين أبوا ان ينتظروا في موقف دفاعي وانطلقوا عبر الدانوب فاحتلوا تورنو وبدأوا بحصار نيقوبوليس . وجاءهم بايزيد بمشاته المدربين فلم يقوَ فرسان الغرب على اختراق صفوف هؤلاء ، فولوا مدبرين في الخامس والعشرين من ايلول ، ونجا سيجسموند بنفسه على قارب صغير عبر به الدانوب ، وقُتل او أسر عدد كبير من خيرة الفرسان الغربيين . وأسعد الحظ مرقية هوسبودار الفلاخ اذ بقي جيشه سالماً فتمكن من رد الاتراك على أعقابهم بعد ان قطعوا الدانوب[1].

واتجه بايزيد بعد نيقوبوليس الى بلاد اليونان فحارب ثيودوروس ديسبوتس المورة في ليونتاريون **Leontarion** في الحادي والعشرين من حزيران سنة ١٣٩٧ وتغلب عليه فدخل في طاعته . واستولى السلطان على كورنثوس وأرغوس ونهب المورة وخرج منها بثلاثين الف رقيق[2].

وطلب السلطان الى الفيلفس ان يسلم العاصمة ، فأبى عمانوئيل الثاني . فقام بايزيد يعد العدة لاقتحام القسطنطينية ، فأنشأ على بعد ثمانية كيلومترات منها كوزل حصار (القلعة الجميلة) . ثم أصغى الى نصائح حاشيته فارتد عن حصار العاصمة نظراً لضعفه في البحر وخوفاً من اتحاد الغرب عليه . وكان عمانوئيل قد اتصل منذ السنة ١٣٩٧ بدوق موسكو باسيليوس الاول طالباً المعونة ، وشاركه في هذا البطريرك المسكوني ، فأرسل

١ *Delaville - Leroux, France, 247 ff ; Hammer, J., Emp. Ott., I, 324-338; Kling, G , Die Schlacht bei Nikopolis; Atiya, A.S., Crusade of Nicopolis.*

٢ *Zakythinos, D. A., op. cit., 155 ff .*

الدوق معونة مالية[1]. واستغاث عمانوئيل بملكي فرنسة وانكلترة، فأتته من الاثنين معونـــة مالية، وأضاف ملك فرنسة كارلوس السادس بعثة عسكرية مؤلفة من الف ومئتي جندي بقيادة المارشال بوسيكو. ووصلت هذه الحملة الصغيرة في اواخر السنة ١٣٩٨ الى مياه الدردنيل، فاعترضتها قوة بحرية تركية، فتغلب الفرنساويون عليها ووصلوا الى القسطنطينية في وقت كاد بايزيد فيه ان يستولي على غَلَطة، فتراجع بايزيد عن غَلَطة. وحاربه بوسيكو بعد ذلك في مواقع متعددة ولكن انتصاراته لم تضمن سلامة العاصمة نظراً لضآلة عدد المحاربين[2].

عمانوئيل الثاني في الغرب: (١٣٩٩ – ١٤٠٢) ولمس بوسيكو فداحة الخطر المحدق بالعاصمة، فألح على عمانوئيل بوجوب القيام بنفسه الى الغرب في طلب المعونة وبوجوب اسناد الحكم في اثناء غيابه الى يوحنا السابع فيضمن بذلك ولاءَ هذا الامير للدولة ضد الاتراك. وتعهـــد البنادقة والجنويون بالقيام بالواجب في اثناء غيابه. فقام عمانوئيل في العاشر من كانون الاول سنة ١٣٩٩ الى الغرب يرافقه المارشال بوسيكو. فوصلا الى البندقية في نيسان السنة ١٤٠٠ وقاما منها الى فلورنزة وفرّارة وجنوى وميلانو ولقيا استقبالاً حاراً في جميع هذه المدن. ولكن اشتداد المزاحمة بين البندقية وجنوى حال دون الحصول على المعونة المنشودة. وفي السابع والعشرين من ايار السنة ١٤٠٠ أصدر البابا بونيفاسيوس التاسع نداءً حاراً الى جميع المؤمنين يحضهم فيه على تأييد عمانوئيل في نضاله ضد الاتراك واعداً بالغفرانات لمن يحمل الصليب في هـــذا السبيل كما لو كان يناضل في الاراضي المقدسة نفسها. وتابع عمانوئيل سيره فوصل باريس في الثالث

١ *Ostrogorski, G., Gesch. d. Byz. St., 397-398.*

٢ *Marinescu, E., Manuel II Paléologue, Bullet. Acad. Roum., 1924, 194 ff*

من حزيران سنة ١٤٠٠ فاحتفى به كارلوس السادس وأصغى اليه اصغاءً شديداً ولكنه بعد ان اشار الى النضال القائم بينه وبين هنريكوس الرابع ملك الانكليز اكتفى بتقديم الف ومئتي جندي وضعهم تحت قيادة بوسيكو وتعهد بنفقاتهم لسنة كاملة . وعبر عمانوئيل بحر المانش وزار هنريكوس الرابع في لندن فقوبل بالترحاب الشديد ولم يحظَ باية معونة عسكرية . وعاد عمانوئيل الى باريس وأقام فيها حتى خريف السنة ١٤٠٢ ولكن دون جدوى[١].

وهب بايزيد في اثناء هذا يطالب بخضوع يوحنا السابع وبتسليم العاصمة ، ولكن يوحنا أبى . فاستشاط بايزيد غيظاً وأقسم « بالله وبرسوله » انه لن يبقي رجلاً واحداً حياً في القسطنطينية . ولكن يوحنا أصرّ على الرفض. فشدد بايزيد اعمال الحصار ثم فوجىء بتيمور .

تيمورلنك وبايزيد: (١٤٠٢) وكان الامراء الاتراك الذين استولى بايزيد على اماراتهم في آسية الصغرى قد لجأوا الى حمى تيمور . وكان بايزيد قد تعرض لصاحب ارزنجان الارمني ، فغضب تيمور لكرامته لانه اعتبر صاحب ارزنجان تابعاً له . فقام الى آسية الصغرى في السنة ١٤٠٠ واحتل سيواس واعمل السيف في رقاب حاميتها التركية العثمانية وقتل ارطغرل اكبر ابناء بايزيد . ثم ولّى وجهه شطر الجنوب فاكتسح كل من جرؤ على الصمود في وجهه واستولى على عينتاب وبغداد وحلب ودمشق وما بينها جميعاً . وفي مطلع السنة ١٤٠٢ ارسل الى بايزيد يأمره باعادة كل المدن والاراضي التي استولى عليها الى الروم . وكتب الى الجنويين في غلطة ان يعاونوه ليقضي على بايزيد ودولته . فأبى بايزيد

١ Schlumberger, G., *Un Emp. de Byz. à Paris et à Londres, Byz. et les Croisades*, 1927, 87-147 : Jugie, M., *Voyage de l'Emp. Manuel en Occident*, *Echos d'Orient*, 1912, 322-332.

وأجاب جواباً قاسياً . فقام تيمور من سيواس الى انقره . فوجد في شماليها الشرقي جيوش بايزيد وعددها مئة وعشرون الفاً بينها عشرة آلاف محارب مسيحي بقيادة اسطفان لازاروفيتش . وفي صباح الثامن والعشرين من تموز بدأت المعركة . فهجم فرسان الصرب على جند المغول وشدوا عليهم ولكن بايزيد أمر بتراجعهم خشية التطويق . وتقدم المغول حتى بلغوا الصفوف العثمانية . فألقى السلاجقة المحاربون في صفوف بايزيد سلاحهم ولاذوا بالفرار رافضين القتال ضد امرائهم السابقين . وثبت بايزيد وحرسه الانكشاري حتى المساء . ثم لاذ بالفرار تحت جناح الليل ولكنه أسر هو وابنه موسى وعدد من القادة . وفزع ابناء الآخران محمد وعيسى الى القرمان . وحاول بايزيد الهرب فشدد تيمور عليه الحصار وحمله معه في قفص من حديد ! ثم توفي بايزيد في الاسر في الثامن من آذار سنة ١٤٠٣ فسمح تيمور بدفنه في بروسة . وأعاد تيمور الامراء السلاجقة الى اماراتهم وأبقى تراقية وما يليها في يد سليمان ابن بايزيد ، فحكمها باسم تيمور . وبعد ان نهب تيمور جميع آسية الصغرى قام الى الشرق البعيد ليحارب الصين . وتوفي في التاسع عشر من شباط سنة ١٤٠٥ في أطرار . فزالت دولته بزواله[١] .

اثر انهزام الاتراك : وتنازع ابناءُ بايزيد الملك ، وكان محمد أشدهم بأساً واكثرهم نشاطاً . وكان قد فرّ من انقرة واعتصم في جبال اماسية وطوقات وكتب منها الى اخيه عيسى مقترحاً تقسيم آسية الصغرى بينهما (١٤٠٣) . وكان عيسى قد احتلّ مدينة بروسة فرفض ما اقترحه محمد . فتقاتل الاخوان فهزم محمد اخاه ، فلاذ عيسى بالفرار الى القسطنطينية .

١ *Alexandrescu - Dersca, M., Campagne de Timur en Anatolie, (1942); Groussel, R., Empire des Steppes, 476-534.*

فأمده اخوه سليان بالجند فقام الى محاربة محمد مرة ثانية فمني بالخيبة ولقي حتفه في القرمان . فعبر سليان الدردنيل (١٤٠٤) وأخرج محمداً من بروسة . فهاجم موسى ممتلكات سليان في اوروبة ، فهزم سليان اخاه موسى عند القرن الذهبي . ولكن بطانته خانته فقتله بعض الفلاحين في السنة ١٤١٠ . وأبى موسى ان يعترف لمحمد بالسيادة .

وفي مطلع السنة ١٤٠٣ عاد عمانوئيل الثاني الى القسطنطينية ، فعلم بما حلّ ببايزيد فعادت انفاسه اليه . ولكنه لم يتمكن من استغلال الموقف استغلالاً يعيد نشاطه اليه نظراً لما كان قد حلّ بدولته من ضعف وهوان . وأراد سليان ابن بايزيد ان يعزز مركزه بالتحالف فعقد معاهدة مع كل من الجنويين والبنادقة في السنة ١٤٠٣ . وفي السنة ١٤٠٥ أعاد الى عمانوئيل ساحل البحر الاسود وساحل بحر مرمرة وتيسالونيكية والمورة وأرسل اخاه واخته رهينين الى القسطنطينية لقاء تعاون عمانوئيل معه ورضائه عنه[١] . وحارب موسى اخاه سليان عند القرن الذهبي فخسر الموقعة ففرّ الى الفلاخ ثم عاد الى قتال سليان وعمانوئيل ، فانفرط عقد سليان ففرّ الى القسطنطينية فقتل قبل وصوله اليها (١٤١٠) . وحاول موسى ان يستعيد ما قدمه سليان الى عمانوئيل ، فحاصر تيسالونيكية واستولى عليها ، ثم زحف على القسطنطينية نفسها . فاستعان عمانوئيل بمحمد ، فعبر هذا الى اوروبة وتعاون مع اسطفان لازاروفيتش ديسبوتس الصرب ، فتغلبا على موسى بالقرب من جامورلو في العاشر من تموز سنة ١٤١٣ ولعله قتل خنقاً في معسكر اخيه محمد . وعاد محمد الى آسية الصغرى تواكبه قوة رومية . فأعلن نفسه سلطاناً على العثمانيين (١٤١٣) وجدد تحالفه مع

١ *Doukas, Chron., XVIII, 157 ; Hammer, J., Emp. Ott., II, 125 ff ; Iorga, N., Notices, I, 1403.*

« والده » عمانوئيل واعترف بسلطته على ساحلي الاسود ومرمرة وعلى ثيسالونيكية وثيسالية[1]. اما البشناق والصرب والبلغار فانهم استعادوا حريتهم. وحفظ محمد الاول عهده هذا وحافظ عليه طوال سني حكمه.

عمانوئيل الثاني والمورة: وانتهز عمانوئيل هذه الفرصة فرصة الوئام بينه وبين محمد فقام الى ثيسالونيكية وأقام فيها مدة من الزمن. ثم برحها في ربيع السنة ١٤١٥ فزار ابنه ثيودوروس الثاني ديسبوتس المورة. وتفقد شؤون الرعية في المورة ووطد سلطته فيها وانشأ عند برزخ كورنثوس خطاً دفاعياً هاماً امتد ستة اميال كاملة. ومن هنا اسمه اليوناني Hexamilion وحصّنه بالابراج وأنشأ ما قارب المئة والخمسين برجاً[2]. وأصغى عمانوئيل في اثناء اقامته في المورة لبرنامج فيلسوفها غيميستوس بليثون Gemistus Plethon. وكان هذا الفيلسوف المتأخر شديد الاعجاب بجمهورية افلاطون فاقترح الغاء الملكية العقارية الخاصة وتبسيط الضرائب وانشاء جيش وطني يحل محل الجنود المرتزقة. وكتب في هذا كله رسالتين وجهها الى الفيلسوف عمانوئيل الثاني[3]. وأبقى عمانوئيل بكره يوحنا الثامن في المورة ليعاون اخاه في تنظيم ادارتها وتوطيد السلطة فيها وعاد هو الى القسطنطينية في اذار السنة ١٤١٦.

عمانوئيل الثاني ومراد الثاني: وبوفاة محمد الاول انتهت فترة الاستراحة وعاد ابن محمد وخلفه مراد الثاني (١٤٢١ – ١٤٥١) الى حلم اجداده اي الى محاولة الاستيلاء على القسطنطينية والقضاء على ما تبقى من دولة الروم. وأظهر مراد الثاني شيئاً من حسن النية لدى وصوله الى

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 354; Doukas, Chronog, 97.*

٢ *Zakythinos, D. A., Despotat, 175 ff.*

٣ *Tozer, H. F., A Byzantine Reformer, Jour. Hell. Studies, VII, 353 ff.*

العرش فاقترح على عمانوئيل تجديد المعاهدة التي وقعها والده من قبله، وقد سبقت الاشارة اليها. ولكن عمانوئيل طلب الى السلطان الجديد ان يبقي ابنه رهينة في القسطنطينية، فأبى. وفي التاسع عشر من كانون الثاني سنة ١٤٢١ اعلن يوحنا الثامن فسيلفساً وشريكاً لوالده في الحكم. فأطلق سراح مصطفى ابن بايزيد المطالب بالعرش العثماني كما حرر جنيداً الوزير السابق الثائر. فاضطر مراد الثاني الى ان يحاوب مصطفى فتلاقيا في ميدان لوباذيون Lopadion فخسر مصطفى المعركة وفرّ هارباً، فألقي القبض عليه وأعدم في ادرنة في مطلع العام ١٤٢٢. وحاول عمانوئيل التقرب من مراد ولكن دون جدوى. وقام مراد الثاني بخمسين الف جندي الى القسطنطينية وضرب عليها الحصار، واستعان بعدد من المدافع القديمة الطراز. ثم اضطر الى ان يرفع هذا الحصار لمجابهة ثورة هامة اذكاها عمانوئيل في بروسة ونيقية والقرمان. وكان زعيم هذه الثورة مصطفى اخا مراد. وقدّر لمراد ان يخمد نار هذه الفتنة بسرعة فعاد الى اوروبة يزعج خصمه الفسيلفس في المورة. فانه أنفذ اليها قوة في السنة ١٤٢٣ فدكت حصون عمانوئيل عند برزخ كورنثوس واستولت على ميسترة وغيرها من القلاع. وقام مراد الثاني بنفسه الى البانية والبشناق وفرض اتاوة على هوسبودار الفلاخ.

يوحنا الثامن في الغرب: (١٤٢٣) وفي هذه السنة نفسها قام يوحنا الثامن الى اوروبة يستنهض الهمم. فزار البندقية وميلانو والمجر. وأحب البابا مرتينوس الخامس ان ينتهز هذه الفرصة لتوحيد الكنيستين، فارتأى ان يصار الى انعقاد مجمع في ايطالية، وارسل الكردينال سانتانجلو Sant'Angelo الى القسطنطينية لهذه الغاية. ولكن عمانوئيل الثاني أجاب بانه لا يمكن تحقيق الاتحاد المنشود دون مجمع مسكوني يعقد خصيصاً لهذه الغاية. ومما جاءَ في بعض المراجع الاولية ان عمانوئيل اوصى قبيل

وفاته « الا يُنظر الى الاتحاد الا كوسيلة لصد الاتراك وان يصار الى المطالبة بعقد مجمع مسكوني وان يماطل في ذلك بقصد كسب الوقت وانه لا يمكن التوفيق بين عجرفة اللاتين وعناد الروم[1] » .

وفاة عمانوئيل الثاني : (١٤٢٥) وصالح عمانوئيل مراداً الثاني على ان يدفع اتاوة سنوية قدرها ثلاث مئة الف آسبر وان يدخل في طاعة السلطان . ومقابل هذا يسمح له بالاحتفاظ بالمورة وبزمبرية وذركوس ويعيد جميع مدن مقدونية والبونتوس الى العثمانيين . ووقعت معاهدة بهذا المعنى في الثاني والعشرين من شباط سنة ١٤٢٤ .

وكان عمانوئيل قد تنحى عن العمل منذ ان توّج ابنه يوحنا الثامن . ثم لبس اسكيم الرهبنة وانعزل في دير « الكلي القدرة » Pantocrator باسم الراهب متى . ثم توفي في الحادي والعشرين من تموز سنة ١٤٢٥ وكان في السابعة والسبعين من عمره .

١ *Phrantzes, II, 13.*

الفصل السابع والثلاثون

علوم الروم وثقافتهم في دورهم الاخير

(١٢٦١ - ١٤٥٣)

وعلى الرغم مما حلّ بالروم من ضعف ووهن في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ظلت عاصمتهم مركزاً للثقافة العالية ومحجاً رائعاً للفن . وبقيت مدارسها زاهية زاهرة يؤمها الطلاب من البلقان والجزر وبرّ الاناضول وايطالية ايضاً. وتتميز هذه الفترة من تاريخ الفكر والثقافة عند الروم بردّة الى الادب اليوناني القديم وبتعلق عجيب به . فاننا نرى الاسماءَ الكلاسيكية القديمة : اسماءَ بريكليس وثيموستوكليس وايبامينونداس وغيرهم من ابطال اليونان الاقدمين تفاجئنا بعودتها الى افواه الروم . ونرى بليثون يقترح اصلاحاً قومياً يونانياً ، كما نرى بيساريون يذكر قسطنطين الحادي عشر ببطولة الاسبارطيين القدماء وبامكانية الاتكال على أحفادهم لتحرير البلقان وآسية الصغرى . ونرى الوجهاء في العاصمة يرجون الفسيلفس ان يلقب نفسه بـ « ملك اليونان » ليشعر هؤلاء بالواجب الوطني فيعيدوا امجاد الاجداد[١].

دور الملوك والامراء : واندفع افراد الاسرتين المالكتين في هذه الحقبة في سبيل العلم والادب . ولم يكتفوا بالعطف والتشجيع بل اشتركوا

١ Diehl, C., *Europe Orientale*, 400.

اشتراكاً فعلياً في الانتاج . فصنّف عمانوئيل الثاني في انبثاق الروح وفي الدفاع عن المسيحية ضد الاسلام وفي واجبات الحاكم العادل . ودوّن يوحنا السادس ذكرياته الشهيرة عما جرى بين السنة ١٣٢٠ والسنة ١٣٥٦ فاتحف العالم بافضل ما صنّف في التاريخ في عهد الروم . وكتب في الدفاع عن النصرانية ضد اليهود وضد المسلمين[١]. وقام متى قانتاقوزينوس يكتب في الرغبة في العلم وفي قوى النفس الثلاث[٢].

التأريخ : وعني جاورجيوس باخيميريس Pachimeres (١٢٤٢ – ١٣١٠) بتأريخ الفترة بين السنة ١٢٦١ والسنة ١٣٠٨ فصنّف ثلاثة عشر كتاباً حفظ بها الشيء الكثير من محتويات المفاوضات الرسمية ونقل الينا حرارة المشادة حول اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ، كما دوّن اخبار الهجوم التركي ومغامرات الحملة القطلونية الاسبانية . وهو والحالة هذه مرجعنا الاكبر لتاريخ الروم في عهد ميخائيل الثامن واندورنيكوس الثاني[٣].

ولمع في النصف الاول من القرن الرابع عشر نيقيفوروس غريغوراس Grégoras ، فانه بعد ان اتقن اللغة اليونانية الكلاسيكية وبرع في اللاهوت والفلسفة والتاريخ والفلك انخرط في عداد المجاهدين ضد تعاليم برلام الراهب ، ثم مال الى اتحاد الكنيستين فلقي عذاباً أليماً . ومن أجلّ آثاره فائدة مصنفه في تاريخ الروم ويقع في سبعة وثلاثين كتاباً ، وفيه اجمال واختصار قبل السنة ١٢٠٤ وتفصيل وتوسع في ما جرى بين السنة ١٢٠٤ والسنة ١٣٥٩ . وله ايضاً مراسلات ومكاتبات تلقي ضوءاً قوياً في بعض الاحيان على تاريخ عصره[٤].

١ Parisot, V, Cantacuzene; Iorga N., Médaillons, Byzantion, 1925, 292 293.

٢ Krumbacher, K., Gesch. d. Byz. Litt., 136, 489.

٣ Krumbacher, K., op. cit., 288-291; Laurent, V., Manuscrits de Georges Pachymères, Byzantion, 1929-1930, 129-205, 1936, 43-57.

٤ Laurent, V., Nicéphore Grégoras, Dict. Théol. Cath., col. 451-467; Guilland, R., Essai sur Nic. Grégoras.

ودوّن جاورجيوس فرانجيس Phrantzes تاريخين : الاصغر والاكبر . فشمل الاصغر حوادث السنوات ١٤١٣ - ١٤٧٣ . اما الاكبر فانه ضم اخبار الفترة ما بين السنة ١٢٥٨ والسنة ١٤٧٨ . ورافق فرنجيس عمانوئيل الثاني بضع سنوات ، ثم رحل الى المورة في خدمة الامير توما والامير قسطنطين الذي اصبح فيما بعد قسطنطين الحادي عشر . وشاهد حصار القسطنطينية بام عينه . وذبح الاتراك اولاده الذكور وسبوا ابنته فقضت حياتها في الحرَم السلطاني . وأسر فرنجيس ثم افتدي فأقام في مبسترة حتى سقوطها في يد الاتراك . ثم رحل عنها الى جزيرة كورفو وتقبل النذر باسم غريغوريوس ودوّن تاريخه فيها[١].

وقضى دوكاس Doukas معظم حياته في خدمة حاكم جزيرة لسبوس الجنوي فدوّن اخبار السنوات ١٣٤١ - ١٤٦٢ باللغة اليونانيــة المحكية آنئذٍ وأظهر اعتدالاً في القول وعدلاً في الرواية جعـلاه مرجعاً هاماً لكل من أحب الاطلاع على الحقيقة . ونقل تاريخ دوكاس الى الايطالية وحفظ بها . فان بعض ما نجده مختصراً في الاصل اليوناني نقرأه مفصلاً في الترجمة الايطالية[٢].

ولنا في صاحب « القلم الرنان » Chalcocandyles مثال ناطق لانصاف العدو . ولد لاونيكوس خالقونديلس Laonikos Chalcondyles في آثينـة وعني بتاريخ ألد اعداء شعبه وهم الاتراك العثمانيون فدوّن تاريخهم منـذ السنة ١٢٩٨ حتى السنة ١٤٦٣ وذلك في كتب عشرة وفي جزيرة اقريطش . وحذا حذو ثوقيذيذس فجعل ابطال روايته ينطقون بما اراده هو لهم .

١ Krumbacher, K., op. cit., 307-309; Faller-Papadopoulos, J. B., Phrantzes, Bull. Inst. Arch. Bulgare, 1935, 177-189.

٢ Krumbacher, K., op. cit., 306-307; Diehl, C., Europe Orientale, 403-404.

وقلّد هيرودوتس فوصف عادات الشعوب المجاورة وتقاليدهم[1].

وخرج في هذه الحقبة عدد من المؤرخين على التقاليد المتبعة في التأريخ عند الروم فصنفوا في مواضيع خاصة. فكتب اليكسيس مكرمبوليتيس Macrembolites في حرب السنة ١٣٤٨ بين الروم والجنويين. وصنّف يوحنا كنانوس Cananos في حصار القسطنطينية سنة ١٤٢٢. وألّف يوحنا انغنوستيس Anagnostes في استيلاء الاتراك على ثيسالونيكية سنة ١٤٣٠. ولمع سيليفستروس سيروبولوس Syropoulos بعدالته في تدوين اخبار مجمع فلورنزة[2].

اللاهوت: وقضت ظروف الروم في هذا الدور الاخير من تاريخهم بان يلجأوا الى الغرب في طلب المعونة ضد الطامعين في ملكهم من رجال الغرب وضد الاتراك العثمانيين ورأوا ان لا مفرّ من استرضاء رومة واستعطافها لكثرة تدخل احبارها في السياسة وانغماسهم فيها. فكانت محاولات ومحاولات لتوحيد الكنيستين الشقيقتين الكاثوليكية الغربية والارثوذكسية الشرقية. وأثار هذا الموضوع عناية رجال الدين في الشرق فصنفوا فيه واختلفوا فيما بينهم.

وكان اكثر رجال الدين استعداداً لغض النظر عن قرارات المجامع المسكونية السبعة الاولى لارضاء احبار رومة في هذا الدور واستدرار مساعدتهم في السياسة والحرب يوحنا فِقّس او بكوس Veccos. وكان هذا الاكليريكي من أقدر أهل زمانه علماً وثقافة وحجة وفصاحة. وبدأ ارثوذكسياً متمسكاً بقرارات المجامع الاولى محارباً النزول عند مطالب الغرب فاضطهده الفسيلفس ميخائيل الثامن وحبسه. ثم قال باتحاد الكنيستين

١ *Miller, W., The Lost Athenian Historian, Journ. of Hell. Studies, 36-49.*
٢ *Krumbacher, K., op. cit., 300-301, 121-122.*

فرقي السدة البطريركية المسكونية في عهد ميخائيل الثامن (يوحنا الحادي عشر) وظل يدير شؤونها حتى ايام اندرونيكوس الثاني . فأنزل به هذا عقاباً صارماً لانه قال بالاتحاد . وأشهر ما صنّف فِقّس كتابه « الاتحاد والسلم بين الكنيستين : كنيسة رومة القديمة وكنيسة رومة الجديدة[1] » .

وحذا حذو فِقّس ديمتريوس قيذونس Cydones الذي عمّر طويلاً (١٣١٠ - ١٤١٠) فتعلم اللاتينية في رومة وقال باتحاد الكنيستين بشروط رومة وصنّف كثيراً . وأشهر ما فعل في حقل اللاهوت انه نقل الى اليونانية مصنّف توما الاكويني Summa Theologiae . وأجلّ ما دوّن لنا مراسلاته مع عمانوئيل الثاني ويوحنا كنتاكوزينوس وغيرهما[2].

وبين هؤلاء الذين قالوا باتحاد الكنيستين الانسيّ الشهير بيساريون Bessarion . ولد في طرابزون حوالى السنة ١٣٩٥ وأمّ القسطنطينية لمتابعة دروسه ثم انهاها في ميسترة في المورة على يد بليثون الفيلسوف . ورافق يوحنا الثامن الى مجمع فلورنزة وخرج عن ارثوذكسيته وأصبح كردينالاً . وأشهر ما كتب في اتحاد الكنيستين رده على مرقس رئيس اساقفة افسس ودفاعه عن فِقّس ضد هجمات بلاماس[3]. وسنعود اليه في الكلام عن اليقظة في ايطالية .

وأشد الارثوذكسيين تمسكاً بقرارات المجامع المسكونية واقواهم شكيمة مرقس افجنيكوس Eugenicos رئيس اساقفة افسس . فانه حضر

١ *Pachymeres, G., De Michaele Palaelogo V, 24 ; Bonn, I, 403 ; Gregoras, N., Historia, Bonn, I, 128-129 ; Grammel, V., Jean Beccos, Echos d'Orient, 1925, 26-32.*

٢ *Laurent, V., Correspondance de Demetrius Cydones, Echos d'Orient, 1931, 339-354. 1937, 271-287, 474-487, 1938, 107-124.*

٣ *Vast, H., Le Cardinal Bessarion ; Bréhier, L., Bessarion, Dict. Hist. Geog. Eccles.*

مجمع فلورنزة وأبى ان يوقع مقرراته . ثم عاد الى القسطنطينية ينادي بالمحافظة على العقيدة وعلى تنظيم الكنيسة كما أقرتها المجامع المسكونية السبعة . وأشهر ما صنّف كتابه في تفنيد العقيدة اللاتينية . وأجلّ ما خلّفه لنا مراسلاته[1].

وأوسعهم اطلاعاً واقوام حجةً وأعلمهم البطريركان المسكونيان غريغوريوس القبرصي وجناديوس الفيلسوف . تولى الاول السدة البطريركية المسكونية في عهد اندرونيكوس الثاني في السنة ١٢٨٩ فجادل فقّس ، وصنّف في « الايمان » وفي « الانبثاق » . وكان خطيباً مفوّهاً وكاتباً كبيراً ، فألّف في اللغة والادب ، وخلّف رسائل كثيرة هي من اكثر مراجع المؤرخ فائدة[2]. واما الثاني جناديوس سكولاريوس **Scholarios** اول بطريرك مسكوني في عهد الاتراك العثمانيين فانه اشتهر في حقلي اللاهوت والفلسفة . واشترك في اعمال مجمع فلورنزة وأظهر ميلاً نحو الاتحاد ولكنه اصبح فيما بعد من أشهر خصومه . فكتب عدداً كبيراً من الرسائل في موضوع الاتحاد والانشقاق . وجادل بليثون الفيلسوف حول ارسطو وافلاطون فأيد الاول تأييداً كبيراً . وخير ما خلّف لنا كتابه « المراثي » وقد ضمنه معلومات مفيدة جداً لتاريخ الكنيسة الارثوذكسية في اول عهد الاتراك العثمانيين في القسطنطينية[3].

وقضى اهتمام الرهبان ورجال الفكر الديني في هذا الدور الاخير

١ *Petit, L., Marc Eugenicos, Dict. Théol. Cath., 1968-1986 ; Grummel, V., Marc d'Ephèse, Estudis Franciscanes, 1925, 425-448.*

٢ *Cayré, F., Georges de Chypre, Dict. Théol. Cath., 1231-1235 ; Lameere, W., Tradition Manuscrite de la Corresp. de Grégoire de Chypre, (1281-1289), Bruxelles - Rome, 1937.*

٣ *Petit, L., Oeuvres Complètes de Genade Scholarios ; Jugie, M., Scholarios, G., Dict. Théol. Cath., 1521-1570.*

بالزهد والتصوف وبالتأمل « والصمت » الى التأليف . فكتب غريغوريوس بلاماس المدافع الاكبر عن حركة الصمت سبعين عظة لا تزال غير منشورة كما خلّف رسائل عديدة مفيـــدة . وصنّف البطريرك فيلوثاوس مؤلفاً هاماً فند فيـــه آراء نيقيفوروس غريغوراس ، كما صنّف نيقولاووس قباسيلاس متروبوليت ثيسالونيكية رسالة هامة في الطقس البيزنطي[١].

الفلسفة والبيان وفقه اللغة : ولم ينقطع الروم عن ارسطو طوال عهودهم . واستمر اهتمامهم بافلاطون منذ القرن الحـــادي عشر حتى آخر ايامهم . فكل من ميخائيل بسلّوس في القرن الحادي عشر ويوحنـــا ايطالوس في القرن الثاني عشر ونيقيفوروس البلميدي كرّس نفسه للفلسفة وعكف عليها . وأحب بسلوس افلاطون ، ودعا له ، ولكن الآخرين عشقا ارسطو وأيدا قوله .

وأبصر النور في ميسترة (المورة) في منتصف القرن الرابع عشر جاورجيوس غميستوس Gemistus ودرس في القسطنطينية . ثم عـــاد الى ميسترة ليقضي حياة طويلة ناهزت المئة . وعني بالفكر الكلاسيكي وتعشقه فاستبدل كنيته بما قابلها في اللغة اليونانية القديمة فدعا نفسه بليثون Plethon . ومعنى اللفظين واحد : « الملآن » . وامتلأ بليثون أنسنةً وتعشق افلاطون عن طريق الافلاطونية الجديدة فقدمه الى الروم واللاتين معاً ، وروّج لفكرة انشاء اكاديمية افلاطونية في فلورنزة . ووافقه عـلى ذلك كوزيمو مديتشي وغيره من عشاق الأنسنة في ايطالية . ومـال بليثون ايضاً الى احياء الآلهة اليونانية القـــديمة بانشاء دين افلاطوني جديد . وصنّف في المفاضلة بين افلاطون وارسطو كما كتب في النواميس . وتوفي في ميسترة في السنة ١٤٥٠ . وفي السنة ١٤٦٥ استولى على اسبارطة قائد ايطالي من

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 408-409.*

امرة ملاتيستة فنقل رفات بليثون الى ريميني في ايطالية وواراه التراب في كنيسة القديس فرنسيس[١].

وعني رجال الفصاحة والبلاغة والخطابة بالفلسفة كالعادة. وأشهرهم في هذا الدور نيقيفوروس خومنوس Chumnos تلميذ غريغوريوس القبرصي فانه خلّف عدداً من الرسائل في اللاهوت والفلسفة والبيان وما لا يقل عن مئة واثنتين وسبعين رسالة. وقد يختلف البعض في تقدير اهمية نتاجه الفكري ولكن حبه للقديم القديم وعودته اليه واندفاعه في سبيله بشّرت بالأنسنة في ايطالية وبيقظة الغرب[٢].

ويشكو علماء اللغة اليونانية الكلاسيكية اليوم زملاءهم في هذا الدور الذي نحن بصدده في ان هؤلاء اتخذوا لانفسهم الحق في تعديل بعض النصوص القديمة فخرجوا في ذلك عن امانة سلفائهم في ازمنة الروم. وعلى الرغم من ان الامانة هي الاصل في مثل هذه المواقف فاننا نرى في خروجهم محاولة للتحرر ومظهراً من مظاهر الابتكار.

وأشهر علماء اللغة في هذا الدور مكسيموس بلانوذس Planudes معاصر ميخائيل الثامن واندرونيكوس الثاني وسفير هذا وممثله في البندقية. وأهم ما خلّفه رسائل في غراماطيق اللغة اليونانية، ومختارات تاريخية وجغرافية مأخوذة من كتب الاقدمين. وأجاد بلانوذس اللغة اللاتينية فنقل الى اليونانية بعض مخلّفات الغرب اللاتيني امثال اوغوسطينوس وتوما الاكويني وكاتون الاكبر وقيصر وشيشرون. ويستدل من عدد النسخ الباقية من هذه الترجمات ان طلاب اليونانية في الغرب جعلوها اساساً لتعلم اليونانية[٣].

١ *Tozer, H., A Byzantine Reformer, Journ. Hell. Studies, 1886, 353-380 ; Stephanou, E., Plethon, Dict. Théol. Cath. 2393-2404.*

٢ *Gailland, R., Correspondance, 317-324.*

٣ *Wendel, C., Real - Encyclopadie, XX, (1950), 2202-2253*

وقام بعد بلانوذس تلميذه وصديقه عمانوئيل موسكوبولوس **Moschopulos** يؤدي رسالة استاذه في تدريس اللغة اليونانية وجعلها في متناول الغربيين المقبلين عليها . فكان معجمه اليوناني اللاتيني ومؤلفه في غراماطيق اللغة اليونانية لمدة طويلة الكتابين الاساسيين لتعلم اليونانية في ايطالية وغيرها من بلدان الغرب[١].

ثيودوروس ميتوخيتس : ولمع في النصف الاول من القرن الرابع عشر عالم آخر اشتهر بسعة اطلاعه وبتعلقه بالانسنة الكلاسيكية هو ثيودوروس ميتوخيتس **Metochites** وزير اندرونيكوس الثاني ومدبّر اموره . جمع هذا الرجل الفذ بين السياسة والعلم « فكان يقضي نهاره في ادارة امور الدولة ولا همّ له سوى تدبيرها والنجاح فيها . ثم يسهر ليله منقباً باحثاً كأنه لم يكن ذلك السياسي المسؤول[٢]» . وكان شديد الاعجاب بارسطو وافلاطون وبلوتارخوس ، كثير الانتباه الى آرائهم في السياسة . ولكنه لم يفاضل بين الديموقراطية والاستقراطية بل نهج نهجاً خاصاً في الفلسفة السياسية فقال بملكية دستورية مقيدة وذلك في عصر كان فيه الفسيلفس والكنيسة والشعب يقولون بالحق الالهي في الملك[٣]. ثم جاءَت الثورة فأنزلت اندرونيكوس الثاني عن العرش فخسر ثيودوروس نفوذه وماله وبيته وزجّ به في السجن . فألمّ به مرض عضال فسمح له ان يقضي ايامه في دير خورة الذي كان قد أنفق عليه بسخاء وزيّنه بمكتبة فاخرة . ولا يزال هذا الدير الذي أصبح فيما بعد جامع القاهرية يحفظ بالفسيفساء رسم ثيودوروس مرتدياً لباس الشرف حاملاً نموذجاً مصغراً للكنيسة في يده .

١ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 701-702.*

٢ *Grégoras, N., Hist., Bonn, I, 272-273.*

٣ *Diehl, C., Etudes, 401 ; Guilland, R., Coresp. Nicéph. Grégoras, 361.*

وتوفي ثيودوروس في السنة ١٣٣٢[١].

وأشهر مؤلفات ثيودوروس « كشكوله[٢] » وقد ضمنه خلاصة اطلاعاته على سبعين مؤلفاً من مؤلفات القدماء. وأشهر هؤلاء مصنفات سينيسيوس، وهي أشبه بموسوعة عامة منها باي شيء آخر، وفيها آراؤه في كثير من المواضيع الفلسفية والتاريخية. ونظم ثيودوروس في مواضيع متعددة، وأشهر شعره ملحمته في تاريخ حياته، وقد جاءت في ١٣٣٥ بيتاً[٣]، ووصفه الشعري لدير خورة. وخلّف ثيودوروس بعض الرسائل ايضاً[٤].

ديمتريوس تريكلينيوس : ولا يجوز اغفال هذا البطل Triklinius الذي عني في هذا الدور الاخير بعدد من الكلاسيكيين امثال بيندار واسكيلوس وسوفوكليس وافريبيديس وأريستوفانس ففاق جميع معاصريه وسلفائه بدقة نظره وشدة فهمه وامانته[٥].

القانون : وعني بالقانون في القرن الرابع عشر قاضي ثيسالونيكية قسطنطين هرمنوبولوس Hermenopulus فصنّف « السدامي » Hexabiblos في قوانين الحقوق والجزاء، واستمد مادته من البروخيرون والاكلوغة والابنغوغ وغيرها من مصنفات القوانين القديمة. وبعد سقوط القسطنطينية أصبح هذا « السدامي » مرجع جميع من عني بدروس القانون الرومي الروماني في الغرب[٦].

١ Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 702-703.

٢ « *Miscellanea Philosophica et Historica* ».

٣ Treu, M , *Dictungen des Gross-Logotheten Theodoros Metochites*, 1-54.

٤ Krambacher, K., *op. cit.*, 350-353.

٥ Krambacher, K., *op. cit.*, 354.

٦ Collinet, P., *Byz. Legislation, Cam. Med. Hist.*, IV, 723 *ff.*

العلوم والطب : وتابع الروم اهتمامهم القديم في مخلفات اليونان في الرياضيات والفلك ، في مصنفات اقليدس وبطليموس ، واستعانوا في هذا الدور الاخير ببعض مصنفات العرب والفرس . وظل رأيهم في الطب هو المعوّل عليه في الغرب مدة طويلة بعد سقوط عاصمتهم في يد الاتراك . فطلبة الطب في باريس مثلاً واظبوا على تعلم هذا العلم بمصنف بيزنطي حتى القرن السابع عشر[١] .

الفن : وتدل الآثار الفنية الباقية على اهتمام شديد بالفن في هذا الدور وعلى تطور ورقي . ويختلف رجال الفن في تعليل هذه الظاهرة . فيرى بعضهم انها اثر من آثار النهضة الفنية في ايطاليا . فيرد عليهم غيرهم بالقول ان فن النهضة الايطالية نفسه متأثر بالفن البيزنطي الاخير . ويرى شيخ رجال الاختصاص في الفن البيزنطي شارل ديل ان هذا التطور الاخير في فن الروم هو مظهر آخر من مظاهر النهضة بينهم التي بدأت في القرن الحادي عشر وسبقت كل شيء من نوعها في الغرب[٢] . وليس على الطالب المتيقظ الذي يرغب في تفهم هذا الموضوع الا ان يعود الى مصنف شارل ديل في الفن البيزنطي ليستعين بآراء هذا الاستاذ على ضوء الرسوم والصور التي ألحقها بكتابه هذا .

الروم وعصر اليقظة في ايطالية : ولا يجوز القول مع بعض علماء القرن التاسع عشر بان رجال اليقظة في ايطالية مدينون بنهضتهم هذه للروم الذين لجأوا الى ايطالية بعد سقوط القسطنطينية في يد الاتراك وذلك لسببين رئيسين : اولهما ان اليقظة كانت قد شملت ايطالية بأسرها قبل سقوط القسطنطينية وان بطراركة وبوكاتشيو من اعيان القرن الرابع

١ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 705-706.*

٢ *Vasiliev, A. A., op. cit., 709-713.*

عشر لا الخامس عشر ؛ والثاني ان اليقظة في ايطالية كانت في حد ذاتها نتيجة تطور بالغ في حياة الايطاليين قبل ان تكون مجرد اطلاع على مخلفات العصور الكلاسيكية عن طريق الروم او غيرهم .

وجل ما يجوز قوله في هذا الموضوع هو ان الروم عاونوا رجال اليقظة في ايطالية في تعلم اللغة اليونانية في بدء نهضتهم وان اثر الروم الحقيقي في نهضة ايطالية جاء في اواخر القرن الرابع عشر وطوال القرن الخامس عشر بعد ان بدأ التيقظ في ايطالية واشتدت رغبة اهلها في الرجوع الى الفكر الكلاسيكي .

والواقع الذي لا مفر منه هو ان الدور الذي لعبه برلام في ايطالية في النصف الاول من القرن الرابع عشر كان مجرد تعليم اللغة اليونانية لمن رغب في ذلك ، وان دور ليونتيوس بيلاتوس تلميذ برلام الذي توفي في العقد السابع من القرن الرابع عشر كان قد نشر اللغة اليونانية بين عشاق الأنسنة الكلاسيكية في ايطالية .

ثم كان ما كان من أمر رجوع الروم الى تاريخهم القديم واعتزازهم به فلمع في القسطنطينية وفي ميسترة رجال ثلاثة اتقنوا علوم اليونان الاقدمين وتغنوا بأنسنتهم فاشتهروا بذلك في ايطالية نفسها عنيت بهم عمانوئيل خريسولوراس وغميستوس بليثون وبيساريون النيقاوي .

وذاع صيت خريسولوراس بما أوتي من مقدرة في التعليم وفصاحة في الخطابة وعلوم اللسان ، وتعمق في الفلسفة ، فجاءه غارينو Guarino الانسني الايطالي يدرس عليه في القسطنطينية اللغة اليونانية والمؤلفين اليونان . ثم قام خريسولوراس الى ايطالية في مهمة سياسية وكلها اليه الفسيلفس . فرحب به الانسنيون الايطاليون ايما ترحيب وتباهوا بذلك . فأقام خريسولوراس عدة سنوات يعلّم في جامعة فلورنزة . وأصغى اليه فيها عدد من عشاق الانسنة في ايطالية . ثم عاد خريسولوراس الى القسطنطينية

ليقوم مرة ثانية منها الى اوروبة الغربية في مهمة جديدة، فزار ايطاليـة وفرنسة وانكلترة واسبانية. وطلب اليه البابا ان يزور المانية ليمهد السبيل لعقد مجمع جديد. فتوفي في كونستانسة في السنة ١٤١٥.

وجاءَ دور بليثون الفيلسوف فعرفه الايطاليون وأكرموه وتأثروا به فعظّموا افلاطون معه وأنشأوا الاكاديمية الافلاطونية في فلورنزة.

وأشد الروم أثراً في تطوير اليقظة في ايطالية وفي تعزيزها وتقويتها بيساريون النيقاوي. وكان اول عهده باليقظة الايطـالية اتصاله بالانسي الايطالي فيلفو Filelfo الذي أمّ القسطنطينية للدرس والتبحر عندما كان بيساريون يدّرس فيهـا. وترهّب وأصبح رئيس اساقفة نيقية ورافق الفيلفس الى مجمع فراري ومال الى توحيـد الكنيستين. ثم عاد الى القسطنطينية فلمس لمس اليد معارضة الاكثرية الساحقة للاتحاد الذي نشد، فعاد الى ايطالية ليصبح احد كرادلة رومة. وما كاد يقيم فيها ويستقر في بيت خاص له حتى أصبح مقره مركز الانسنة. ومما قاله احد اصدقائه الانسي فالأ Valla في شخصه «ان بيساريون هو اقـدر اليونانيين بين اللاتين وأقدر اللاتين بين اليونانيين[١]». وأنفق الكردينـال اليوناني بسخاء على اقتناء المخطوطات واستنساخها، فجمع مكتبة عظيمة من مؤلفات الآباء الشرقيين والغربيين ومن كل ما كان له علاقة بالانسنة. وقبيل وفاته وهب هذه المجموعة الكبيرة الى البندقية فكانت نواة المكتبة المرقسية.

ثم سقطت القسطنطينية فرحل عنها عدد كبير من ابنـائها الى ايطالية والغرب حاملين ما توافر لديهم من آثار السلف حافظين بعملهم هذا تراثاً كبيراً. وكان بين هـذه المخطوطات التي حفظت عدداً من افضل النسخ عن مؤلفات العصر الكلاسيكي[٢].

١ *Mohler, L., Kardinal Bessarion, 406.*

٢ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 713-722.*

الفصل الثامن والثلاثون

يوحنا الثامن وقسطنطين الحادي عشر

(١٤٢٥ - ١٤٥٣)

يوحنا الثامن: (١٤٢٥ - ١٤٤٨) وكانت الدولة قد تضاءلت فلم تعد تشمل سوى القسطنطينية وضواحيها حتى سيلمبرية، ثم بعض الاراضي الضيقة في ساحل البحر، فجبل آثوس فثيسالونيكية فميسترة وميزمبرية وانخيالوس. وكانت الموارد قد نضبت وقلّ الخير وكاد ينقطع. ولم يتمكن يوحنا الثامن وخلفه من سك النقود الذهبية فاكتفيا بالفضي منها[١].

واستغل مراد الثاني ضعف الروم فاستولى على مودونة Modon في السنة ١٤٢٥ وخرج منها بألف اسير. وفي السنة ١٤٣٠ زحف على ثيسالونيكية وضرب الحصار عليها. وكان اندرونيكوس باليولوغوس قد باعها من البنادقة منذ السنة ١٤٢٣ لقاء خمسين الف زكينة Zechin. وكانت البندقية قد تحاشت الاحتكاك بمراد الثاني ولكنها لم تتمكن فيما يظهر من اقامة حامية قوية في المدينة، فاستولى عليها السلطان بنفسه (٢٩ ايار سنة ١٤٣٠) وأباح نهبها وذبح من قاومه من أهلها وكانوا

١ *Blanchet, A., Monnaies d'Or des Emp. Byz. Rev. Numismatique, 1910, 78 ff.*

كثيراً . وحوّل جميع كنائسها الى جوامع ما عـدا كنيسة القديس ديمتريوس[١].

وفي هذه الآونة نفسها تمكن قسطنطين باليولوغوس من احتلال بتراس ومن تصفية أمراء آخية الافرنج . فعـاد العنصر اليوناني الى السيطرة في بلاد اليونان بعـد عراك طويل بينه وبين العنصر اللاتيني بدأ في ايام ميخائيل الثامن[٢].

مجمع فواري: (١٤٣٨ – ١٤٣٩) وعظم على يوحنا الثامن سقوط ثيسالونيكية في يد الاتراك ، وأفزعه تقدم مراد وانتصاره ، فهرع يرمم حصون العاصمة . ولا تزال بعض النقوش اليونانية البـاقية تنطق باهتمام يوحنا بالاسوار والحصون . وهاله تخاصم الجنويين والبنادقة في هذا الظرف الحرج[٣]. ومما زاده اضطراباً وقلقاً انه لم يكن له ولد ذكر يخلفه وان افراد اسرته المالكة لم يتفقوا على احد منهم . وقضى العرف والقانون بان يتولى الحكم بعـده اخوه الاصغر الديسبوتس ثيودوروس . ولكن الفيلفس رأى في اخيه قسطنطين شخصية أقوى وأليق وأجدر . والمؤسف المؤلم الذي حزّ في صدر يوحنا ان المرشحين الاثنين خطبا ود مراد الثاني واستعدا لحرب اهلية مرّة (١٤٣٥ – ١٤٣٦)[٤].

وقام في الغرب آنئذٍ من طـالب باصلاح الكنيسة رأسها واعضائها وبوضع حدٍ لخروج يوحنا هوس واتباعه . فالتأم مجمع مسكوني غربي في مدينة بازل (١٤٣١ – ١٤٤٨) للنظر في هـذين الامرين الهامين . وعلم

١ *Anagnostes, J., Extremo, 481-538.*

٢ *Bréhier, L., Byzance, 486.*

٣ *Bréhier, L., Byzance, 489.*

٤ *Phrantzes, J., Chron., II, 12.*

الآباء المجتمعون بفوز الاتراك في البلقان وبتعاظم شوكتهم ففاوضوا يوحنا الثامن في كيفية التعاون بين النصارى للصمود المثمر في وجه الاتراك. وتبادل الطرفان الوفود وقام الى بازل وفد ارثوذكسي. وأشهر اعضاء هذا الوفد الاب ازيدوروس الذي اصبح فيما بعد رئيس اساقفة موسكو. ووصل هذا الوفد الى بازل وبات ينتظر البحث في التفاهم والاتحاد بين فرعي الكنيسة الأم الرئيسين. ولكن اساقفة الغرب تشاحنوا كثيراً في تعيين المكان الذي يلتئم فيه مجمع مسكوني جديد ثم اتفقوا على ارجاء البحث في قضية التعاون بين الكنيستين الى ان يكونوا قد حلوا مشكلة يوحنا هوس وأتباعه. فغضب الارثوذكسيون لكرامتهم وظنوا ان اخوانهم الغربيين الكاثوليكيين انما ساووا بين الارثوذكسيين «الحقيقيين» وبين الهراطقة. وعلمت الاوساط الاكليريكية والشعبية في الشرق بما جرى فهبت عاصفة هوجاء من الاستياء في عاصمة الارثوذكسية[1].

ولم يرضَ البابا عن البحث في اصلاح رأس الكنيسة ولم يحضر اجتماعات بازل. ولكنه اهتم لسير الحوادث السياسية في البلقان اهتماماً كبيراً. ففاتح يوحنا الثامن كلاماً مستقلاً في الموضوع نفسه الذي فاوض بشأنه الاساقفة المجتمعون في بازل. وكان يوحنا على ما كان عليه من قلق واضطراب فقبل باقتراح اوجانيوس الرابع (١٤٣١ – ١٤٤٧) واقترح عقد مجمع مسكوني في القسطنطينية. ولكن البابا رأى ان يعقد هذا المجمع في بلد ايطالي وسط بين الشرق والغرب ووعد بدفع نفقات الاعضاء الارثوذكسيين ودعا الى مجمع مسكوني في فراري وقبل يوحنا الثامن وترأس الوفد بشخصه وضم اليه أخاه والبطريرك يوسف ومرقس متروبوليت إفسس وبيساريون العالم الاديب والاكليريكي الكبير سيلفستروس

١ *Pierling, L. P., La Russie et le Saint-Siège, I, 11, 12, 15.*

الذي أصبح فيما بعد مؤرّخ هذا المجمع Sylvestrus Syropoulos وعدداً غير قليل من الاكليروس والشعب . وأوفد امير موسكو ازيدورووس رئيس اساقفة موسكو وعدداً من الاكليروس والشعب[١] .

وعارض الفسيلفس في سياسته هذه عددٌ غير قليل من وجهاء الروم من رجال الدين والدنيا فأكدوا ليوحنا « ان عمله هذا يؤدي حتماً الى ضياع الارثوذكسية النقية والى عودة اللاتين الى الحكم في الشرق بسابق فظاظتهم وجشعهم[٢] » . وافضل مثال على هذه المعارضة الشديدة ما كتبه يوسف برينوس Bryennius في اوائل هذا القرن الذي نحن بصدده . فانه قال : « ولا ينخدع احد منكم بالرجاء الفارغ بان جيوش الحلفاء الايطاليين سيجيئون الينا ان عاجلاً او آجلاً . وان هم تظاهروا بالدفاع عنا فانهم سيحملون السلاح للقضاء على مدينتنا وجنسنا واسمنا[٣] » .

وعارض البابا في دعوة المجمع المسكوني الى الانعقاد في فراري عددٌ من الاساقفة اعضاء المجمع المنعقـد في بازل ، وأبوا ان يطيعوا أمره . وظلوا في بازل مجتمعين . ورفعوا سلطته !

وقد جمع يوحنا ، قبل ان يبرح القسطنطينية ، مجلساً من الوجهاء وبسط امامه وجهة نظره مجدداً ، فتجددت المعارضة في شخص جاورجيوس سكولاريوس Scholarios وغيره . وابدى البطريرك يوسف رأيه فاذا به يعارض ايضاً . واضطر يوحنا الى ان يستأذن سيده مراداً الثاني فلم يوافق هذا على خطة الفسيلفس . وبعد ان قام الوفد من القسطنطينية أحب مراد ان يقتحم اسوارها ولكنه أصغى الى مشورة وزيره خليل

١ *Vast, H., Le Cardinal Bessarion, 43; Bréhier, L., Byzance, 491; Vasiliev, A. A., Byz. Emp. 672-673.*

٢ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp. 672.*

٣ *Kalogeras, Marcos etc., 70; Norden, W., Das Papsttum und Byzanz, 781.*

فعدل[1].

ووصل الوفد الارثوذكسي الى البندقية في الثامن من شباط سنة ١٤٣٨ . وفي اوائل آذار التالي وصل الى فراري وبدأت اعمال المجمع . وبُحث بادىء ذي بدء في برنامج العمل فألح يوحنا على ان يبدأ في السياسة والحرب ولكن الاساقفة الغربيين رأوا غير ذلك . وكانوا اكثرية غالبة فبوشر في بحث نقاط الخلاف بين الكنيستين . وطال الجدال ، وقالت الاكثرية بوجوب حصر البحث في نقاط اربع : انبثاق الروح القدس ، واستعمال الفطير ، ونوع آلام المطهر ، ورئاسة البابا . وأكد متروبوليت إفسس ان القول بالانبثاق من الابن أمر احدثته رومة . وجادله في هذا بين البابا الكردينال بوليانوس قيصريني . ثم انتشر الطاعون في فراري وأصاب بعض أعضاء المجمع فانتقل الجميع الى فلورنزة في العاشر من كانون الثاني سنة ١٤٣٩ . واحتدم الجدل مرة ثانية حول هذه النقاط وامتنع البطريرك وغيره عن موافقة الاساقفة الغربيين وأيّد هؤلاء كل التأييد ازيدور رئيس اساقفة موسكو وشد ازره بيساريون العالم . وسئم الفسيلفس هذه المشادة وهذا الجدل وملّ وكاد يغادر فلورنزة . وتوفي البطريرك قبل الوصول الى نتيجة حاسمة . وظل مرقس رئيس اساقفة افسس متمسكاً بوجهة النظر الارثوذكسية حتى النهاية . وثابر الفسيلفس في تأييد الاساقفة الغربيين . فاتخذت قرارات معينة وأعلن اتحاد الكنيستين في السادس من تموز سنة ١٤٣٩[2].

ولا تزال فلورنزة حتى يومنا هذا تفاخر بما جرى فيها فتعرض في

[1] *Phrantzes, G., Chron. II, 13 ; Bréhier, L., Byzance, 493.*

[2] *Hofmann, G., Konzilsarbeit in Ferrara, Orient. Christ. Periodica, 1937, 110-140, 403-455, 1938, 157-188, 372-433 ; Jugie, M., Schisme Byzantin, (1941), 264-270.*

في احدى دور كتبها Biblioteca Laurenziana نسخة معاصرة عن قرار الاتحاد باللغات اللاتينية واليونانية والصقلبية . ولا تزال كنيسة Santa Maria Novella تحتفظ بأثر تذكاري لوفاة البطريرك المسكوني يوسف المشار اليه . ولا يزال الناظر الى مدخل كنيسة القديس بطرس في رومة يشاهد نقوشاً صغيرة تخلّد ذكر ابحار يوحنا الثامن من القسطنطينية ووصوله الى فراري وجلوسه في فلورنزة وعودته من البندقية . اما تمثال يوحنا الثامن الذي لا يزال يعرض في متحف البروبوغندة في رومة فانه في الارجح مزوّر من صنع احد النحاتين الايطاليين في القرن الماضي[1].

وعاد يوحنا الثامن الى الشرق وعاد الوفد بأكمله . فالتف حول مرقس متروبوليت افسس عدد كبير من المعارضين . ورجع عدد كبير ممن وقع صك الاتحاد عن تواقيعهم . واوقف امير موسكو رئيس الاساقفة ازيدور ولقبه بالذئب بدلاً من الراعي . واجتمع بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم في مجمع محلي في اوروشليم سنة ١٤٤٣ وشجبوا قرارات فلورنزة ووصموها بالدنس[2]. ويرى بعض العلماء ان أقطاب الكنيسة الارثوذكسية اجتمعوا في السنة ١٤٥٠ في كنيسة الحكمة الالهية في مجمع مسكوني ارثوذكسي فشجبوا الاتحاد ومن قال به . واول من نشر اعمال هذا المجمع لاون اتاليوس الايطالي وذلك في القرن السابع عشر . ومنذ ذلك الحين وعلماء الكنيسة معسكران فمنهم من يقول بصحة هذه الاعمال ومنهم من ينكر انعقاد هذا المجمع . وأشهر من يؤيد الصحة العالم الالماني درازكه والعالم الافرنسي براهيه[3]. وفي

١ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp. 674.*

٢ *Allatius, L., Ecclesiae Occidentalis, III, (4), 939; Diehl, C., Europe Orientale, 363-364.*

٣ *Draseke, J., Zum Kircheneinigungsversuch des Jahres 1939, (Byz. Zeit.), 1896, 580; Bréhier, L., Attempts at Reunion of the Greek and Latin Churches, Camb. Med. Hist., IV, 624-625.*

طليعة الآخرين العالم باباپوانو اليوناني ولبديف الروسي[1]. ويرى العلامة المعاصر فازيليف الروسي انه ليس هنالك دليل كاف يؤيد رجوع قسطنطين الحادي عشر عن الاتحاد. ولكن ليس هنالك اي اختلاف في انه لدى سقوط القسطنطينية في يد الاتراك (١٤٥٣) رقي السدة المسكونية البطريرك جناديوس وان هذا البطريرك الذي كان قد اشترك في اعمال فلورنزة بصفته جاورجيوس سكولاريوس كان قد عاد عن اتحاد الكنيستين[2].

موقف مراد الثاني: وبرَّ البابا اوجانيوس الرابع بوعوده في فلورنزة فحضَّ جميع ملوك النصارى على انقاذ الروم من الخطر التركي. فلبى هذا النداء الفونزو الخامس ملك ارغونة، ولاديسلاس ملك المجر، ويوحنا هونيادي امير ترانسلفانية، وعدد كبير من الفرسان الالمان والافرنسيين والمجريين والبولونيين. وفي تموز السنة ١٤٤٣ غادر هؤلاء الصليبيون بودا وعبروا الدانوب فرحب بهم الصرب والبلغار واحتلوا صوفيا. وكان مراد الثاني منهمكاً في اخضاع ابراهيم بك امير القرمان. فهرع الى البلقان وحارب الصليبيين في كونوفيتزة Kounovitsa في الرابع والعشرين من كانون الاول سنة ١٤٤٣ فكسره هونيادي فيها وأكرهه على المهادنة لمدة عشر سنوات على ان يتنازل عن الصرب ويعطي الفلاخ للمجر[3]. وكان جاورجيوس كستريوته Çastriota «اسكندر بك» قد رفع راية الثورة ضد العثمانيين في البانية وحرر كل ما وقع بين فوروسة وارتة. ونهض قسطنطين باليولوغوس ديسبوتس المورة فرمم خط الدفاع عن برزخ كورنثوس وفرض سلطته على جميع المورة.

١ *Papaioannu, K., So-Called Council of Sophia, Vizantiyski Vremennik, II, 394-413; Lebedev, A., Essays on Byz. East. Ch., 294.*

٢ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp. 675.*

٣ *Iorga, N., Notices, II, 395.*

موقعة ورنة : (١٤٤٤) ثم رأى مراد الثاني ان يستريح من عناء الملك فتنزل عن العرش لابنه محمد الثاني وكان حديث السن لا يتجاوز الرابعة عشرة . وأقام مراد في مغنيسية في آسية الصغرى يطلب الراحة . فلما رأى الكردينال قيصريني ويوحنا الثامن ذلك حضا لاديسلاس ملك المجر على ان يغتنم هذه الفرصة لمتابعة النصر . واعتبر الكردينال العهود التي تعطى لغير المؤمنين غير ملزمة اصحابها . فادعى لاديسلاس ان العثمانيين لم ينفذوا شروط الصلح اذ انهم لم يتخلوا عن جميع الحصون في بلاد الصرب ، فنقض عهده معهم وأمر يوحنا هونيادي بالزحف على الاراضي العثمانية . فتقدم هذا في بلغارية واستولى على كثير من حصونها ووصل الى شاطىء البحر الاسود . وعلم مراد بذلك فرجع الى الملك وسار بجيش الى بلغارية . والتقى لاديسلاس وهونيادي خارج ورنة Varna في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٤٤٤ . وأمر بان تحمل بين الاعلام صورة المعاهدة المنقوضة . فأنزل بالصليبيين هزيمة شنعاء « بفضل حمق الملك لاديسلاس الذي لم يكن يتجاوز العشرين من عمره والذي تأكل نفسه الحسد لانتصارات هونيادي فبرح المكان المعين له وصُرع في هجوم شنه على الانكشارية[١] » .

مراد وقسطنطين باليولوغوس : ولم يفتّ هذا في ساعد قسطنطين ديسبوتس المورة فانه حالف ديسبوتس الصرب وقطع برزخ كورنثوس واستولى على بلاد اليونان الوسطى . فقام اليه مراد الثاني في السنة ١٤٤٦ وكسره في ثيبة . ثم دك حصون البرزخ واكتسح المورة وسبى من ابنائها ستين الف رقيق . فدخل قسطنطين في طاعة السلطان في ربيع السنة ١٤٤٧[٢] .

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 365-366.*
٢ *Zakythinos, D. A., Despotat, 235 ff.*

موقعة قوصوة: (١٤٤٨) وفي خريف السنة ١٤٤٨ عاد مراد الثاني الى القتال في البانية ليخضع اسكندر بك. فهبّ البابا نيقولاووس الخامس يحضّ المؤمنين على القتال ولاسيا المجريين والبولونيين. وتزعم هذه الحركة يوحنا هونيادي الوصي على ابن لاديسلاس القاصر. ونجح هونيادي في تنظيم جيش مؤلف من اربعة وعشرين الف مقاتل. وأحسن تنظيمه وتدريبه وتقدم به عبر بلاد الصرب الى ميدان قوصوة حيث التقى مراد الثاني وجيوشه. واستمر القتال يومين كاملين كانت الحرب فيهما سجالاً. وفي اليوم الثالث خان هونيادي الجنود الفلاخيون وعددهم ثمانية آلاف. فانتصر مراد الثاني. وحاول هونيادي ان يشق طريقه عبر الدانوب فوقع في ايدي الصرب الذين كانوا قد امتنعوا عن التعاون معه منذ اعلان الحرب. فاضطر الى ان يعقد صلحاً لم يكن في مصلحته. ولجأ اسكندر بك الى اعالي التلال وتابع الحرب ضد الاتراك وحده حتى السنة ١٤٦٨.

وفاة يوحنا الثامن: وتوفي الفسيلفس يوحنا الثامن بعد قوصوة باسبوعين في السنة ١٤٤٨. وكان قد تزوج ثلاثاً: حنة ابنة باسيليوس الاول دوق موسكو ولكنها توفيت بداء الطاعون بعد ثلاث سنوات. ثم تزوج من صوفية مونتفرات الايطالية، ولكنها كانت قبيحة سمجة فتركته وحده وعادت الى بلادها وتوفيت فيها. فاقترن يوحنا عندئذ بمريم كومنينوس من افراد الاسرة المالكة في طرابزون. ولكنه على الرغم من هذا كله لم يرزق ولداً يخلفه في الحكم. ولدى وفاته تدخل مراد الثاني في أمر الخلافة فتوج قسطنطين باليولوغوس ديسبوتس المورة فسيلفساً في ميسترة في السادس من كانون الثاني سنة ١٤٤٩.

قسطنطين الحادي عشر: (١٤٤٩ – ١٤٥٣) ودخل قسطنطين الحادي عشر القسطنطينية في الثاني عشر من آذار سنة ١٤٤٩ فاستقبله الشعب

بابتهاج عظيم . وكانت علاقاته مع الاتراك طيبة للغاية فعاهد مراداً الثاني على الولاء في الخامس والعشرين من الشهر نفسه . ولم يعنَ بالاسوار والحصون ولم يتصل بروما ليثبت لها ان اتحاد الكنيستين كان لا يزال قائماً في نظره . وجدد الهدنة بين الروم والبنادقة . ولم يقلقه في اول عهده سوى طمع اخويه توما وديمتريوس في الحكم في المورة . ففي السنة ١٤٥١ استولى توما على جزء من مقاطعة اركادية التابعة لحكم ديمتريوس ، فاستعان هذا بطره خان حاكم ثيسالية التركي ، فأعاد هذا الى ديمتريوس ما كان قد سلبه اخوه توما . ثم توفي مراد الثاني في الثاني من شباط سنة ١٤٥١ ، فاكفهر جو العلاقات الرومية التركية وعظم الخطب .

محمد الثاني والقسطنطينية : (١٤٥١ - ١٤٥٢) واستهل محمد حكمه بان أمر بقتل اخيه الطفل احمد . وحاول ابراهيم امير القرمان ان يشق عصا الطاعة فقام محمد اليه مقاتلا فأخضعه . وبينما كان منهمكاً في هذا العمل كان وزيره خليل باشا يفاوض قسطنطين الحادي عشر في مصير الامير اورخان حفيد سليمان العثماني الذي كان لا يزال في القسطنطينية . فطالب قسطنطين بمضاعفة المبلغ الذي كان يدفع الى الفسيلفس لقاء احتفاظه باورخان .

وعاد محمد الثاني الى ادرنة فعلم بمطالب قسطنطين الحادي عشر ، فوقع في العاشر من ايلول من هذه السنة نفسها (١٤٥١) معاهدة مع البندقية التي كانت تستعد لحرب ضد جنوى . وفي العشرين من تشرين الثاني تمَّ التفاهم بينه وبين يوحنا هونيادي . فتعهد السلطان الجديد بان يمتنع عن تحريض هوسبودار الفلاخ على المجر وعن انشاء الحصون عند الدانوب مقابل سلم وأمان بين الطرفين[١] . وصادق في الوقت نفسه جنوى وراغوسة وفرسان

١ *Iorga, N., Gesch. des Osman. Reiches, II, 8-9.*

رودوس[١]. وفي تشرين الاول من السنة ١٤٥٢ أنفذ السلطان حاكم ثيسالية بقوة عسكرية الى المورة ليستولي عليها ويمنع اميريها توما وديمتريوس من مساعدة قسطنطين الحادي عشر عند الحاجة[٢]. وقام في الوقت نفسه تقريباً بمحاربة اسكندر بك في البانية لان ألفونزو ملك نابولي كان قد أنزل بعض القوات على شاطىء البانية[٣].

وفي آذار السنة ١٤٥٢ كان محمد قد بدأ بانشاء قلعة بالقرب من القسطنطينية أطلق عليها اسم روم ايلي حصار ليهدد بها الابحار من مرفأ القسطنطينية واليه. فقامت هذه القلعة في الساحل الاوروبي مقابل كوزل حصار التي كان بايزيد قد انشأها على الشاطىء الاسيوي. فأرسل قسطنطين وفداً يحتج على ذلك. فأمر محمد بهم فقطعت رؤوسهم. وبذلك بدأت الحرب[٤].

قسطنطين الحادي عشر يستعد: (١٤٥٢) وفي ربيع السنة ١٤٥٢ وصيفها رمم قسطنطين الاسوار والحصون وذخر المؤن لوقت الحصار. وراسل يوحنا هونيادي مقدماً سيلمبرية، والفونزو الخامس واهباً جزيرة لمنوس، ولوّح بامتيازات هامة لكل من البندقية وجنوى. وكتب الى البابا نيقولاووس الخامس. ولكنه لم يتلقَّ من الغرب شيئاً سوى شخص ايزودور الذي كان قد أصبح كردينالاً بعد خروجه من موسكو. فانه جاءَ من رومة موجباً اعلان اتحاد الكنيستين في كنيسة الحكمة الالهية وذكر البابا في الذبتيخة. فضغط الفسيلفس على بعض رجال الاكليروس العالي وأقام في الثاني عشر من كانون الاول من السنة ١٤٥٢ قداساً

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 370.*
٢ *Zakythinos, D. A., Despotat, 246-247.*
٣ *Gegaj, Albanie et Invasion Turque, 97-99.*
٤ *Critobule d'Imbros, II st., 30, ff.*

حافلًا في كنيسة الحكمة الالهية بموجب الطقس اللاتيني . وما ان فعل حتى ضجت المدينة بالاحتجاج والسخط وانتقد عالم المورة وفيلسوفها قول اللاتين بانبثاق الروح القدس من الآب والابن وأوجع الفسيلفس لوماً لانه لجأ الى الضغط في هذه القضية . وتزعم جناديوس العالم هذه المعارضة ، وأعلن الدوق الكبير نوتاراس Notaras انه يؤثر عمائم شيوخ الاتراك على تيجان اساقفة اللاتين[1]. وبدأ الحصار وظل قسطنطين يسعى لاستدرار المعونة من الغرب . ولكنه لم يلقَ سوى سبع مئة محارب بقيادة يوحنا الغوستنياني الجنوي . وألح سفير البندقية وممثل البابا على الاميرال غبريال تريفيزانو Trevisano الذي كان قد واكب الكردينال ايزيدور ان يبقى في مياه القسطنطينية . ولكن ربابنة البوارج آثروا الخروج على البقاء . وحذا حذوهم اهل الحل والربط من رجال الجالية الجنوية في بيرا . فقالوا بان بقاءهم على الحياد يكون في صالح الروم اذ يتمكنون عندئذٍ من ادخال المعونة الى العاصمة .

ويستدل من افضل المراجع الاولية على ان عدد المحاربين في عاصمة الروم آنئذٍ لم يتجاوز الـ ٤٩٧٣ رجلًا وان عدد الاجانب المقاتلين معهم تراوح بين الالفين والثلاثة آلاف وان سلاح هؤلاء جميعاً كان ابيض وانه لم يكن لديهم سوى بعض المدافع المتوسطة الحجم وان القوة البحرية كانت مؤلفة من سبع بوارج وان الذخيرة لم تكن كافية وان الفسيلفس اضطر الى ان يسك النقود من فضة الكنائس[2].

حصار القسطنطينية : (٧ نيسان – ٢٩ ايار) وفي الثاني من نيسان سنة ١٤٥٣ مدّ الروم السلسلة العظيمة فأقفلوا بها مدخل القرن الذهبي .

١ *Diehl, C., Europe Orientale, 371-372.*

٢ *Phrantzes, G , Chron., III, 3, 338; Leonare de Chio, Lettre, P. G., 934-936.*

وفي الخامس منه وصل محمد الفاتح بجيوشه الى الاسوار بستين الف مقاتل وبعدد كبير من الدراويش والتجار والفلاحين العزّل الذين استهواهم النهب والسلب . وفي السابع من الشهر نفسه ارسل السلطان الى الفسيلفس انذاراً رسمياً بوجوب تسليم المدينة ، فرفض ، فبدأ الحصار .

وكان قد وفد على قسطنطين الحادي عشر مغامر مجري اسمه اوربانوس عرض عليه اعداد مدفعية قوية تسهل الدفاع عن العاصمة ضد الاتراك . فقبل الفسيلفس ولكنه لم يتمكن من دفع التعويضات التي طلبها هذا المجري . فخرج اوربانوس من القسطنطينية ووفد على سلطان الاتراك (١٤٥٢) واستأذنه في صنع مدفع جبار يقذف قنابل ضخمة مؤكداً ان هذه المقذوفات تدك اسوار القسطنطينية دكاً . فتحمس السلطان الفتي وأمر بوضع كميات غير محدودة من البرونز تحت تصرف اوربانوس . فصنع هذا منها مدفعاً جباراً طول ماسورته سبعة امتار وقطر فوهته متر . وعملاً بنصيحة اوربانوس أمر محمد الفاتح بان يوضع المدفع على مركبة ذات ست عجلات صنعت من خشب السنديان القوي . اما القذائف فقد جعلها اوربانوس من الحجر وزن الواحدة منها حوالى سبع مئة كيلو . ونقل هذا المدفع الى ادرنة وجرّب في ضواحيها فاذا به يقذف هذه القنابل الى مسافة كيلومتر واحد او اكثر قليلاً . فسُرّ السلطان بالنتيجة وأمر بنقل المدفع الى جوار القسطنطينية . فجرّ هذا المدفع مئة ثور وقطع المسافة بين ادرنة والقسطنطينية في خمسة وستين يوماً . وكان لدى الروم مدافع ولكنها كانت صغيرة الحجم لا تقوى على رد المثل بالمثل . ومن هنا قول كريتوبولوس المؤرخ المعاصر : « ان القول الفصل في الحصار كان للمدفعية » . وخشي السلطان معونة بحرية من الغرب فأنشأ منذ السنة ١٤٥٢ اسطولاً حربياً مؤلفاً من مئتين وخمسين بارجة ما عدا مراكب النقل . فأبحر هذا الاسطول عند بدء الحصار من بحر مرمرة

ورسا في مياه البوسفور .

وفي الثامن عشر من نيسان أمر السلطان بهجوم عام ولكنه نكص على اعقابه . وحاول اقتحام مداخل القرن الذهبي فلم يفلح . وفي العشرين من نيسان أطل من بحر مرمرة اسطول غربي مؤلف من اربع بوارج وثلاث ناقلات كبيرة . فأمر السلطان قائد اسطوله بلطه اوغلو بصدهم عن الوصول الى القسطنطينية وبتدميرهم . ونشب القتال بين الطرفين بمرأى من السلطان . وانتصر الاسطول الجنوي القادم على الاسطول التركي المدافع . فاستشاط محمد غيظاً وأراد ان يقطع رأس بلطه اوغلو بيده . ووصل الاسطول الجنوي الى القرن الذهبي واذا به ينقل الحبوب من صقلية الى العاصمة .

وكان السلطان قد بدأ بمهاجمة الاسوار الغربية وكانت تمتد من القرن الذهبي الى بحر مرمرة . ثم رأى على ضخامة مدافعه انه لا يستطيع التغلب على الاسوار لمناعتها وعظم سمكها . فعوّل على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهي الجهة المشرفة على القرن الذهبي . وكان يحمي الاسوار المشرفة على القرن الذهبي سلسلة عظيمة عند مدخل هذا القرن ووراءَها مراكب حربية . فرأى السلطان ان ينقل قسماً من سفنه براً وينزلها في مياه القرن الذهبي وراءَ البوارج الرومية التي تحمي مدخل هذا القرن . فمهّد طريقاً برية بين البوسفور والقرن الذهبي بلغ طولها حوالى ثلاثة كيلومترات . ووضع عليها عوارض ضخمة من الخشب تتدحرج عليها اسطوانات طويلة خشبية . وسيّر فوق هذه ستين او سبعين سفينة من اسطوله ، فجرّت عليها هذه السفن حتى بلغت القرن الذهبي ، فنزلت فيه بلا عناء . وكان السلطان في اثناء نقل هذه السفن يضلل حامية القسطنطينية بالقصف بالمدافع من الجهات الاخرى . وفي صباح الثالث والعشرين من نيسان فوجئت بوارج الروم عند مدخل القرن الذهبي بالنار من امامها وورائها في آن

واحد . ولم يبقَ امام الروم سوى حيلة واحدة هي حرق السفن التركية التي أدخلت بهذا الشكل الى مياه القرن الذهبي . فأعدوا العدة لذلك وقرروا الهجوم في ليل الثامن والعشرين من الشهر نفسه . ولكن الجنويين في غَلَطة أعلموا الاتراك بذلك في حينه فاتخذ هؤلاء الاجراءات اللازمة وحالوا دون نجاح الروم .

ودام قصف المدينة بالمدافع اسابيع اربعة . فرأى البطريرك والوجهاء والقائد الايطالي غوسطنياني ان يغادر الفسيلفس العاصمة ليجيّش الروم في المورة وغيرها ويتلقى المعونة المنتظرة من الغرب . ولكن قسطنطين الحادي عشر آثر الموت مع شعبه في الدفاع عن النفس .

وقام السلطان في السابع من ايار وفي الثاني عشر منه بهجومين عنيفين ولكنه أخفق في المرتين . وفي الحادي والعشرين من ايار حاول قطع السلسلة العظيمة عند مدخل القرن الذهبي فلم يفلح . وفي الثالث والعشرين من هذا الشهر نفسه اوفد محمد الثاني امير سينوب يفاوض الفسيلفس بتسليم المدينة مقابل خروجه منها وخروج من رغب في ذلك من السكان آمنين حاملين كنوزهم وامتعتهم ومقابل تولية قسطنطين على المورة وانه في حال الرفض تؤخذ العاصمة عنوة وتستباح ثم يُذبح رجالها ذبحاً وتباع نساؤها في اسواق الرقيق . فلم يرَ قسطنطين في هذا كله سوى فخ منصوب . فرفض . فعقد محمد في السابع والعشرين مجلساً حربياً لدرس الموقف . فاقترح خليل باشا رفع الحصار نظراً لما كان قد شاع عن وصول قوة غربية الى مياه خيّوس . ولكن محمداً عارض كل المعارضة وأمر بوجوب الاستعداد لهجوم عام في التاسع والعشرين . وعلم الروم بذلك وقاوموا ببسالة فائقة وردوا الاتراك على أعقابهم مرتين متتاليتين . وكان قد تهدم السور الخارجي بالقرب من باب ادرنة ، فتسلل الانكشاريون من هذه الثغرة الى السور الداخلي . وعلموا من اعوانهم في داخل القسطنطينية ان الباب

الخفي الصغير Kerkoporta الذي كان يطل على الخندق في هذا القطاع نفسه كان مهملاً . فاقتحموه ونفذوا منه الى داخل المدينة ، فدب الذعر في العاصمة . وكان القائد غوسطنياني قد جرح فنقل الى جزيرة خيّوس وتوفي لدى وصوله اليها . وتابع قسطنطين الجهاد وما فتىء يحارب حتى خرّ صريعاً في ميدان الشرف . وأباح السلطان المدينة ثلاثة ايام بلياليها ثم دخلها وذهب تواً الى كنيسة الحكمة الالهية فصلى على مذبحها وأعلنها مسجداً ، ثم استقر في القصر المقدس . وذبح الاتراك اربعين الفاً وساقوا الى اسواق الرقيق خمسين او ستين الفاً[1] .

انتهى

(١) *Phrantzes, G.; Chalkokondyles, L.; Pears, E., Destruction of Greek Empire; Schlamberger, G., Siège et Prise de Const.; Guerdan, R., Vie, Grandeur et Misères de Byzance, 205-247.*

الاباطرة

(٣٢٤ — ٦١٠)

Constantine the Great	٣٢٤ — ٣٣٧	قسطنطين الكبير
Constantine	٣٣٧ — ٤٤٠	قسطنطين
Constans	٣٣٧ — ٣٥٠	قسطنس
Constantius	٣٣٧ — ٣٦١	قسطنديوس
Julian the Apostate	٣٦١ — ٣٦٣	يوليانوس الجاحد
Jovian	٣٦٣ — ٣٦٤	يوفيانوس
Valens	٣٦٤ — ٣٧٨	والنس
Theodosius the Great	٣٧٩ — ٣٩٥	ثيودوسيوس الكبير
Arcadius	٣٩٥ — ٤٠٨	اركاديوس
Theodosius II	٤٠٨ — ٤٥٠	ثيودوسيوس الثاني
Marcian	٤٥٠ — ٤٥٧	مرقيانوس
Leo I	٤٥٧ — ٤٧٤	لاوون الاول
Leo II	٤٧٤	لاوون الثاني
Zeno	٤٧٤ — ٤٩١	زينون
Anastasius I	٤٩١ — ٥١٨	انسطاسيوس الاول
Justin I	٥١٨ — ٥٢٧	يوستينوس الاول
Justinian I	٥٢٧ — ٥٦٥	يوستنيانوس الاول
Justin II	٥٦٥ — ٥٧٨	يوستينوس الثاني
Tiberius II	٥٧٨ — ٥٨٢	طيباريوس الثاني
Maurice	٥٨٢ — ٦٠٢	موريقيوس
Phocas	٦٠٢ — ٦١٠	فوقاس

القياصرة

(٦١٠ – ١٤٥٣)

Heraclius	٦١٠ – ٦٤١	هرقل
Constantine II	٦٤١	قسطنطين الثاني
Heracleon (Heracleonas)	٦٤١	هرقليون
Constantine III (Constans II)	٦٤١ – ٦٦٨	قسطنطين الثالث او قسطنس الثاني
Constantin IV	٦٦٨ – ٦٨٥	قسطنطين الرابع
Justinian II Rhinotmetus	٦٨٥ – ٦٩٥	يوستنيانوس الثاني الاشرم
Leontius	٦٩٥ – ٦٩٨	لاونديوس
Tiberius III	٦٩٨ – ٧٠٥	طيباريوس الثالث
Justinian II	٧٠٥ – ٧١١	يوستنيانوس الثاني للمرة الثانية
Philippicus Bardanes	٧١١ – ٧١٣	فيليبيكوس البرداني
Anastasius II	٧١٣ – ٧١٥	انسطاسيوس الثاني
Theodius III	٧١٥ – ٧١٧	ثيودوسيوس الثالث
Leo III	٧١٧ – ٧٤١	لاوون الثالث
Constantine V Copronymus	٧٤١ – ٧٧٥	قسطنطين الخامس الزبلي
Leo IV Chazar	٧٧٥ – ٧٨٠	لاوون الرابع الخزري
Constantine VI	٧٨٠ – ٧٩٧	قسطنطين السادس
Irene	٧٩٧ – ٨٠٢	ايرينة
Nicephorus I	٨٠٢ – ٨١١	نيقيفوروس الاول
Stauracius	٨١١	استوراقيوس
Michael I Rangabé	٨١١ – ٨١٣	ميخائيل الاول
Leo V	٨١٣ – ٨٢٠	لاوون الخامس الارمني
Michael II Stammerer	٨٢٠ – ٨٢٩	ميخائيل الثاني الالثغ
Theophilus	٨٢٩ – ٨٤٢	ثيوفيلوس
Michael III	٨٤٢ – ٨٦٧	ميخائيل الثالث
Basil I	٨٦٧ – ٨٨٦	باسيليوس الاول
Leo VI Philosopher	٨٨٦ – ٩١٢	لاوون السادس الحكيم
Alexander	٩١٢ – ٩١٣	الاسكندر

Constantine VII Porphyrogenitus	٩١٣ — ٩٥٩	قسطنطين السابع
Romanus I Lecapenus	٩١٩ — ٩٤٤	رومانوس الاول
Stephen and Constantine	٩٤٤ — ٩٤٥	اسطفانوس وقسطنطين
Romanus II	٩٥٩ — ٩٦٣	رومانوس الثاني
Nicephorus II Phocas	٩٦٣ — ٩٦٩	نيقفوروس الثاني
John I Tzimisces	٩٦٩ — ٩٧٦	يوحنا الاول جيمسكي
Basil II Bulgaroctonus	٩٧٦ — ١٠٢٥	باسيليوس الثاني
Constontine VIII	١٠٢٥ — ١٠٢٨	قسطنطين الثامن
Romanus III Argyrus	١٠٢٨ — ١٠٣٤	رومانوس الثالث
Michael IV	١٠٣٤ — ١٠٤١	ميخائيل الرابع
Michael V Calaphates	١٠٤١ — ١٠٤٣	ميخائيل الخامس
Theodora and Zoë	١٠٤٢	ثيودورة وزوية
Constantine IX Monomachus	١٠٤٢ — ١٠٥٥	قسطنطين التاسع
Theodora	١٠٥٥ — ١٠٥٦	ثيودورة
Michael VI Stratioticus	١٠٥٦ — ١٠٥٧	ميخائيل السادس
Isaac I Comnenus	١٠٥٧ — ١٠٥٩	اسحق الاول
Constantine X Ducas	١٠٥٩ — ١٠٦٧	قسطنطين العاشر
Romanus IV Diogenes	١٠٦٧ — ١٠٧١	رومانوس الرابع
Michael VII Ducas Parapinakes	١٠٧١ — ١٠٧٨	ميخائيل السابع
Nicephorus III Botaniates	١٠٧٨ — ١٠٨١	نيقفوروس الثالث
Alexius I Comnenus	١٠٨١ — ١١١٨	اليكسيوس الاول
John II	١١١٨ — ١١٤٣	يوحنا الثاني
Manuel I	١١٤٣ — ١١٨٠	عمانوئيل الاول
Alexius II	١١٨٠ — ١١٨٣	اليكسيوس الثاني
Andronicus I	١١٨٢ — ١١٨٥	اندرونيكوس الاول
Isaac II Angelus	١١٨٥ — ١١٩٥	اسحق الثاني
Alsxius III	١١٩٥ — ١٢٠٣	اليكسيوس الثالث
Isaac and Alexius IV	١٢٠٣ — ١٢٠٤	اسحق واليكسيوس الرابع
Alexius V Mourtzouphlos	١٢٠٤	اليكسيوس الخامس
Theodore I Lascaris	١٢٠٤ — ١٢٢٢	ثيودوروس الاول

يوحنا الثالث	١٢٢٢ - ١٢٥٤	John III Vatatzes
ثيودوروس الثاني	١٢٥٤ - ١٢٥٨	Theodore II Lascaris
يوحنا الرابع	١٢٥٨ - ١٢٦١	John IV
ميخائيل الثامن	١٢٦١ - ١٢٨٢	Michael VIII Paleologus
اندرونيكوس الثاني	١٢٨٢ - ١٣٢٨	Andronicus II
ميخائيل التاسع	١٢٩٥ - ١٣٢٠	Michael IX
اندرونيكوس الثالث	١٣٢٨ - ١٣٤١	Andronicus III
يوحنا الخامس	١٣٤١ - ١٣٩١	John V
يوحنا السادس	١٣٤١ - ١٣٥٤	John VI Cantacuzene
اندرونيكوس الرابع	١٣٧٦ - ١٣٧٩	Andronicus IV
يوحنا السابع	١٣٩٠	John VII
عمانوئيل الثاني	١٣٩١ - ١٤٢٥	Manuel II
يوحنا الثامن	١٤٢٥ - ١٤٤٨	John VIII
قسطنطين الحادي عشر	١٤٤٩ - ١٤٥٣	Constantine XI

اباطرة «رومانية» اللاتينية

١٢٠٤ – ١٢٦١

بردويل الاول	١٢٠٤ - ١٢٠٦	Baudouin I
هنريكوس الهيناوي	١٢٠٧ - ١٢١٦	Henri de Hainaut
بطرس الكرتناوي	١٢١٧ - ١٢١٨	Pierre de Courtenay
يولندة الهيناوية	١٢١٨ - ١٢٢٠	Yolande de Hainaut
روبرتوس الكرتناوي	١٢٢١ - ١٢٢٨	Rabert de Courtenay
بردويل الثاني	١٢٢٨ - ١٢٦١	Baudouin II
يوحنا البرياني	١٢٣١ - ١٢٣٧	Jean de Brienne

ملوك اورشليم اللاتينيون

١٠٩٩ — ١٢٠٥

غودفري	١٠٩٩ — ١١٠٠	Godefroy de Bouillon
بردويل الاول	١١٠٠ — ١١١٨	Baudouin I
بردويل الثاني	١١١٨ — ١١٣١	Baudouin II
فولك أنجو	١١٣١ — ١١٤٣	Foulque d'Angou
بردويل الثالث	١١٤٣ — ١١٦١	Boudouin III
أموري الاول	١١٦١ — ١١٧٤	Amaury I
بردويل الرابع	١١٧٤ — ١١٨٥	Baudouin IV
بردويل الخامس	١١٨٥	Baudouin V
هنريكوس	١١٩٢ — ١١٩٥	Henri de Champagne
اموري الثاني	١١٩٧ — ١٢١٠	Amaury II de Lusignan
يوحنا البرياني	١٢١٠ — ١٢٢٥	Jean de Brienne
فريدريكوس الثاني	١٢٢٥ — ١٢٥٠	Frédéric II Emp.
كونراد	١٢٥٠ — ١٢٥٤	Conrad
كونرادين	١٣٥٤ — ١٢٥٧	Conradin
هوغ الثاني	١٢٥٧ — ١٢٦٩	Hugues II
هوغ الثالث	١٢٦٩ — ١٢٧٧	Hugues III
كارلوس انجو	١٢٧٧ — ١٢٨٤	Charles d'Anjou
يوحنا الاول	١٢٨٤ — ١٢٨٥	Jean I
هنريكوس الثاني	١٢٨٥	Henri II

بطاركة رومة الجديدة

٣٢٤ – ١٤٥٣

Alexander I	٣١٤ – ٣٣٧	الكسندروس الاول
Paul I	٣٣٧ – ٣٣٩	بولس الاول
Eusebius	٣٣٩ – ٣٤١	يوسيبيوس
Paul I	٣٤١ – ٣٤٢	بولس الاول (ثانية)
Macedonius	٣٤٢ – ٣٤٦	مقدونيوس الاول
Paul I	٣٤٦ – ٣٥١	بولس الاول (ثالثة)
Macedonius	٣٥١ – ٣٦٠	مقدونيوس الاول (ثانية)
Eudoxius	٣٦٠ – ٣٧٠	افذوكسيوس
Demophilus	٣٧٠ – ٣٨٠	ذيموفيلوس
Evagrius	٣٧٠	إفاغريوس
Gregorius	٣٧٩ – ٣٨١	غريغوريوس الاول النازيانزي
Maximus	٣٨٠	مكسيموس الاول
Nectarius	٣٨١ – ٣٩٧	نيقطاريوس
Jean Chrysostomus	٣٩٨ – ٤٠٤	يوحنا الذهبي الفم
Arsacius	٤٠٤ – ٤٠٥	ارساكيوس
Atticus	٤٠٦ – ٤٢٥	اتيكوس
Sisinnius	٤٢٦ – ٤٢٧	سيسينيوس الاول
Nestorius	٤٢٨ – ٤٣١	نسطوريوس
Maximianus	٤٣١ – ٤٣٤	مكسيميانوس
Proclus	٤٣٤ – ٤٤٦	بروقلوس
Flavianus	٤٤٦ – ٤٤٩	فلافيانوس
Anatolius	٤٤٩ – ٤٥٨	اناطوليوس
Gennadius	٤٥٨ – ٤٧١	جناديوس

اكاكيوس	٤٧١ — ٤٨٩	Acacius
فراويته	٤٨٩ — ٤٩٠	Fravitas
افيميوس	٤٩٠ — ٤٩٦	Euphemius
مقدونيوس الثاني	٤٩٦ — ٥١١	Macedonius II
تيموثاوس	٥١١ — ٥١٨	Timotheus
يوحنا الثاني	٥١٨ — ٥٢٠	Jean II
ابيفانيوس	٥٢٠ — ٥٣٥	Epiphanius
انثيموس الاول	٥٣٥ — ٥٣٦	Anthimius I
ميناس	٥٣٦ — ٥٥٢	Menas
افتيخيوس	٥٥٢ — ٥٦٥	Eutychius
يوحنا الثالث	٥٦٥ — ٥٧٧	Jean III
افتيخيوس ثانية	٥٧٧ — ٥٨٢	Eutychius
يوحنا الرابع الصائم	٥٨٢ — ٥٩٥	Jean IV
كيرياكوس	٥٩٥ — ٦٠٦	Cyriacus
توما الاول	٦٠٧ — ٦١٠	Thomas I
سرجيوس الاول	٦١٠ — ٦٣٨	Sergius I
برّوس	٦٣٨ — ٦٤١	Pyrrhus
بولس الثاني	٦٤١ — ٦٥٤	Paul II
برّوس ثانية	٦٥٥	Pyrrhus
بطرس	٦٥٥ — ٦٦٦	Pierre
توما الثاني	٦٦٧ — ٦٦٩	Thomas II
يوحنا الخامس	٦٦٩ — ٦٧٥	Jean V
قسطنطين الاول	٦٧٥ — ٦٧٧	Constantin I
ثيودوروس الاول	٦٧٧ — ٦٧٩	Theodorus I
جاورجيوس الاول	٦٧٩ — ٦٨٦	Georges I
ثيودوروس الاول ثانية	٦٨٦ — ٦٨٧	Theodorus I
بولس الثالث	٦٨٨ — ٦٩٤	Paul III
كلينيكوس	٦٩٤ — ٧٠٥	Callinicus
كيروس	٧٠٥ — ٧١٢	Cyrus
يوحنا السادس	٧١٢ — ٧١٥	Jean VI

Germanus I	٧١٥ – ٧٢٩	جرمانوس الاول
Anastasius	٧٢٩ – ٧٥٢	انسطاسيوس
Constantin II	٧٥٣ – ٧٦٥	قسطنطين الثاني
Nicetas I	٧٦٥ – ٧٨٠	نيقيطاس الاول
Paul IV	٧٨٠ – ٧٨٤	بولس الرابع
Tarasius	٧٨٤ – ٨٠٦	طراسيوس
Nicephorus I	٨٠٦ – ٨١٥	نيقيفوروس الاول
Theodotus	٨١٥ – ٨٢١	ثيودوتوس
Antonius I	٨٢١ – ٨٣٢	انطونيوس الاول
Jean VII	٨٣٢ – ٨٤٣	يوحنا السابع
Methodius	٨٤٣ – ٨٤٧	متوديوس الاول
Ignatius	٨٤٧ – ٨٥٨	اغناطيوس
Photius	٨٥٨ – ٨٦٧	فوطيوس
Ignatius	٨٦٧ – ٨٧٧	اغناطيوس ثانية
Photius	٨٧٧ – ٨٨٦	فوطيوس ثانية
Etienne I	٨٨٦ – ٨٩٣	اسطفانوس الاول
Antonius II	٨٩٣ – ٩٠١	انطونيوس الثاني
Nicolas I	٩٠١ – ٩٠٧	نقولا الاول
Euthymius	٩٠٨ – ٩١٢	افثيميوس
Nicolas I	٩١٢ – ٩٢٥	نقولا الاول ثانية
Etienne II	٩٢٥ – ٩٢٨	اسطفانوس الثاني
Tryphon	٩٢٨ – ٩٣١	تريفون
Theophylactus	٩٣٣ – ٩٥٦	ثيوفيلاكتوس
Polyeuctus	٩٥٦ – ٩٧٠	بوليفكتوس
Basilius I	٩٧٠ – ٩٧٤	باسيليوس الاول
Antonius III	٩٧٤ – ٩٧٩	انطونيوس الثالث
Nicolas II	٩٧٩ – ٩٩١	نقولا الثاني
Sisinnius II	٩٩١ – ٩٩٨	سيسينيوس الثاني
Sergius II	١٠٠١ – ١٠١٩	سرجيوس الثاني
Eustathius	١٠١٩ – ١٠٢٥	افستاثيوس

Alexis Studite	١٠٤٣ — ١٠٢٥	اليكسيوس الاستودي
Michael Cerulare	١٠٥٨ — ١٠٤٣	ميخائيل كيرولاريوس
Constantin III Lichoudès	١٠٦٣ — ١٠٥٩	قسطنطين الثالث ليخوذس
Jean VIII Xiphilin	١٠٧٥ — ١٠٦٣	يوحنا الثامن زفلين
Cosmas I	١٠٨١ — ١٠٧٥	قوزما الاول
Eustrathius	١٠٨٤ — ١٠٨١	افستراثيوس
Nicolas III Grammatikos	١١١١ — ١٠٨٤	نقولا الثالث النحوي
Jean IX Hiéromnémon	١١٣٤ — ١١١١	يوحنا التاسع
Leon Stypiotes	١١٤٣ — ١١٣٤	لاوون
Michael II Curcuas	١١٤٦ — ١١٤٣	ميخائيل الثاني
Cosmas II Atticus	١١٤٧ — ١١٤٦	قوزما الثاني
Nicolas IV Mauzalon	١١٥١ — ١١٤٧	نقولا الرابع موزالون
Theodotus II	١١٥٣ — ١١٥١	ثيودوتس الثاني
Neophytus I	١١٥٣	نيوفيطوس الاول
Constantin IV Chliarénos	١١٥٦ — ١١٥٤	قسطنطين الرابع
Luc Chrysoberges	١١٦٩ — ١١٥٦	لوقا
Michael III Anchialos	١١٧٧ — ١١٧٠	ميخائيل الثالث
Chariton	١١٧٨ — ١١٧٧	خريطون
Theodosius I	١١٨٣ — ١١٧٨	ثيودوسيوس الاول
Basilius II Kamatéros	١١٨٦ — ١١٨٣	باسيليوس الثاني
Nicetas II Mountanès	١١٨٩ — ١١٨٦	نيقيطاس الثاني
Léonce	١١٩٠ — ١١٨٩	لاونديوس
Dosithée	١١٩١ — ١١٩٠	دوسيثاوس
Georges Xiphilin	١١٩٨ — ١١٩١	جاورجيوس زفلين
Jean X Kamatéros	١٢٠٦ — ١١٩٩	يوحنا العاشر
Michael IV Autorianos	١٢١٣ — ١٢٠٧	ميخائيل الرابع اوطوريانوس
Théodore II	١٢١٥ — ١٢١٣	ثيودوروس الثاني
Maximus II	١٢١٥	مكسيموس الثاني
Manuel I	١٢٢٢ — ١٢١٥	عمانوئيل الاول
Germanus II	١٢٤٠ — ١٢٢٢	جرمانوس الثاني

Methodius II	١٢٤٠	مثوديوس الثاني
Manuel II	١٢٤٤ — ١٢٥٥	عمانوئيل الثاني
Arsenius Autorianus	١٢٥٥ — ١٢٥٩	ارسانيوس اوطوريانوس
Nicephorus II	١٢٦٠ — ١٣٦١	نيقيفوروس الثاني
Arsenius Autor.	١٢٦١ — ١٢٦٧	ارسانيوس اوطوريانوس ثانية
Germanus III	١٢٦٧	جرمانوس الثالث
Joseph I	١٢٦٧ — ١٢٧٥	يوسف الاول
Jean XI Veccos	١٢٧٥ — ١٢٨٢	يوحنا الحادي عشر فكس
Joseph I	١٢٨٢ — ١٢٨٣	يوسف الاول ثانية
Gregorius II	١٢٨٣ — ١٢٧٩	غريغوريوس الثاني
Athanasius I	١٢٨٩ — ١٢٩٣	اثناسيوس الاول
Jean XII Cosmas	١٢٩٤ — ١٣٠٤	يوحنا الثاني عشر قوزما
Athanasius I	١٣٠٤ — ١٣١٠	اثناسيوس الاول ثانية
Niphon I	١٣١١ — ١٣١٥	نيفون الاول
Jean XIII Glykys	١٣١٦ — ١٣٢٠	يوحنا الثالث عشر غليكس
Gerasimus I	١٣٢٠ — ١٣٢١	جراسيموس الاول
Isaïe	١٣٢٣ — ١٣٣٤	اشعيا
Jean XIV Calécas	١٣٣٤ — ١٣٤٧	يوحنا الرابع عشر
Isidorus I	١٣٤٧ — ١٣٤٩	اسيدوروس الاول
Callistus I	١٣٥٠ — ١٣٥٤	كليستوس الاول
Philotheus	١٣٥٤ — ١٣٥٥	فيلوثيوس
Callistus I	١٣٥٥ — ١٣٦٣	كليستوس الاول ثانية
Philotheus	١٣٦٤ — ١٣٧٦	فيلوثيوس ثانية
Macarius	١٣٧٦ — ١٣٧٩	مكاريوس
Nilus	١٣٧٩ — ١٣٨٨	نيلوس
Antonius IV	١٣٨٩ — ١٣٩٠	انطونيوس الرابع
Macarius	١٣٩٠ — ١٣٩١	مكاريوس ثانية
Antonius IV	١٣٩١ — ١٣٩٧	انطونيوس الرابع ثانية
Callistus II	١٣٩٧	كليستوس الثاني
Matthieu I	١٣٩٧ — ١٣١٠	متى الاول

افتيميوس الثاني	١٤١٠ – ١٤١٦	Euthymius II
يوسف الثاني	١٤١٦ – ١٤٣٩	Joseph II
متروفانس الثاني	١٤٤٠ – ١٤٤٣	Metrophanes II
غريغوريوس الثالث مماس	١٤٤٣ – ١٤٥٣	Gregorius III Mammas
جناديوس الثاني سكولاريوس	١٤٥٣ – ١٤٥٧	Gennadios II Scholarios

باباوات رومة القديمة

٣٢٤ – ١٤٥٣

سيلفستروس الاول	٣١٤ – ٣٣٥	Sylvestre I
مرقس	٣٣٦	Marc
يوليوس الاول	٣٣٧ – ٣٥٢	Jules I
ليباريوس	٣٥٢ – ٣٦٦	Libère
دماسوس الاول	٣٦٦ – ٣٨٤	Damase I
سيريقيوس	٣٨٤ – ٣٩٩	Sirice
انسطاسيوس الاول	٣٩٩ – ٤٠١	Anastase I
انوشنتيوس الاول	٤٠١ – ٤١٧	Inncent I
زوسيموس	٤١٧ – ٤١٨	Zosime
بونيفاسيوس الاول	٤١٨ – ٤٢٢	Boniface I
شالستينوس	٤٢٢ – ٤٣٢	Celestin I
سكستوس الثالث	٤٣٢ – ٤٤٠	Sixte III
لاوون الاول الكبير	٤٤٠ – ٤٦١	Leon I
هيلاريوس	٤٦١ – ٤٦٨	Hilaire
سيمبليسيوس	٤٦٨ – ٤٨٣	Simplice
فاليكس الثالث	٤٨٣ – ٤٩٢	Felix III
جلاسيوس الاول	٤٩٢ – ٤٩٦	Gelase I
انسطاسيوس الثاني	٤٩٦ – ٤٩٨	Anastase II

Symmaque	٤٩٨ — ٥١٤	سيماكوس
Hormisdas	٥١٤ — ٥٢٣	هورميداس
Jean I	٥٢٣ — ٥٢٦	يوحنا الاول
Félix III	٥٢٦ — ٥٣٠	فاليكس الثالث
Boniface II	٥٣٠ — ٥٣٢	بونيفاسيوس الثاني
Jean II	٥٣٢ — ٥٣٥	يوحنا الثاني
Agapet I	٥٣٥ — ٥٣٦	اغابيتوس الاول
Sylvère	٥٣٦ — ٥٣٧	سيلفاريوس
Vigile	٥٣٧ — ٥٥٥	فيجيليوس
Pélage I	٥٥٦ — ٥٦١	بلاجيوس الاول
Jean III	٥٦١ — ٥٧٤	يوحنا الثالث
Benoît I	٥٧٥ — ٥٧٩	بنيديكتوس الاول
Pélage II	٥٧٩ — ٥٩٠	بلاجيوس الثاني
Crégoire I	٥٩٠ — ٦٠٤	غريغوريوس الاول الكبير
Sabinien	٦٠٤ — ٦٠٦	سابنيانوس
Boniface III	٦٠٧	بونيفاسيوس الثالث
Boniface IV	٦٠٨ — ٦١٥	بونيفاسيوس الرابع
Deusdedit	٦١٥ — ٦١٨	عطاالله
Boniface V	٦١٩ — ٦٢٥	بونيفاسيوس الخامس
Honorius I	٦٢٥ — ٦٣٨	اونوريوس الاول
Séverin	٦٤٠	سفارينوس
Jean IV	٦٤٠ — ٦٤٢	يوحنا الرابع
Théodore	٦٤٢ — ٦٤٩	ثيودوروس الاول
Martin I	٦٤٩ — ٦٥٣	مرتينوس الاول
Eugène I	٦٥٤ — ٦٥٧	اوجانيوس الاول
Vitalien	٦٥٧ — ٦٧٢	فيتاليانوس
Adéodat	٦٧٢ — ٦٧٦	اداوداتوس
Domnus	٦٧٦ — ٦٧٨	دومنوس
Agathon	٦٧٨ — ٦٨١	اغاثون
Léon II	٦٨٢ — ٦٨٣	لاوون الثاني

بنديكتوس الثاني	٦٨٤ — ٦٨٥	Benoit II
يوحنا الخامس	٦٨٥ — ٦٨٦	Jean V
كونون	٦٨٦ — ٦٨٧	Conon
سرجيوس	٦٨٧ — ٧٠١	Sergius
يوحنا السادس	٧٠١ — ٧٠٥	Jean VI
يوحنا السابع	٧٠٥ — ٧٠٧	Jean VII
سيسينيوس	٧٠٨	Sisinnius I
قسطنطين الاول	٧٠٨ — ٧١٥	Constantin I
غريغوريوس الثاني	٧١٥ — ٧٣١	Grégoire II
غريغوريوس الثالث	٧٣١ — ٧٤١	Grégoire III
زخريا	٧٤١ — ٧٥٢	Zacharie
اسطفانوس الثاني	٧٥٢ — ٧٥٧	Etienne II
بولس الاول	٧٥٧ — ٧٦٧	Paul I
قسطنطين الثاني	٨٦٧ — ٧٦٨	Constantin II
فيلبوس	٧٦٨	Philippe
اسطفانوس الثالث	٧٦٨ — ٧٧٢	Etienne III
ادريانوس الاول	٧٧٢ — ٧٩٥	Hadrien I
لاوون الثالث	٧٩٥ — ٨١٦	Léon III
اسطفانوس الرابع	٨١٦ — ٨١٧	Etienne IV
بسكال الاول	٨١٧ — ٨٢٤	Pascal I
اوجانيوس الثاني	٨٢٤ — ٨٢٧	Eugène II
فالنتينوس	٨٢٧	Valentin
غريغوريوس الرابع	٨٢٧ — ٨٤٤	Grégoire IV
سرجيوس الثاني	٨٤٤ — ٨٤٧	Sergius II
لاوون الرابع	٨٤٧ — ٨٥٥	Léon IV
بنديكتوس الثالث	٨٥٥ — ٨٥٨	Benoit III
نقولا الاول	٨٥٨ — ٨٦٧	Nicolas I
ادريانوس الثاني	٨٦٧ — ٨٧٢	Hadrien II
يوحنا الثامن	٨٧٢ — ٨٨٢	Jean VIII
مارينوس الاول	٨٨٣ — ٨٨٤	Marin I

Hadrien III	٨٨٤ — ٨٨٥	ادريانوس الثالث
Etienne V	٨٨٥ — ٨٩١	اسطفانوس الخامس
Formose	٨٩١ — ٨٩٦	فرموزوس
Boniface VI	٨٩٦	بونيفاسيوس السادس
Etienne VI	٨٩٦ — ٨٩٧	اسطفانوس السادس
Romain	٨٩٧	رومانوس
Théodore II	٨٩٧	ثيودوروس الثاني
Jean IX	٨٩٨ — ٩٠٠	يوحنا التاسع
Benoit IV	٩٠٠ — ٩٠٣	بونيفاسيوس الرابع
Léon V	٩٠٣	لاوون الخامس
Christophe	٩٠٣ — ٩٠٤	خريستوفوس
Sergius III	٩٠٤ — ٩١١	سرجيوس الثالث
Anastase III	٩١١ — ٩١٣	انسطاسيوس الثالث
Landon	٩١٣ — ٩١٤	لندون
Jean X	٩١٤ — ٩٢٨	يوحنا العاشر
Léon VI	٩٢٨	لاوون السادس
Etienne VII	٩٢٩ — ٩٣١	اسطفانوس السابع
Jean XI	٩٣١ — ٩٣٥	يوحنا الحادي عشر
Léon VII	٩٣٦ — ٩٣٩	لاوون السابع
Etienne VIII	٩٣٩ — ٩٤٢	اسطفانوس الثامن
Marin II	٩٤٢ — ٩٤٦	مارينوس الثاني
Agapit	٩٤٦ — ٩٥٥	اغابيتوس الثاني
Jean XII	٩٥٥ — ٩٦٤	يوحنا الثاني عشر
Léon VIII	٩٦٣ — ٩٦٥	لاوون الثامن
Benoit V	٩٦٤	بنيديكتوس الخامس
Jean XIII	٩٦٥ — ٩٧٢	يوحنا الثالث عشر
Benoit VI	٩٧٣ — ٩٧٤	بنيديكتوس السادس
Boniface VII	٩٧٤ و ٩٨٤ — ٩٨٥	بونيفاسيوس السابع
Benoit VII	٩٧٤ — ٩٨٣	بنيديكتوس السابع
Jean XIV	٩٨٣ — ٩٨٤	يوحنا الرابع عشر

Jean XV	٩٨٥ — ٩٩٦	يوحنا الخامس عشر
Grégoire V	٩٩٦ — ٩٩٩	غريغوريوس الخامس
Jean XVI	٩٩٧ — ٩٩٨	يوحنا السادس عشر
Sylvestre II	٩٩٩ — ١٠٠٣	سلفيستروس الثاني
Jean XVII	١٠٠٣	يوحنا السابع عشر
Jean XVIII	١٠٠٣ — ١٠٠٩	يوحنا الثامن عشر
Sergius IV	١٠٠٩ — ١٠١٢	سرجيوس الرابع
Benoit VIII	١٠١٢ — ١٠٢٤	بنيديكتوس الثامن
Jean XIX	١٠٢٤ — ١٠٣٣	يوحنا التاسع عشر
Benoit IX	١٠٣٣ — ١٠٤٥	بنيديكتوس التاسع
Sylvestre III	١٠٤٤	سلفيستروس الثالث
Grégoire VI	١٠٤٥ — ١٠٤٦	غريغوريوس السادس
Clément II	١٠٤٦ — ١٠٤٧	اكليمنضوس الثاني
Damase II	١٠٤٧ — ١٠٤٨	داماسوس الثاني
Léon IX	١٠٤٨ — ١٠٥٤	لاوون التاسع
Victor II	١٠٥٤ — ١٠٥٧	فيكتور الثاني
Etienne IX	١٠٥٧ — ١٠٥٨	اسطفانوس التاسع
Benoit X	١٠٥٨ — ١٠٥٩	بنيديكتوس العاشر
Nicolas II	١٠٥٩ — ١٠٦١	نقولا الثاني
Alexandre II	١٠٦١ — ١٠٧٣	الكسندروس الثاني
Honorius II	١٠٦١ — ١٠٦٤	اونوريوس الثاني
Grégoire VII	١٠٧٣ — ١٠٨٥	غريغوريوس السابع
Clément III*	١٠٨٠ — ١١٠٠	اكليمنضوس الثالث
Victor III	١٠٨٦ — ١٠٨٧	فيكتور الثالث
Urbain II	١٥٨٨ — ١٠٩٩	اوربانوس الثاني
Pascal II	١٠٩٩ — ١١١٨	بسكال الثاني
Gelase II	١١١٨ — ١١١٩	جلاجيوس الثاني
Calixte II	١١١٩ — ١١٢٤	كاليكستوس الثاني
Honorius II	١١٢٤ — ١١٣٠	اونوريوس الثاني
Innocent II	١١٣٠ — ١١٤٣	انوشنتيوش الثاني

Anaclet II	١١٣٠ — ١١٣٨	انقليتوس الثاني
Victor IV	١١٣٨	فيكتور الرابع
Celestin II	١١٤٣ — ١١٤٤	سالستينوس الثاني
Lucius II	١١٤٤ — ١١٤٥	لوكيوس الثاني
Eugène III	١١٤٥ — ١١٥٣	اوجانيوس الثالث
Anastase IV	١١٥٣ — ١١٥٤	انسطاسيوس الرابع
Hadrien IV	١١٥٤ — ١١٥٩	ادريانوس الرابع
Alexandre III	١١٥٩ — ١١٨١	الكسندروس الثالث
Victor IV	١١٥٩ — ١١٦٤	فيكتور الرابع
Pascal III	١١٦٤ — ١١٦٨	بسكال الثالث
Calixte III	١١٦٨ — ١١٧٩	كاليكستوس الثالث
Innocent III	١١٧٩ — ١١٨٠	انوشنتيوش الثالث
Lucius III	١١٨١ — ١١٨٥	لوكيوس الثالث
Urbain III	١١٨٥ — ١١٨٧	اوربانوس الثالث
Grégoire VIII	١١٨٧	غريغوريوس الثامن
Clément III	١١٨٧ — ١١٩١	اكليمنضوس الثالث
Célestin III	١١٩١ — ١١٩٨	سالستينوس الثالث
Innocent III	١١٩٨ — ١٢١٦	انوشنتيوش الثالث
Honorius III	١٢١٦ — ١٢٢٧	انوريوس الثالث
Grégoire IX	١٢٢٧ — ١٢٤١	غريغوريوس التاسع
Célestin IV	١٢٤١	سالستينوس الرابع
Innocent IV	١٢٤٣ — ١٢٥٤	انوشنتيوش الرابع
Alexandre IV	١٢٥٤ — ١٢٦١	الكسندروس الرابع
Urbain IV	١٢٦١ — ١٢٦٤	اوربانوس الرابع
Clément IV	١٢٦٥ — ١٢٦٨	اكليمنضوس الرابع
Grégoire X	١٢٧١ — ١٢٧٦	غريغوريوس العاشر
Innocent V	١٢٧٦	انوشنتيوش الخامس
Hadrien V	١٢٧٦	ادريانوس الخامس
Jean XXI	١٢٧٦ — ١٢٧٧	يوحنا الحادي والعشرون
Nicolas III	١٢٧٧ — ١٢٨٠	نقولا الثالث
Martin IV	١٢٨١ — ١٢٨٥	مرتينوس الرابع

اونوريوس الرابع	١٢٨٥ – ١٢٨٧	Honorius IV
نقولا الرابع	١٢٨٨ – ١٢٩٢	Nicolas IV
سالستينوس الخامس	١٢٩٤	Célestin V
بونيفاسيوس الثامن	١٢٩٤ – ١٣٠٣	Boniface VIII
بنيديكتوس الحادي عشر	١٣٠٣ – ١٣٠٤	Benoit XI
اكليمنضوس الخامس	١٣٠٥ – ١٣١٤	Clément V
يوحنا الثاني والعشرون	١٣١٦ – ١٣٣٤	Jean XXII
بنيديكتوس الثاني عشر	١٣٣٤ – ١٣٤٢	Benoit XII
اكليمنضوس السادس	١٣٤٢ – ١٣٥٢	Clément VI
انوشنتيوش السادس	١٣٥٢ – ١٣٦٢	Innocent VI
اوربانوس الخامس	١٣٦٢ – ١٣٧٠	Urbain V
غريغووريوس الحادي عشر	١٣٧٠ – ١٣٧٨	Grégoire XI
اوربانوس السادس	١٣٧٨ – ١٣٨٩	Urbain VI
بونيفاسيوس التاسع	١٣٨٩ – ١٤٠٤	Boniface IX
انوشنتيوش السابع	١٤٠٤ – ١٤٠٦	Innocent VII
غريغووريوس الثاني عشر	١٤٠٦ – ١٤٠٩	Grégoire XII
الكسندروس الخامس	١٤٠٩ – ١٤١٠	Alexandre V
يوحنا الثالث والعشرون	١٤١٠ – ١٤١٥	Jean XXIII
مرتينوس الخامس	١٤١٧ – ١٤٣١	Martin V
اوجانيوس الرابع	١٤٣١ – ١٤٤٧	Eugène IV
نقولا الخامس	١٤٤٧ – ١٤٥٥	Nicolas V

الاكاسرة الساسانيون

٢٢٦ – ٦٥١

أردشير الاول	٢٢٦ – ٢٤١	Ardashir I
شابور الاول	٢٤١ – ٢٧٢	Sapor I
هورمزد الاول	٢٨٢ – ٢٧٣	Hormizd I

Vahram I	٢٧٣ — ٢٧٦	بهرام الاول
Vahram II	٢٧٦ — ٢٩٣	بهرام الثاني
Vahram III	٢٩٣	بهرام الثالث
Narseh	٢٩٣ — ٣٠٢	نرسه
Hormizd II	٣٠٢ — ٣٠٩	هورمزد الثاني
Sapor II	٣١٠ — ٣٧٩	شابور الثاني ذو الاكتاف
Ardashir II	٣٧٩ — ٣٨٣	اردشير الثاني
Sapor III	٣٨٣ — ٣٨٨	شابور الثالث
Vahram IV	٣٨٨ — ٣٩٩	بهرام الرابع
Yazdgard I	٣٩٩ — ٤٢١	يزدجرد الاول
Vahram V Gor	٤٢١ — ٤٣٨	بهرام الخامس غور
Yazdgard II	٤٣٨ — ٤٥٧	يزدجرد الثاني
Hormizd III	٤٥٧ — ٤٥٩	هورمزد الثالث
Peroz	٥٤٩ — ٤٨٤	فيروز
Valash	٤٨٤ — ٤٨٨	بلاش
Kavadh	٤٨٨ — ٥٣١	قباذ
Chosroès I	٥٣١ — ٥٧٩	كسرى الاول انو شروان
Hormizd IV	٥٧٩ — ٥٩٠	هورمزد الرابع
Chosroès II	٥٩٠ — ٦٢٨	كسرى الثاني
Ardashir III et Hormizd V	٦٢٨ — ٦٣٢	اردشير الثالث وهورمزد الخامس
Yazdgard III	٦٣٢ — ٦٥١	يزدجرد الثالث

الخلفاء الراشدون

٦٣٢ — ٦٦٠

ابو بكر	٦٣٢ — ٦٣٤	عثمان	٦٤٤ — ٦٥٥
عمر	٦٣٤ — ٦٤٤	علي	٦٥٥ — ٦٦٠

الامويون

٦٦٠ — ٧٠٥

معاوية الاول	٦٦١ — ٦٨٠	عمر ابن عبد العزيز	٧١٧ — ٧٢٠
يزيد الاول	٦٨٠ — ٦٨٣	يزيد الثاني	٢٧٠ — ٧٢٤
معاوية الثاني	٦٨٣	هشام	٧٢٤ — ٧٤٣
مروان	٦٨٣ — ٦٨٥	الوليد الثاني	٧٤٣ — ٧٤٤
عبد الملك	٦٨٥ — ٧٠٥	يزيد الثالث	٧٤٤
الوليد الاول	٧٠٥ — ٧١٥	ابراهيم	٧٤٤
سليمان	٧١٥ — ٧١٧	مروان الثاني	٧٤٤ — ٧٥٠

العباسيون

٧٥٠ — ١٢٥٨

السفاح	٧٥٠ — ٧٥٤	المعتصم	٨٣٣ — ٨٤٢
المنصور	٧٥٤ — ٧٧٥	الواثق	٨٤٢ — ٨٤٧
المهدي	٧٧٥ — ٧٨٥	المتوكل	٨٤٧ — ٨٦١
الهادي	٧٨٥ — ٧٨٦	المنتصر	٨٦١ — ٨٦٢
الرشيد	٧٨٦ — ٨٠٩	المستعين	٨٦٢ — ٨٦٦
الامين	٨٠٩ — ٨١٣	المعتز	٨٦٦ — ٨٦٩
المأمون	٨١٣ — ٨٣٣	المهتدي	٨٦٩ — ٨٧٠

المعتمد	٨٧٠ – ٨٩٢	القائم	١٠٣١ – ١٠٧٥
المعتضد	٨٩٢ – ٩٠٢	المقتدي	١٠٧٥ – ١٠٩٤
المكتفي	٩٠٢ – ٩٠٨	المستظهر	١٠٩٤ – ١١١٨
المقتدر	٩٠٨ – ٩٣٢	المسترشد	١١١٨ – ١١٣٥
القاهر	٩٣٢ – ٩٣٤	الراشد	١١٣٥ – ١١٣٦
الراضي	٩٣٤ – ٩٤٠	المقتفي	١١٣٦ – ١١٦٠
المتقي	٩٤٠ – ٩٤٤	المستنجد	١١٦٠ – ١١٧٠
المستكفي	٩٤٤ – ٩٤٦	المستضي	١١٧٠ – ١١٨٠
المطيع	٩٤٦ – ٩٧٤	الناصر	١١٨٠ – ١٢٢٥
الطائع	٩٧٤ – ٩٩١	الظاهر	١٢٢٥ – ١٢٢٦
القادر	٩٩١ – ١٠٣١	المستنصر	١٢٢٦ – ١٢٤٢
المستعصم	١٢٤٢ – ١٢٥٨		

الطولونيون

احمد ابن طولون	٨٦٨ – ٨٨٤	ابو العساكر جيش	٨٩٥ – ٨٩٦
خمارويه ابن طولون	٨٨٤ – ٨٩٥	ابو موسى هارون	٨٩٦ – ٩٠٤
ابو المناقب شيبان	٩٠٤ – ٩٠٥		

الاخشيديون

محمد الاخشيد ابن طغج	٩٣٥ – ٩٤٥	ابو الحسن علي ابن اخشيد	٩٦٠ – ٩٦٦
ابو القاسم ابن اخشيد	٩٤٥ – ٩٦٠	ابو المسك كافور	٩٦٦ – ٩٦٨
ابو الفوارس احمد ابن علي	٩٦٨ – ٩٦٩		

الفاطميون

المهدي (عبيد الله)	٩٠٩ – ٩٣٤	المستنصر	١٠٣٥ – ١٠٩٤
القائم	٩٣٤ – ٩٤٥	المستعلي	١٠٩٤ – ١١٠١
المنصور	٩٤٥ – ٩٥٢	الآمر	١١٠١ – ١١٣٠
المعز	٩٥٢ – ٩٧٥	الحافظ	١١٣٠ – ١١٤٩
العزيز	٩٧٥ – ٩٩٦	الظافر	١١٤٩ – ١١٥٤
الحاكم	٩٩٦ – ١٠٢٠	الفائز	١١٥٤ – ١١٦٠
الظاهر	١٠٢٠ – ١٠٣٥	العاضد	١١٦٠ – ١١٧١

الحمدانيون

سيف الدولة	٩٤٤ – ٩٦٧	سعيد الدولة	٩٩١ – ١٠٠١
سعد الدولة	٩٦٧ – ٩٩١	ابو الحسن علي ابو المعالي شريف	١٠٠١ – ١٠٠٣

الايوبيون

في القاهرة ودمشق ، والنجمة تشير الى الجمع بين القطرين

١ – القاهرة

صلاح الدين*	١١٦٧ – ١١٩٣	المنصور	١١٩٨ – ١١٩٩
العزيز	١١٩٣ – ١١٩٨	العادل الاول*	١١٩٩ – ١٢١٨
		الكامل*	١٢١٨ – ١٢٣٨

العادل الثاني* ١٢٣٨ – ١٢٤٠
الصالح ايوب* ١٢٤٠ – ١٢٤٩
المعظم طوران شاه* ١٢٤٩ – ١٢٥٠
الاشرف موسى ١٢٥٠ – ١٢٥٢

٢ – في دمشق

الافضل ١١٨٦ – ١١٩٦
العادل الاول* ١١٩٦ – ١٢١٨
المعظم عيسى ١٢١٨ – ١٢٢٧
الناصر ١٢٢٧
الاشرف موسى ١٢٢٨ – ١٢٣٧
الصالح اسماعيل ١٢٣٧
الكامل* ١٢٣٧ – ١٢٣٨
العادل الثاني* ١٢٣٨ – ١٢٤٠
الصالح ايوب* ١٢٤٠
الصالح اسماعيل ١٢٤٠
الصالح ايوب* ١٢٤٥ – ١٢٤٩
المعظم طوران شاه* ١٢٤٩
الناصر يوسف ١٢٥٠ – ١٢٦٠

المماليك البحرية

١٢٥٠ – ١٣٨١

شجر الدر ارملة الصالح ايوب ١٢٥٠
المعز أيبك ١٢٥٠ – ١٢٥٧
المنصور علي ١٢٥٧ – ١٢٥٩
المظفر سيف الدين قطز ١٢٥٩ – ١٢٦٠
الظاهر بيبرس ١٢٦٠ – ١٢٧٧
السعيد بركه خان ١٢٧٧ – ١٢٧٩
العادل سلامش ١٢٧٩
المنصور قلاوون ١٢٧٩ – ١٢٩٠
الاشرف خليل ١٢٩٠ – ١٢٩٣
الناصر محمد ١٢٩٣ – ١٢٩٤
العادل كتبغا ١٢٩٤ – ١٢٩٦
المنصور لاجين ١٢٩٦ – ١٢٩٨
الناصر محمد (ثانية) ١٢٩٨ – ١٣٠٨
المظفر بيبرس ١٣٠٨ – ١٣٠٩
الناصر محمد (ثالثة) ١٣٠٩ – ١٣٤٠
المنصور ابو بكر ١٣٤٠ – ١٣٤١
الاشرف كجك ١٣٤١ – ١٣٤٢
الناصر احمد ١٣٤٢
الصالح اسماعيل ١٣٤٢ – ١٣٤٥
الكامل شعبان ١٣٤٥ – ١٣٤٦
المظفر حاجي ١٣٤٦ – ١٣٤٧
الناصر حسن ١٣٤٧ – ١٣٥١
الصالح صلاح الدين ١٣٥١ – ١٣٥٦
الناصر حسن (ثانية) ١٣٥٦ – ١٣٦١
المنصور محمد ١٣٦١ – ١٣٦٣
الاشرف شعبان ١٣٦٣ – ١٣٧٦
المنصور علاء الدين علي ١٣٧٦ – ١٣٨١
الصالح حاجي ١٣٨١

المماليك البرجية

١٣٨٢ – ١٥١٦

الظاهر برقوق	١٣٨٢ – ١٣٩٢	الظاهر ططر	١٤٢١
الناصر فرج	١٣٩٢ – ١٤٠٥	الصالح محمد	١٤٢١ – ١٤٢٢
المنصور عبد العزيز	١٤٠٥ – ١٤٠٦	الاشرف برسباي	١٤٢٢ – ١٤٣٨
الناصر فرج (ثانية)	١٤٠٦ – ١٤١٢	العزيز يوسف	١٤٣٨
العادل المستعين	١٤١٢	الظاهر جقمق	١٤٣٨ – ١٤٥٣
المؤيد شيخ المحمودي	١٤١٢ – ١٤٢١	المنصور عثمان	١٤٥٣
المظفر احمد	١٤٢١	الاشرف اينال	١٤٥٣ – ١٤٦٠

العثمانيون

١٢٩٩ – ١٤٥٣

عثمان الاول	١٢٩٩ – ١٣٢٦	محمد الاول	١٤٠٣ – ١٤٢١
اورخان	١٣٢٦ – ١٣٥٩	موسى	١٤٠٣ – ١٤١٠
مراد الاول	١٣٥٩ – ١٣٨٩	سليمان	١٤١٠ – ١٤١٣
بايزيد الاول	١٣٨٩ – ١٤٠١	مراد الثاني	١٤٢١ – ١٤٥١
	محمد الثاني	١٤٥١ – ١٤٨١	

فهرس الاعلام وبعض المواضيع

محتويات

الجزء الثاني

الباب الثامن

الاسرة المقدونية والعظمة والمجد

الباب التاسع

تأخر الدولة وانحطاطها

الباب العاشر

تفكك وانهيار

الباب الحادي عشر

اليقظة الاخيرة واخفاقها

الباب الثاني عشر

النهاية

ملاحق

الفهارس

HISTORY

of

THE BYZANTINE EMPIRE

WITH SPECIAL REFERENCE TO ITS RELATIONS
WITH CONTEMPORANEOUS MOSLEM STATES

By

Asad J. Rustum, M. A., Ph. D.

—II—

Dar Al-Makchouf

Beyrouth